جامعة القاهرة

كلية الآداب

يصدرها قسم التاريخ

المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

العدد السابع عشر

يوليو ١٩٩٦

قواعـــد النشـــر

* ترحب المؤرخ المصرى بنشــــر الأبحــاث والدراســـات الأصليــة ذات المستوى الأكاديمى الجاد بعد التحكيم ، فضلاً عن مراجعات وعـرض الكتب الجديدة .

* تقبل المؤرخ المصرى للنشر الأبحاث التاريخية والحضاريـــة المكتوبــة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد صفحـات البحـث أو المقـال عن ٣٠ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة على ورق حجم كوارتر بما فـى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع .

* المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثاً سـبق أن نشـرت أو معروضـة للنشـر فـى مكان آخر، وتقوم رئاسة التحرير بإخطـار المؤلفين بإجـازة بحوثهم للنشـر بعد عرضها على هيئة التحكيم .

* تحتفظ المؤرخ المصرى لنفسـها بحـق القبـول أو رفـض الأبحـاث أيـا كـان قرار هيئة التحيكم .

* النشـر فـى المؤرخ المصـرى متـاح لأعضـاء هيئـة التدريـــس بالجامعــات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية .

* الآراء الـواردة بالمــؤرخ المصـرى تعبر عن وجهة نظـر أصحابها .

المؤرخ المصرى

العدد السابع عشر **يوليو ١٩٩٦**

المراســلات :

ترسل البحوث والمقالات باسم السيد الأستاذ الدكتور/ **سيد أحمد الناصرى**
رئيس التحرير على العنوان التالى :

كلية الآداب – جامعة القاهرة (قسم التاريخ)

بريد الأورمان – محافظة الجيزة

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العـدد

يسعدنى ويشرفنى باسم كليـة الآداب جامعـة القـاهرة أن أكتـب افتتاحيـة هذا العدد من المجلة العلمية لقسم التاريخ التى تصدر تحـت عنـوان " المؤرخ المصرى " . وهى مجلة دورية علمية محكمة استطاعت فى سـنوات قليلـة أن ترتفع إلى مستوى شامخ حققه قسم التاريخ بالكلية منذ إنشائه حتى الآن .

وإننا نعتز بتاريخ هذا القسم العريـق وبالأسـاتذة العلمـاء الأجـلاء الذيـن صنعوا تاريخـه وأثروا بمؤلفـاتهم العلميـة القيمة المكتبة العربيـــة ، فمن منـا لا يذكر بالفخر والاعتزاز الأستاذ الجليل شـفيق غربـال والأسـاتذة الدكـاترة شكرى ، ومصطفى زيادة ، والباز العرينى ... حتـى نصـل إلـى سـعيد عاشـور ، وعبد اللطيف أحمد على ، وكل منهم علم بارز فى ميدانه شامخ بين أقرانه .

ومن هذا القسم العريق تكونت أقسام التاريخ بجامعات مصر والجامعات العربية مما يجعـل فضـل الريـادة قائمًـا لكليتنـا ولجامعتنـا الغـراء ... وأرجـو المولـى عـز وجـل أن تكـون هـذه المجلـة القيمـة رسـولاً للقسـم وعنوانًـا علـى نهضته وبشيرًا يضئ الأجيال التالية بأنه سيعود من جديد ليتبوأ مكان الصدارة وليشع بنور العلم والمعرفة كما كان فى السالف .

وابتهـل إلـى المولـى عـز وجـل أن يكلـل جهـود العـاملين بهـا بالنجـــاح والتوفيق وأن يسدد على طريق الحق والخير خطاهم ، وأشكر هيئـة التحريـر بالمجلة ورئيس قسم التاريخ أ. د. سيد أحمـد على النـاصرى والأسـاتذة علـى ما يبذلونه من جهد وما يقدمونه من بذل وعطاء لقسمهم فى شتى المجالات .

عميد كلية الآداب

أ. د. محمد حمدى إبراهيم

كلمة رئيس التحرير

تواصل مجلة المؤرخ المصرى مسيرتها وهى تدخل عامها الرابع عشر تحمل ثمار أبحاث علماء ومؤرخين من كافة أنحاء الوطن العربى ، يجادلون ويستنتجون لا هم لهم إلا قضايا الوطن العربى الكبير بهمومه وشجونه وقضاياه، وهذه النخبة الممتازة من هؤلاء المؤرخين اللامعين يلتقون على صفحات هذا العدد من المؤرخ المصرى ، وكثيراً ما قرأ بعضهم لبعض أعمالاً ، وجرت بينهم مراسلات ولقاءات ، نتج عنها تعاون علمى وثيق ، وتبادل فى الآراء وهو ما يخدم قضية البحث التاريخى . وفى نفس الوقت فإن المؤرخ المصرى تراقب أحدث المؤلفات التى تهم باحث التاريخ وتقوم بعرضها عرضًا مبسطًا بأسلوب سلس ومبسط .

وهيئة تحرير المؤرخ المصرى تشكر الذين يعملون فى صمت من أجل بقائها وظهورها ، ويقدمون لها العون المادى والمعنوى ، وتخص بالعرفان والتقدير **الأستاذ الدكتور/ محمد حمدى إبراهيم** عميد كلية الآداب الذى لا يبخل أبدًا على المجلة بالدعم المعنوى والمادى إنطلاقاً من حبه للثقافة والعلم ، وتحقيقًا لدعوته فى عودة الروح الثقافية إلى كلية الآدب ، والمؤرخ المصرى تنتهز الفرصة لتقدم لسيادته تهانيها بمناسبة إعادة انتخابه عميدًا للكلية للمرة الثانية متمنية له دوام الازدهار والنجاح مدركة مدى العبئ الثقيل الملقى على عاتقه وهو يعيد إلى كلية الآداب سيرتها الأولى .

ولعل من حسن الطالع أن يختار مؤرخ لامع – هو المؤسس الحقيقى لمجلة المؤرخ المصرى – وهو **الأستاذ الدكتور/ رءوف عباس حامد** وكيلا للكلية لشئون الدراسات العليا مما يبشر بازدهار ونهضة ، ورعاية تلقاها المؤرخ المصرى من جانب سيادته ، داعين المولى عز وجل أن يشد من أزره فى مهمته الجديدة . والله نسأل التوفيق والسداد .

رئيس التحرير

البحوث والدراسات

جان بردى الغزالى وموقفه من العثمانيين

د. فيصل عبد الله أحمد الكندرى

كلية الآداب / جامعة الكويت

المقدمة :

تتعلق هذه الورقة بالنظر فى إحدى الشخصيات المملوكية التى لعبت دوراً بارزاً فى الحياة السياسية فى أواخر أيام سلطنة المماليك وبداية سيطرة العثمانيين على بلاد الشام ومصر وذلك عام ٩٢١م/١٥١٦م . وهو جان بردى الغزالى ، أحد القادة المماليك الذين شاركوا السلطان الغورى فى موقعة مرج دابق عام ١٤١٦ ضد السلطان العثمانى سليم الأول .

والهدف الأساسى من هذا البحث هو بحث إشكالية معينة متصلة بجان بردى الغزالى ، ألا وهى إشكالية تخليه عن سيده السلطان الغورى ، وانحيازه لخصم سيده السلطان العثمانى سليم الأول أثناء معركة مرج دابق الشهيرة ، وكان من نتائج هذه المعركة دخول السلطان سليم بلاد الشام ، ومهدت للقضاء نهائياً على الدولة المملوكية .

إن معظم المصادر التاريخية التى تناولت الصراع العثمانى المملوكى ، اتهمت جان بردى الغزالى بالخيانة والانحياز إلى الصف العثمانى أثناء موقعة مرج دابق عام ٩٢١هـ/١٥١٦م ، وتقول تلك المصادر بأن الخيانة قد حدثت حينما هجر اثنان من قادة المماليك وهما جان بردى الغزالى نائب حماة ، وخاير بك ، حاكم حلب ، سيّدهما السلطان قونصوه الغورى ، وانضما للسلطان العثمانى سليم الأول ، وأن هذ الخيانة كانت من أهم العوامل التى

أدت إلى هزيمة المماليك فى تلك المعركة ، التى ذهب ضحيتّها السلطان المملوكى نفسه ، وترتّبت عليها نتائج هامة منها القضاء على الجيش المملوكى، واستيلاء العثمانيين على بلاد الشام ، وتمهيد الطريق لفتح مصر .

لذلك كان لابد من مقارنة المصادر الأولية المكتوبة باللغة العربية ، وتلك التى كتبت باللغة العثمانية أو التركية القديمة لتبيان الدور الحقيقى الذى قام به الغزالى فى تلك المعركة ، لا سيما وأن تلك المصادر لا توضح حقيقة دور الخيانة التى قام بها كما أن ابن إياس يذكر بأن الغزالى قدّم ولاءه للسلطان سليم أثناء إقامة الأخير فى القاهرة بعد انتصاره على السلطان المملوكى طومان باى ، وهذا القول أثار إشكالية ، كيف يكون الغزالى قد خان المماليك وانضم إلى صفوف العثمانيين فى معركة مرج دابق ، ويرجع ليقدّم ولاءه وإخلاصه مرة أخرى بعد عدة شهور ؟! هذا يدّل على حدوث خطأ ما ، كان لابد للباحثين من كشفه ، وذلك بإعادة قراءة الموضوع من جديد بحثاً عن الحقيقة ، واستكمالاً لموقف الغزالى تتعيّن الإشارة إلى حركة العصيان أو التمرد التى قام بها ضد السلطات العثمانية ، والتى لم يتناولها بالتفصيل أحد من الباحثين ، وما آلت إليه نهايته ، وبناءً على ذلك فإن هذه الورقة ستتناول النقاط التالية :

أولاً : حياة هذه الشخصية منذ البداية ، إلى أن ظهر على الساحة السياسية كأحد القادة المشهورين ، مما جعل السلطان الغورى يعهد إليه بقيادة ميمنة جيشه فى معركة مرج دابق .

ثانياً : موقف الغزالى من العثمانيين بعد خولهم مصر ، إلى أن عينّه السلطان سليم والياً على بلاد الشام قبيل عودته إلى القسطنطينية .

ثالثاً : تمرد الغزالى بعد وفاة السلطان سليم عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م ، وموقف الحكومة العثمانية من تمرده وكيفية القضاء عليه عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م.

وقبل الحديث عن الغزالى يفضل هنا استعراض أهم المصادر التاريخية التى اعتمد عليها البحث . منها تاريخ المؤرخ المصرى المعروف ابن إياس(١) ، المعروف بعنوان " بدائع الزهور فى وقائع الدهور " ، يعطى ابن إياس فى تاريخه هذا المكون من خمسة أجزاء أخبار ومعلومات هامة عن الفترة التى عاصرها بين ٨٧٢ - ٩٢٨هـ/١٤٦٨ - ١٥٢٢م ، وانفرد بتزويدنا بمعلومات عن أصل جان بردى الغزالى ، وأعطانا ترجمة له فى صفحة واحدة فقط(٢) ، وإن قدّم أخباراً متناثرة عنه فى ثنايا مؤلفه . ومحمد ابن طولون الدمشقى(٣) (٨٨٠-٩٥٣هـ/١٤٧٥-١٥٤٦م) ومن مؤلفاته التى تهم هذه الدراسة : الأول يحمل اسم : " إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى " ، وتنتهى أحداث الكتاب بحوادث عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦م. أما الثانى فهو : " مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان " ، وقد رتّب المؤلف

---

(١) هو محمد بن أحمد بن إياس ، كان أحد تلاميذ المؤرخ والفقيه المصرى الشهير جلال الدين السيوطى (٨٤٩ - ٩١١/١٤٤٥ - ١٥٠٥) . من أجل معلومات إضافية عن ابن إياس انظر : خير الدين الزركلى ، الأعلام ، بيروت ، ١٩٦٦ ، جـ٦ ص٥ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الدهور فى وقائع الدهور (القاهرة، ١٩٦١) جـ٥، ص٣٨٣-٣٨٤.

(٣) هو شمس الدين محمد بن على ، وضع ابن طولون ترجمة لنفسه فى كتابه " الفلك المشحون فى أحوال محمد ابن طولون " ، وقد نشر فى دمشق ، وينتمى ابن طولون لأسرة تركية مستعربة ، وكان جده من تجار دمشق ، (انظر : ابن طولون ، إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق وتقديم عبد العظيم حامد خطاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص٤٩ - ١١٠) .

الكتاب الأخير على طريقة الحوليات بالأيام والشهور والسنين ، والكتاب عبارة عن مذكراته الخاصة مما شاهده وسمعه ، ويقع المؤلف فى جزئين ، يتناول أولهما الأخبار من ٨٨٤ - ٩٢١/١٤٨٠ - ١٥١٥م ، فى حين يعالج الثانى الفترة ٩٢٢ - ٩٢٦هـ/١٥١٦ - ١٥٢٠م وكتاب : " الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة " ، الذى كتبه المؤرخ نجم الدين الغزى (٩٧٧ - ١٠٦١هـ/١٥٧٠ - ١٦٥١م)(١) يتناول الغزى هنا تراجم الشخصيات التى عاشت فى هذا القرن . والمؤرخ قطب الدين النهروالى(٢) الذى خلّف العديد من الكتب ، والذى يهم هذه الدراسة كتابه الذى عُرف باسم : " الإعلام بأعلام بيت الله الحرام " ، وتناول قصة خيانة خاير بك وجان بردى الغزالى عند حديثه عن موقعة مرج دابق .

ومن مؤرخى بلاد الشام الذين ظهروا فى القرن الحادى عشر الهجرى/ السابع عشر الميلاد محمد بن عيسى بن كنّان (١٠٧٤ - ١١٥٣/١٦٦٣ - ١٧٤٠) وقد خلّف ابن كنّان العديد من المؤلفات أهمها " حدائق الياسمين فى ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين " ، وفى نهايته أورد فصلاً أطلق عليه الخاتمة تناول فيه تمرد جان بردى الغزالى على السلطان العثمانى ، ولا يتحدّث

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزى ، مؤرخ وباحث وأديب ، وله العديد من المؤلفات ، انظر : الزركلى ، الأعلام ، بيروت ، ١٩٨٠ جـ٧ ص٦٣ .

(٢) ولد النهرروالى فىالهند عام ٩١٧هـ/١٥١١م ، هاجرت عائلته من اليمن لتسكن منطقة النهروالة فى الهند فى القرن الرابع عشر الميلاد ، وفى بدايات القرن الخامس عشر رجع للسكن فى الحجاز انظر : النهروالى ، البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، إشراف حمد الجاسر ، الرياض ، ١٩٦٧ ، ص١١ - ١٩ ، خير الدين الزركلى ، الأعلام ، بيروت ، ١٩٦٤ ، جـ٦ ص٦ - ٧ .

المؤلف عن حادثة الخيانة سواء كانت من قبل خاير بك أو من قبل الغزالى ، ولكنه يبّين دور الغزالى بعد معركة مرج دابق .

أما من كتب من العثمانيين عن الشخصية موضوع البحث فهى ضئيلة جداً ، ولا تعطى معلومات تفصيلية عن حياته أو عن حركته ، ومما يجدر الإشارة إليه أن الكتابات العثمانية التى تناولت الغزالى نعتته بالعاصى والخائن ، وهى بذلك قد تبنّت وجهة نظر الحكومة العثمانية ، كما أنها لا توضح دور الغزالى فى النزاع المملوكى العثمانى ، ومن الكتب التى كتبت باللغة العثمانية(١) ، ما كتبه إبراهيم بجوى (٩٨٢ - ١٠٥٩هـ/١٥٧٤ - ١٦٤٩م)(٢) ، بعنوان : " تاريخ بجوى " ، وفيما يتعلّق بالغزالى فإنه لا يقدم إلا قدراً يسيراً من المعلومات لا تتجاوز أكثر من خمسة أسطر(٣) . وكتاب "تواريخ آل عثمان" للمؤلف لطفى باشا(٤) أضاف فى الهوامش بعض ما ذكرته كتب

(١) المقصود باللغة العثمانية هنا هى اللغة القديمة التى كانت تكتب بحروف عربية ، أما إذا ذكرنا اللغة التركية فنقصد بها اللغة التركية الحديثة والتى تكتب بحروف لاتينية .

(٢) يكتب اسمه أحياناً باسم بجولو ، ولد عام ٩٨٢هـ/١٥٧٤م ، لمزيد من المعلومات عنه انظر :

Taran, article " Pecvie " Islam Ansiklopedisi (I. A.), IX, 543 - 5 ، Babiger, art. "Pecewi" Encyclopaedia of Islam, Ist edition (E. 1. 1.), VI, 1037.

(٣) إبراهيم بجوى ، تاريخ بجوى ، تقديم فخرى درين ووحيد جابوك ، جـ١ ، إستانبول ، ١٩٨٠ ، ص٦٧ .

(٤) وهو من مماليك السلطان سليم الأول ، تولى منصب الوزارة العظمى (صدر أعظم) (وهو ما يسمى فى عرفنا اليوم برئاسة الوزراء عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م ، واستمر بها ثلاث سنوات ، وتوجه إلى الحج بعد عزله ، وتوفى عام ٩٦١هـ/١٥٥٣م ، وله العديد من المؤلفات بالعربية والعثمانية . لمزيد من المعلومات انظر : النهروالى ، الإعلام ، ص٢٩٩ - ٣٠٠ ، محمد طاهر ، عثمانلى مؤلفلرى ، جـ٣ (إستانبول ، ١٣٤٢) ، ص١٣٢ - ١٣٤ ، محمد ثريا ، سجل عثمانى ، جـ٤(إستانبول ، ١٣١١هـ) ص١٩.

التواريخ الأخرى عن الحادثة ، حيث نقلهـا كما وردت دون إبداء رأيه فيها أو ترجيح رأى على آخر(١) .

ومن كتب التراجم العثمانية كتاب محمد ثريا ، والمعروف باسم : " سجلّ عثمانى " ، وهو كتاب لمشاهير العثمانيين ، ويقع فى أربعة مجلدات ، وقد أشار إلى الغزالى فى الجزء الثالث ، إلا أن حديثه عنه لا يتجاوز أربعة أسطر ، وتناوله بإيجاز شديد(٢) .

جان بردى الغزالى فى عهد المماليك :

لا تسعفنا المصادر التاريخية بمعلومات حول نشأة جان بردى الغزالى ، كما أن هذه المشكلة يمكن تعميمها على من هم أمثال جان بردى الغزالى من المماليك الذين كانوا أرقاء لا يؤبه لهم فى بداية حياتهم ، ولقد اعتاد المماليك على شراء أعداد كبيرة من عبيد القوقاز لتجديد الجيش ، وكان هؤلاء يتلقون تدريباً عسكرياً ثم يرفعون من مراتب العسكر إلى المراتب القيادية(٣) . وبالتالى فإن الكثير من المعلومات عن بدايات الغزالى لا زالت غير معروفة ، وهكذا لم يتمكن الباحثون حتى الآن من تحديد تاريخ ومكان ميلاده ، أو تحديد طفولته أو شبابه ، وعليه فإن الحديث عن منحنيات حياته سيكون من خلال ما توفر من معلومات .

---

(١) لطفى باشا ، تواريخ آل عثمان ، تقديم رفعت المعلم ، (إستانبول ، ١٣٤١هـ) ، ص٢٩٤ – ٢٩٦ .

(٢) محمد ثريا ، سجل عثمانى ، جـ٢ (إستانبول ، ١٣١١) ص٦٦ .

(٣) د. عبد العزيز نوار ، الشعوب الإسلامية (بيروت ، ١٩٧٣) ص٨١ .

فهو جان بردى بن عبد الله الشركسى الشهير بالغزالى(١) ، وهو من مماليك الأشرف قايتباى ، اشتراه طفلاً ثم أعتقه ، وعمل فى ضيعة بالمنطقة الشرقية فى مصر يقال لها ضيعة منية غزال ، فنُسب إليها وسُمى الغزالى(٢) ، وقد ظهر على مسرح الأحداث فى أواخر أيام الدولة المملوكية ، ولا سيما فى عهد السلطان قونصوه الغورى الذى عينه محتسب القاهرة ، وهو أول منصب يتولاه الغزالى فى القاهرة ، ويبدو أن الغزالى قد تدرج فى المناصب العسكرية التى اعتاد المماليك التدرج فيها ، وقد أظهر قدرة وكفاءة جعلت السلطان الغورى يعجب به وبكفاءته ، فعهد إليه إحدى المناصب الإدارية فى أيام حكمه ، وبعدها عينه حاجباً فى حلب ، ثم نُقل إلى دمشق ليشغل نفس المنصب فوصل إلى مقر عمله الجديد يوم الجمعة ٢٧ ربيع الآخر ٩١١هـ/٢٩ أغسطس ١٥٠٥م ، قادماً من حلب(٣) ، وقد أثبت من خلال توليه لهذه المناصب كفاءة إدارية عالية ، فزاد إعجاب السلطان به وعهد إليه بمنصب أعلى ، وعينه والياً على صفد فى عام ٩١٧هـ/١٥١١م(٤) ، وفى عام

---

(١) نجم الدين الغزى ، الكواكب السائرة ، جـ١ ص١٦٨ .

(٢) انظر : ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ص٣٨٣ .

(٣) ابن إياس ، المصدر السباق ، ص٣٨٣ ، ابن طولون ، إعلام الورى ، ص١٩٦ .

(٤) انظر : ابن طولون ، نفس المصدر ، ص٢١٩ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ص٩٣ . وصفد : مدينة فى الجبال المطلة على حمص بالشام ، وهى من جبال لبنان (انظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٥٧ ، جـ٣ ص٤١٢) .

٩١٨هـ/١٥١٢م ولاه السلطان الغورى على حماة(١) ، وظل والياً عليها حتى مشاركته فى موقعة مرج دابق بجانب السلطان الغورى .

والجدير بالذكر أن المماليك قد قسموا بلاد الشام إلى ست نيابات مختلفة، وكل نيابة مقسمة بدورها إلى عدد من الولايات ، وهذه النيابات هى : الشام وهى أهم هذه النيابات ، وكانت نيابة الشام تعتبر الخطوة الأولى لتولى عرش السلطنة فى القاهرة . ونيابة حلب ويشرف حاكمها بحكم موقع الولاية على الثغور وهى بذلك تعتبر خط الدفاع الأول عن ولايات الشام . ونيابة طرابلس ، ونيابة حماة ، ونيابة صفد ، ونيابة الكرك(٢) .

قدوم العثمانيون للمشرق الإسلامى :

ظهرت الدولة كقوة سياسية فى الركن الشمالى الغربى من بلاد الأناضول Anatolia ، فى العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر الميلادى ، واتبعت سياسة توسعية واضحة باتجاه الغرب وعلى حساب الدولة البيزنطية والأمم الأوروبية ، إلا أنه مع مطلع القرن السادس عشر الميلاد حدث انقلاب

---

(١) انظر : ابن طولون ، المصدر السابق ، ص٢٤١ ، وأيضاً : ابن إياس . بدائع الزهور ، جـ٥ ص٨٥ ؛ ٣٨٣ وحماة : مدينة قديمة جاهلية ، ذكرها امرؤ القيس فى شعره ، ولما فتح أبو عبيدة بن عامر الجراح حمص سنة ١٧هـ/٦٣٨م ولى عليها عبادة بن الصامت ، الذى سار نحو حماة فخرج أهلها إليه طالبين الصلح ، فصالحهم على الجزية وكانت من مدن الشام الحصينة (انظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٥٦ ، جـ٢ ص٣٠٠ - ٣٠١) .

(٢) د. أحمد عزت عب الكريم ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث (بيروت ، ١٩٧٠) ص١٠٠ - ١٠١ .

فى استراتيجية الدولة التوسعية ، حيث توقف توسعها فى الغرب ، وبدأت تتجه شرقاً نحو البلاد الإسلامية ، وهذا الانقلاب يرجع لعدة اعتبارات :

أولاً : أن موقفها فى الجهة الغربية صار دفاعياً أكثر منه هجومياً ، وكان على الدولة العثمانية أن تبحث لها عن جبهات جديدة للتوسع .

ثانياً : يقول بعض المؤرخين بأن أحداث الشرق الإسلامى هى التى لفتت أنظار العثمانيين إليهم ، ومن هذه الأحداث وصول البرتغال إلى شواطىء الهند الغربية عن طريق الالتفاف حول القارة الأفريقية ، ثم قيامهم بتأسيس إمبراطورية بحرية ساعدت البرتغال على احتكار تجارة التوابل ومنافسة التجار المسلمين . وهذا دفع العديد من حكام العرب والمسلمين إلى الاستنجاد بالدولة العثمانية لمحاربة البرتغال(١) .

ثالثاً : ظهور الدولة الصفوية(٢) فى بلاد فارس وعلى الحدود الجنوبية للدولة العثمانية ومحاولاتها لنشر المذهب الشيعى فى تلك المنطقة . وهذه العوامل مجتمعة دفعت العثمانيين للتوجه نحو المشرق الإسلامى .

---

(١) لمزيد من المعلومات حول النشاط البرتغالى فى الشرق انظر : نوال حمزة الصيرفى، النفوذ البرتغالى فى منطقة الخليج العربى فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلاد (الرياض ، ١٩٨٣) ص٨٥ - ١١١ .

(٢) ينسب الصفويون إلى الشيخ صفى الدين إسحاق الأردبيلى ، وكان متصوفاً وصاحب زاوية فى أردبيل ، وتوفى صفى الدين فى سنة ١٣٣٤/٧٣٥ ، وجلس ابنه الشيخ موسى صدر الدين مكانه ، ثم أخذ ابنه جُنيد مكان والده ، وكثر أنصاره ، فخشى منه السلطان جهان شاه بن قرا يوسف التركمانى من طائفة قرا قوينلو صاحب أذربيجان ، وأخرجهم من أردبيل ، فتوجه جنيد إلى ديار بكر ، التى كانت بيد آق قويونلو ، وحدث تزاوج بين جنيد وأمراء الآق قوينلو ، وتمكن أوزون حسن من القضاء على

إن مجىء العثمانيين إلى المشرق الإسلامى جاء على مرحلتين الأولى عندما تأزمت العلاقة بين الدولة العثمانية والصفوية وحدث اشتباك بين الطرفين فى موقعة جالديران فى ٢٣ أغسطس ١٥١٤م ، وتمكن العثمانيون من هزيمة الصفويين فى هذه المعركة واحتلال عاصمتهم تبريز ، وبهذا ضم العثمانيون شرقى الأناضول لبلادهم ، كما احتلوا إقليم ديار بكر والموصل عام ٩٢٢هـ/١٥١٥م(١) .

وجاءت المرحلة الثانية مع النزاع العثمانى المملوكى ، وأثناء زحف الجيوش العثمانية لمحاربة الصفويين اشتكى السلطان سليم الأول (٩١٨ – ٩٢٦هـ/١٥١٢ – ١٥٢٠م(٢) من تأخر وصول قوافل الإمداد العثمانية ، ولما

دولة قرا قوينلو ، وزوّج ابنته من حيدر ابن جنيد ، فولدت له الشاه إسماعيل فى ٢ رجب ٨٩٢هـ/١٧ يونيو ١٤٨٧م ، ثمّ تشيّع إسماعيل وتمكن من القضاء على دولة الآق قوينلو ، وملك تبريز وآذربيجان وبغداد وعراق العرب وعراق العجم وخراسان ، وقتل من أهل السنة المئات ومثّل بهم . (لمزيدٍ من المعلومات عن الصفويين انظر : النهروالى، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، بيروت ، [ب. ت.] ، ص٢٧١-٢٧٦).

(١) د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ط٤ (القاهرة ، ١٩٨٦) ص١٥ – ١٧.

(٢) هو السلطان سليم الأول بن بايزيد الثانى بن محمد الثانى (الفاتح) ، وهو تاسع السلاطين العثمانيين ، ولد بأماسية سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م ، وتقلّد أمور السلطنة وله ٤٦عاماً ، وكان سلطاناً جباراً قوى البطش كثير السفك للدماء . (لمزيد من المعلومات عن السلطان سليم انظر : ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ص١٥١ – ١٥٢ ؛ ٣٦٠-٣٦٢ ، الغزى ، الكواكب السائرة ، جـ١ ص٢٠٨ – ٢١١ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (القاهرة ، بدون تاريخ [ب. ت.]) جـ٨ ص١٤٣ – ١٤٦ .

سأل عن السبب تبيّن بأن الأمير علاء الدين حاكم إمارة ذى القادر(١) تعرض لقوافل الإمدادات العثمانية(٢) أثناء زحفها على الشاه إسماعيل الصفوى قبيل موقعة جالديران ، فأزال السلطان العثمانى سليم الأول إمارة البستان أو ذو القادر انتقاماً من الأمير علاء الدين ، وكانت إمارة ذو القادر تتبع الدولة المملوكية ، فاعتبر السلطان قونصوه الغورى (٩٠٦ - ٩٢٢هـ/١٥٠١-

(١) ظهرت هذه الإمارة فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى ، فى شمال سورية الحالية ، ونتيجة لأهمية موقع الإمارة كمنطقة حدودية متاخمة لقوى قوية مجاورة ، فقد دفع ذلك الدولة العثمانية والمماليك للتدخل فى شئونها ، وصارت تتدخل حتّى فى تنصيب أمير عليها ، حسبما تقتضيه مصلحة كل من القوتين ، ومن أهم العوامل التى أدت إلى زوال دولتهم هو النزاع على السلطة بين أفراد الأسرة الحاكمة، ولجأ الشاه سوار بن سليمان إلى العثمانيين طالباً المدد والمعونة ، وبمساعدات العثمانيين سيطر شاه سوار على البستان من أخيه شاه بداق بن سليمان ، وهذا دفع المماليك إلى إرسال جيش للقضاء عليه ، إلا أن شاه سوار تمكن من القضاء على الجيش المملوكى ، فجهّزوا حملة أخرى بصحبة شاه بداق ، وتمكنوا فى هذهالمرة من التغلب على شاه سوار ، واقتادوه مأسوراً إلى القاهرة حيث صلب حياً ، وظل بداق حاكماً إلى أن تغلب عليه أخوه علاء الدولة بن سليمان ، واتهم السلطان سليم علاء الدولة بأنه اعتدى على مؤونة العثمانيين عند خروجه لمنازلة الصفويين فى جالديران عام ١٥١٤ ، لذلك تدخل العثمانيون وتمكنوا من قتل علاء الدولة عام ٩٢١/ ١٥١٦م ، وكان عمره عندئذٍ قد جاوز التسعين عاماً ، كما نصّبوا على بك بن شاه سوار الذى كان قد فرّ من عمه علاء الدولة إلى جانب العثمانيين . (انظر : القرمانى، أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، بيروت ، بدون تاريخ [ب. ت.] ، ص٣٣٩-٣٤٠) ثم أرسل السلطان سليم رأس علاء الدولة وولده ووزيره إلى السلطان الغورى يوم الأثنين ٢٥ جمادى الأخرة ٦/٩٢١ أغسطس ١٥١٥ . (انظر : ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٤ ص٤٦٢) .

(٢) الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٨ ص١٤٤ - ١٤٥ .

١٥١٦م)(١) هذا عملاً عدائياً ضد دولة المماليك ، ومما زاد من تأزم العلاقة بين الطرفين عندما رفض السلطان قونصوه الغورى تسليم ابن أخ السلطان سليم الذى لجأ إلى مصر هرباً من القتل(٢) .

اصطدم الجيشان فى مرج دابق(٣) قرب حلب فى ٢٣ أغسطس ١٥١٦م ، وهزم المماليك فى هذه المعركة وقتل السلطان الغورى أثناء المعركة ، ويعود انتصار العثمانيين إلى استخدامهم سلاح المدفعية الذى لم يعرفه المماليك ، وإلى الخيانة التى حدثت فى صفوف المماليك عندما انضم بعض قادة المماليك إلى صفوف العثمانيين ، وبعد أن انهزم المماليك استولى السلطان سليم على حلب وحمص وحماة ودمشق . ويبدو أن السلطان سليم لم يكن مهتماً كثيراً

(١) هو قونصوه بن عبد الله الشركسى السلطان الملك الأشرف الشهير بالغورى ، وقونصوه هو لقبه والغورى نسبة إلى طبقة الغور ، ولد فى حدود عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦، وترقى عدة مناصب حتى تولى أمور السلطنة عام ١٥٠١/٩٠٦ ، وفشى فى الناس ظلمه وصادر أموالهم ، قال ابن إياس : " وكان للغورى مساوىء ومحاسن ، لكن مساوئه أكثر من محاسنه . " لمزيد من المعلومات عن السلطان الغورى انظر : ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ص٨٧ – ٩٦ ، نجم الدين الغزى ، الكواكب السائرة ، جـ١ ص٢٩٤ – ٢٩٧ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٨ ص١١٣ – ١١٦.

(٢) كان للسلطان سليم إخوان أكبرهما قورقود والآخر أحمد ، بعد أن وصل سليم إلى كرسى الحكم دخل فى نزاع مع أخويه حول الرعش فانتصر عليهما ، وكان لأحمد ابن يسمى قاسم فر من سطوة عمه ، ولجأ إلى بلاد الشام ومنها إلى مصر .

(٣) دابق : قرية قرب حلب بينهما أربعة فراسخ ، وتكثر الأعشاب فيها ، كان بنو مروان يرتادونها فى غزوات الصائفة ، وبها قبر الخليفة سليمان بن عبد الملك . (انظر : الحموى ، معجم البلدان [بيروت ، ١٩٥٦] جـ٢ ، ص٤١٦) .

بفتح مصر فعرض على طومان باى(١) بأن يقبل الحكم باسم السلطان سليم ، ولكنه أمام رفض طومان باى لعرض السلطان سليم لم يكن أمام الأخير إلا أن زحف على القاهرة ، والتقى مع الجيش المملوكى فى معركة الريدانية فى ٢٣ يناير ١٥١٧م ، وهزم المماليك فى هذ المعركة ، ولجأ طومان باى إلى حسن ابن مرعى شيخ العربان بالبحيرة ، فسلمه للسلطان سليم ، وأمر بشنقه على باب زويلة فى ١٣ إبريل ١٥١٧م ، وبهذا انتهت دولة المماليك(٢) .

دور الغزالى فى معركة مرج دابق :

يعتبر جان بردى الغزالى أحد أبرز القادة الذين قاتلوا بجانب السلطان قونصوه الغورى فى معركة مرج دابق ، وقد تولى قيادة ميسرة الجيش المملوكى(٣) ، وهذا يدل على المكانة الرفيعة التى تبوءها الغزالى فى عهد السلطان الغورى . إلا أن بعض المصادر العربية التاريخية التى تحدثت عن موقعة مرج دابق أو عن جان بردى الغزالى نعتته بالخائن ، واتهمته بأنه كان على اتصال بالسلطان سليم ، ووصفته بأشنع الصفات(٤) . فهذا نجم الدين

(١) قبل خروج السلطان الغورى لملاقات العثمانيين فى مرج دابق ، عين طومان باى نائباً عنه " نائب الغيبة " على مصر . انظر : د. محمود أنيس ، الدولة العثمانية والمشرق العربى ١٥١٤ – ١٩١٤ (القاهرة ، بدون تاريخ ب. ت.) ص١١٢ .

(٢) د.عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ١٥١٦ – ١٩١٦ ، ط١ (دمشق ، ١٩٧٤) ص٦١ – ٦٣ .

(٣) النهروالى، الإعلام ، ص٢٧٨ ، نجم الدين الغزى، الكواكب السائرة ، جـ١ ص١٦٨.

(٤) انظر : على سبل المثال ما كتبه كل من : نجم الدين الغزى ، الكواكب السائرة ، جـ١ ص١٦٨ ، الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٨ ص١٤٥ ، ١٥٠ ، محمد راغب الطباخ ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، حلب ١٩٢٥ ، جـ٣ ص١٥٠ – ١٥٨ .

الغزى قال عنه بأنه " سخيف الرأى " ، ويتحدث النهروالى عن خاير بك(١) والغزالى فيقول : " ... وكان الغورى يخاف ويتوهّم على نفسه من ملك الأمراء خاير بك ومن جان بردى بك الغزالى ، وكانا يكرهانه فى الباطن ، ويكرههما كذلك ، فأمرهما بأن يتقدما لقتال سليم ... وكانا أرسلا إلى السلطان سليم وطلبا منه الأمان ، وتوثقا منهما [؟] أن لا يقتلهما بل يكرمهما وينعم عليهما ، فأرسل السلطان سليم لهما بالأمان ، وعهد لهما بما يطيّب خاطرهما، وأن يوليّهما مملكة [؟] مصر والشام فقبلا ذلك منه ووافقاه على ذلك قبل القتال ، فلما تلاقى العسكران واضطربت نيران البنادق فى مرج دابق ، فرّ خاير بك بمن معه من الميمنة ، وفرّ الغزالى بمن معه من الميسرة ، وبقى الغورى بمن معه من خواصّه وجلبانه فى القلب .... "(٢) . كما يشترك كثير من المؤرخين المحدثين فيما قاله أولئك المعاصرون فعلى سبيل المثال يتحدث محمد كرد على عن الغزالى تحت عنوان " خارجى خان أولاً وثانياً " فيقول "وصعب على طبعه إلا أن يخون سيده الثانى كما خان سيده الأول"(٣) ، وهذا الدكتور عبد الكريم رافق يقول بأن السلطان سليم عين الغزالى والياً على بلاد الشام " مكافأة له على مساعدة العثمانيين إبان الفتح(٤) . أما الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن يضيف بأن خاير بك وجان بردى الغزالى أشاعا الفوضى فى صفوف الجيش المملوكى(٥) .

---

(١) كان خاير بك والياً على حلب فى عهد المماليك ، ونتيجة لانضمامه إلى صف العثمانيين فقد كافأه السلطان سليم بأن عيّنه والياً على مصر بعد أخذها من المماليك .

(٢) النهروالى ، الإعلام ، ص٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٣) محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ٢ ، ط٣ (دمشق ، ١٩٨٣) ص٢٢١ .

(٤) د. عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ، ص٨٣ .

(٥) عبد الرحيم عبد الرحمن ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص١٩ .

قبل أن نناقش ما قاله المؤرخون المعاصرون والمحدثون عن الغزالى نجد أنه مزامًا علينا أن نوضح الدور الحقيقى الذى قام به الغزالى وموقفه من النزاع العثمانى المملوكى ، ثم سيكون هناك مناقشة لبعض ما أورده أولئك عن الغزالى.

ذُكر فيما سبق بأن الغزالى شارك فى موقعة مرج دابق ، وكان يومها نائباً على حماة ، وقائد ميسرة الجيش المملوكى ، ولكن لمّا دارت الدائرة على المماليك ، وأيقن الغزالى بالهزيمة ، وربما علم أيضاً بموت السلطان الغورى القائد العام للجيش المملوكى ، آثر الانسحاب من ساحة المعركة لاستحالة الحرب ، بلا قائد ولا ميمنة ، ولا روح معنوية عالية للقتال ، وبهذا الانسحاب لا يمكن الجزم بأن الغزالى قد خان سيده ، وإنما يمكن تفسير هذا الفرار على أساس أنه نوع من التكتيك العسكرى للحفاظ على البقية الباقية من الجيش المملوكى ، لأن الغزالى دخل دمشق فى ٤ شعبان/٢ سبتمر مع بقية العسكر المملوكى ممن نجوا من المعركة ، حيث اتفق مجموعة الأمراء الراجعين من مرج دابق على تولية جان بردى الغزالى نيابة الشام(١) . ومكث الغزالى بدمشق ١٨ يوماً ، ثمّ خرج منها متنكراً إلى القاهرة(٢) ، ثم سيطر السلطان سليم على مدن الشام واحدة بعد الأخرى .

وصل الغزالى إلى القاهرة مع بعض الأمراء وبقية فلول الجيش المملوكى(٣) فى١٣ رمضان/١٠أكتوبر ، وبعدها بأسبوعٍ واحدٍ قرر السلطان

---

(١) كان من بين الفارّين إلى دمشق محمد بن السلطان الغورى ، بالإضافة إلى العديد من الأمراء المماليك . (انظر : ابن طولون ، إعلام الورى ، ص٢٤١) ، محمد كرد على، خطط الشام ، جـ٢ ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص٢٠٦ - ٢١١ .

(٢) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص٢٤٢ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ص٨٥ .

المملوكى الجديد طومان باى(١) إعطاء الغزالى ولاية الشام رسمياً وذلك أثناء إعادة ترتيب إدارة الدولة بعد هزيمة مرج دابق ، وفقدان العديد من الأمراء والقادة المماليك(٢) .

وفى هذه الأثناء كان العثمانيون قد بدأوا زحفهم باتجاه مصر ، ووصل الجيش العثمانى إلى فلسطين وهدد مدينة غزة ، التى تعتبر بابا للوصول إلى مصر . وأخذ المماليك يعدّون العدة لمواجهتهم فأخذ السلطان طومان باى يستعرض جيشه ، ويزودهم بالسلاح والعدة(٣) ، وعين جان بردى الغزالى قائداً عاماً على الجيش المملوكى " باشا على العسكر "(٤) . فاستنجد نائب غزة بالمماليك فى مصر وقال لهم : " أدركونا بالعسكر قبل أن يملك ابن عثمان مدينة غزة ....."(٥) ، وكان الغزالى قد توجه فى ذلك الوقت إلى

(١) عينه السلطان الغورى نائباً عنه للديار المصرية – " نائب الغيبة " على حدّ قول ابن إياس – أثناء ذهابه للقاء السلطان سليم فى مرج دابق ، وبعد رجوع الأمراء من مرج دابق عرضوا السلطنة عليه ، فرض فى أول الأمر إلا أنه تحت ضغط الأمراء لم يجد مفراً من الموافقة (انظر : نفس المصدر ، ص١٠٢ – ١٠٣) ، فتسلطن طومان باى وله من العمر ٣٨ سنة فى رمضان ٩٢٢هـ / سبتمبر ١٥١٦م (انظر : المصدر السابق ، ص١٠٥ ، ابن طولون ، إعلام الورى ، ص٢٤٣) ، لم يتمكن السلطان سليم من السيطرة على مصر إلا بعد أن قبض عليه وشنقه على باب زويلة ، وذلك فى ربيع الأول من عام ٩٢٣ / إبريل ١٥١٧م . (انظر : ابن إياس ، المصدر السابق ، ص١٧٢) .

(٢) نفس المصدر ، ص١٠٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص١٠٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص١٠٨ ، ١١٨ .

(٥) نفس المصدر ، ص١١٨ .

الريدانية منتظراً اكتمال خروج العسكر المملوكى(١) ، وفى الوقت نفسه ، كانت الأخبار تفد إلى القاهرة تؤكد إرسال السلطان سليم نحو خمسة آلاف فارس بقيادة الوزير سنان باشا ، وقد أشرفوا على دخول مدينة غزة(٢) ، ونادى طومان باى العسكر بضرورة الخروج لملاقات العثمانيين ، فخرجوا مسرعين إلى غزة للقاء عساكر ابن عثمان وذلك فى بدايات ذى القعدة ٩٢٢هـ / ديسمبر ١٥١٦م(٣) .

فى يوم السبت ٣ ذى الحجة / ٢٧ ديسمبر وردت الأخبار من غزة بأن العسكر المملوكى قد هُزم أمام العسكر العثمانى ، وترجع أسباب هذه الهزيمة إلى عدم اكتمال تجهيز عسكر الغزالى ، وكما خرج الأمراء المماليك وبقية العسكر بعده بتكاسلٍ كبير ، فتأخروا عن الاجتماع بعسكره ، فما كان من الغزالى إلا أن جمع بعض العربان وتقدّم نحو غزة ، وتقدمت نحوهم الجيوش العثمانية بقيادة سنان باشا ، والتقى الفريقان بالقرب من بيسان(٤) ، ونتيجة لعدم تكافؤ كفة الفريقين ، وانعدام الروح المعنوية للقتال عند المماليك ، مُنى الجيش المملوكى بهزيمة ساحقة ، وجُرح الغزالى وقُتل بعض أمرائه فى

(١) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٢) غزة : وهى مدينة بفلسطين ، فيها مات هاشم بن عبد مناف جد الرسول ﷺ ، وبها ولد الإمام محمد بن إدريس الشافعى . (انظر : الحموى ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٥٧ ، جـ٤ ص٢٠٢) .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ص١١٩ - ١٢٠ .

(٤) بَيْسَان : مدينة بالأردن بالغور الشامى بين حوران وفلسطين ، ولقد زارها ياقوت الحموى مراراً وقال بأنها بلاد حارة . (انظر :الحموى ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٥٧ ، جـ٤ ص٥٢٧) .

المعركة(١) ، ورجع مع من نجى من العسكر المملوكى إلى القاهرة يوم الاثنين ٥ ذى الحجة/٢٩ديسمبر ، ثم توجه إلى السلطان طومان باى الذى أكرمه(٢) . وهذه كانت فرصة أمام الغزالى للانضمام إلى العثمانيين لكنه لم يفعل ، ومن ثم فإن مسئولية الهزيمة تعود إلى سوء إعداد العسكر المملوكى ، وضعف معنويات أفراده .

ثم وردت أخبار تقدّم العثمانيين نحو مصر ، وأخذ السلطان طومان باى يعدّ عدة الحرب لنزال العثمانيين ، وأقام مخيّمه فى الريدانية منتظراً قدومهم ، وجمع عسكراً يفوق ما خرج مع الغورى فى مرج دابق من حيث العدد ، وخرج معه من بين أمرائه جان بردى الغزالى(٣) ، وفى يوم الخميس الموافق ٢٩ ذى الحجة ٩٢٢هـ/٢٢ يناير ١٥١٧م ، التقى الجمعان فى معركة حامية،

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ص١٢٨ – ١٢٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص١٣٠ – ١٣١ . والجدير بالذكر هنا أنه لّما تلاقى الجيشان أُشيع فى غزة بأن الغزالى انتصر على العثمانيين ، فهجم على باى دوادار نائب غزة مع جنده على معسكر العثمانيين ، فنهبوه وأحرقوا خيامهم ، كما قتلوا من كان بالمخيّم وبغزة من الجنود العثمانيين ، وكانوا نحو أربعمائة إنسان ، ولّما رجع سنان باشا من المعركة منتصراً على الغزالى ، لاحظ ما حدث لمخيّمهم وجنده ، فجمع أهل غزة قاطبة وقال لهم : " من فعل هذا بنا ؟ قالوا : على باى دوادار نائب غزة وأجناد غزة ، ولم نفعل نحن شىء من ذلك . " فأمر سنان باشا بتفتيش بيوت أهل غزة ، فوجدوا حاجيات العثمانيين من خيل ومتاع وقماش وسلاح عندهم ، فقال لهم سنان باشا : " نحن لّما دخلنا غزة شوشنا على أحد منكم أو نهبنا لكم شيئًا ؟. قالوا : لا . فقال لهم: فكيف فعلتم أنتم بعسكرنا ذلك ؟ فلم يأتوا بعذر ولا حُجة . " وعندئذٍ قتل العثمانين قرابة الألف شخص من أهل غزة . (انظر : نفس المصدر ، ص١٣٢) .

(٣) نفس المصدر ، ص١٣٨ .

قتل فيها الوزير سنان باشا والعديد من الجانبين ، ولما أدرك طومان باى هزيمته ، ترك ساحة المعركة وفرّ هارباً(١) ، وكان الغزالى من ضمن الفارّين من الموقعة ، وهنا نؤكد أن فرار الغزالى لم يكن تخاذلاً ، وإنما أخلص لسيادة المماليك حتى وجد منهم التخاذل فآثر أن يبقى على حياته. وبهذا تمكن السلطان سليم من دخول مصر ، وفقدت استقلالها وضمت لأملاك الدولة العثمانية .

وفى يوم الثلاثاء الموافق ١١محرّم٣/٩٢٣ فبراير١٥١٧ ، أرسل الغزالى إلى السلطان سليم يطلب الأمان لنفسه ، فمنحه السلطان سليم ذلك(٢)، وبعد أسبوعٍ واحد دخل جان بردى الغزالى إلى القاهرة مع أربعمائة مملوك ومعه كتاب الأمان من ابن عثمان ، فتوجه إلى خيمة السلطان سليم وقابله هناك(٣).

ونؤكد هنا أن الغزالى لم يكن على اتصال بالسلطان سليم قبل هذا الاتصال ، كما أنه لم يخُنْ المماليك فى يومٍ من الأيام وإنما ظل موالياً لهم حتى آخر أنفاس الدولة ، والأدلة والشواهد على ذلك كثيرة : لأنه لو كان متواطئاً مع ابن عثمان لذهب إلى صفه بعد هزيمة المماليك فى موقعة مرج دابق كما فعل زميله فى الخيانة - على حدّ قول المؤرخين - خاير بك ، الذى كان أول من فرّ من ساحة المعركة(٤) ، أو كان بإمكانه الذهاب إلى السلطان سليم أثناء إقامة الأخير ببلاد الشام ، كما فعل بعض الأمراء

---

(١) نفس المصدر ، ص١٤٥ - ١٤٦ ، وتمكن السلطان سليم من طومان باى لاحقاً وشنقه على باب زويلة وذلك فى ربيع الأول ٩٢٣ / إبريل ١٥١٧ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ، ص١٥٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص١٦٠ .

(٤) نفس المصدر ، ص٦٩ .

المماليك(١) ، إلا أن الغزالى رجع إلى أسياده المماليك فى مصر ، ولو كان على اتصال بالأتراك العثمانيين لما احتاج إلى أن يخرج من بلاد الشام متخفياً أو متنكراً لأنه فى حالة القبض عليه سيسلَم إلى السلطان سليم وعندها يسلم من العقوبة ، وعند عودته إلى القاهرة عُيِّن فى الحال قائداً للعسكر المملوكى لمحاربة الجيوش العثمانية قرب غزة ، وهذا يؤكد بأن طومان باى لم يكن عنده أدنى شك فى صدق ولائه ، ولم يلاحظ أى من العائدين من بلاد الشام أى تصرف أو أى دليل يمكن تفسيره على أنه خيانة أو تواطىء مع العثمانيين قبيل أو بعد معركة مرج دابق ، وحتى بعد هزيمته فى بيسان عاد إلى القاهرة فى ذى الحجة ٩٢٢هـ / ديسمبر ١٥١٦م ، وحارب الأتراك العثمانيين فى موقعة الريدانية ، وعندما تحقق من هزيمة سيده طومان باى ، ترك ميدان المعركة ، واختفى بالقاهرة ، ثمّ أرسل إلى السلطان سليم يطلب منه الأمان ، فلو كان فعلاً موالياً للعثمانيين أو كان على اتصال بهم ، لما طلب الأمان لنفسه ، ولما دخل القاهرة حاملاً كتاب الأمان .

كما أن المؤرخين الذين اتهموه بالخيانة – بمن فيهم ابن إياس(٢) – لم يوضّحوا حقيقة الدور الذى قام به حتى يلقّب بالخائن . أما ما قاله النهروالى فى حق الغزالى فيمكن التشكيك فيه لأن النهروالى صرّح النهروالى بأن

---

(١) لما ذهب السلطان سليم إلى حلب التفّ حوله بعض أخصّاء الغورى من أمثال إبراهيم السمرقندى والخواجا يونس العادلى والعجمى الشنقشى وكان هؤلاء يكاتبون السلطان سليم عن أمور مملكة الغورى فى السر (المصدر السابق ، ص٧٦ ، ٨٤) .

(٢) وكان ابن إياس قد قال عنه : " ... وكان جان بردى الغزالى متواطئاً مع ابن عثمان فى الباطن من أيام السلطان الغورى ، وكان سبباً لكسرة العسكر فى مرج دابق هو وخير بك نائب حلب ، وانهزموا قبل العسكر وأشاعوا الكسرة على عسكر مصر . " (انظر : المرجع السابق ، ص١٦٠) .

السلطان الغورى كان يكره خاير بك والغزالى لأنه كان يخشى منهما على ملكه ، وهذا الكلام لا يقبله العقل ، لأنه لو كان يكرهما كل هذا الكره ويعلم أنهما يخططان لاستلام السلطنة ، فكيف يعهد إليهما بقيادة الميمنة والميسرة ، فى معركة هامة وخطيرة مثل مرج دابق ، ولما عجز عن إيجاد طريقة ما لقتلهما أو لتخلص منهما . كما أضاف بأن السلطان الغورى كان يكره الغزالى ومع ذلك كان الغورى ينقله من منصب لآخر ، ومن ولاية لأخرى ، فلو كان فعلاً يكرهه لكان بإمكانه وهو السلطان بأن يعزله أولاً ، وإن خشى منه فلن تنقطع به السبل لقتله بأى وسيلة ، كما أضاف النهروالى بأن خاير بك والغزالى اتصلا بالسلطان سليم ، وطلبا منه ولايتى مصر والشام ، وهذا أيضـًا غير صحيح لأن السلطان سليم عيّن أحد وزرائه وهو يونس باشا(١) والياً على مصر إلا أنه عدل عن رأيه وأسند المنصب إلى خاير بك ، فلو كان إدعاء النهروالى صحيحاً لما عيّن يونس باشا ابتداء ولاحتفظ بولاية مصر لخاير بك ولا سيما وأنه وعده بذلك قبيل الحرب ، وخلاصة القول فإنه من الخطأ اتهام الغزالى بالخيانة ، لأن السلطان الغورى وطومان باى كانا يثقان ثقة كبيرة بالغزالى ، ويوليانه المناصب الهامة .

---

(١) فى عهد السلطان بايزيد الثانى كان يونس باشا يتولى منصب سكبان باشى أى رئيس الفرقة التى تعتنى بكلاب صيد السلطان ، ثم صار أناضولى بكلربكسى أى أمير أمراء الأناضول ، ثم وزيراً ثانياً ، وبعد وفاة سنان باشا فى مصر فى موقعة الريدانية صار يونس باشا صد أعظم عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، وخرج يونس باشا مع السلطان سليم من القاهرة إلى بلاد الشام ، ثم قتله السلطان سليم هناك (لمزيد من المعلومات انظر : ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ص٢٠٦ ، ٢١٠ ، ١٨٦ ، محمد ثريا ، سجل عثمانى ، جـ٤ ص٦٧٧) .

ولاية الغزالى على بلاد الشام :

لا تتحدث المصادر التاريخية عن حقيقة ما جرى بين السلطان سليم وبين الغزالى بعد طلب الأمان ، وإنما ظلت صامتة عما دار بينهما إلى يوم الثلاثاء ٥ صفر ٩٢٣/ ٢٧فبراير ١٥١٧م وهو اليوم الذى وقع اختيار السلطان سليم على الغزالى ليكون والياً على بلاد الشام(١) ، ويرجع سبب اختيار السلطان سليم الغزالى والياً على بلاد الشام لخبرته الطويلة فى مجال الإدارة ، ولا سيما وأنه شارك فى مجريات الحياة السياسية منذ ولاية السلطان الغورى ، كما أنه تولى عدة مناصب فى بلاد الشام قبيل قدوم الأتراك العثمانيين للمنطقة ، فزادت درايته بها . كما ان السلطان سليم عمل على إبقاء العديد من مظاهر الإدارة المملوكية فى بلاد الشام ومصر ، كما أنه أبقى العديد من الأمراء والموظفين المماليك فى مناصبهم ، بعد نجاحه فى ضم هاتين المنطقتين(٢) ، وكما ذكر سابقاً فإن المماليك كانوا قد اختاروا الغزالى والياً على بلاد الشام بعد معركة مرج دابق ، وثّبتته السلطان طومان باى رسمياً فى هذا المنصب بعد مجيء الغزالى إلى القاهرة ، ولعل السلطان سليم عرف قدر الغزالى ومكانته بعد التقائه به فى القاهرة ، وطلب منه بأن يرافقه إلى بلاد الشام ، وربما عرف مدى الشعبية التى يتمتع بها الغزالى هناك ، ومدى ارتياح ورضى أهالى بلاد الشام عنه ، لأنه أمن بالعدالة طريقاً للحكم ولسياسة الناس ، لذلك ولاه على بلاد الشام التى ضمن مدن كثرة هامة

(١) ابن طولون، إعلام الورى ، ص٢٥٥ ، محمد بن كنّان ، حدائق الياسمين ، ص٢٢٨، محمد كرد على، خطط الشام ، جـ٢ ، ص٢٢١ – ٢٢٣ .

(٢) د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص٢١ ، د. عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ، ص٦٥ .

كدمشق ، وصفد ، وغزة ، والقدس وأعمالها(١) ، وباشر الغزالى أعماله نائباً لبلاد الشام بعد عودته من توديع السلطان سليم فى أواخر صفر / مارس(٢).

عمل الغزالى على نشر العدل فى نيابته ، وأبطل بعض المكوس التى فُرضت على الأهالى ، وعاقب بالقتل كل من يعتدى على أمن الرعايا حتى من قبل الجنود العثمانيين ، وتودد للأهالى حتى صار محبوباً منهم(٣) . كما قاد حملات ضد الأشخاص المناوئين للحكم العثمانى ، ففى عام ١٥١٨م قاد حملة ضد ناصر الدين بن الحنش ، أمير البقاع ، فهزمه وقتله ، وكان السلطان سليم قد فشل شخصياً فى هذا الأمر ، وعين حاكماً عثمانياً مكانه ، كما شن حملات ناجحة ضد القبائل البدوية فى حوران وعجلون التى تعرضت لقافلة الحج الشامى ، وأثلجت هذه الأمور صدر السلطان سليم ، فأغدق عليه الخلع، وزادت هذه الأعمال من شعبية الغزالى(٤) الذى أخذ يعد نفسه لإعلان التمرد على الدولة العثمانية فى النصف الأول من عام ٩٢٦/١٥٢٠م(٥) ، حيث كان ينتظر الوقت المناسب لهذا الإعلان .

تمرد جان بردى الغزالى على العثمانيين :

يبدو أن الغزالى لم يخضع خضوعاً تاماً للعثمانيين ، ومما يؤكد ذلك أنه أخذ يتقرب من المماليك الشراكسة الموجودين فى بلاد الشام ، فالتفت حوله

(١) نجم الدين الغزى ، الكواكب السائرة جـ١ ص١٦٨ .
(٢) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص٢٥٥ .
(٣) الغزى ، الكواكب السائرة ، جـ١ ص١٦٩ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٨ ص١٥٠ - ١٥١ .
(٤) عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون١٥١٦-١٩١٦ ، ط١ (دمشق١٩٧٤) ص٨٣.
(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ص٣٣٩ .

جماعة كبيرة منهم ، وقام الغزلى بعزل بعض أصحاب المناصب من العثمانيين ، فعزل سنان باشا عن البقاع وما جاورها ، ومنحها لناصر الدين بن الحنش(١) ، ليضمن ولاء مثل هؤلاء إليه عند الحاجة ، كما قام فى الوقت نفسه بالتقرب من الأهالى ، ليكونوا عوناً له ضد خصومه ، وكان يقتل الجنود العثمانيين ممن يسيؤون للأهالى ، ورمى إلى هدفين من وراء ذلك : هما تبيان حبّه وتقديره للأهالى وأنه لا يرضى بأن يقع عليهم أى صورة من صور الظلم ، وليساهم بإنقاص أعداد الجنود العثمانيين فى بلاد الشام ، واستمر الغزالى على هذا المنوال طيلة الثلاث سنوات التى قضاها نائباً لبلاد الشام . وكل هذ الأعمال تؤكد على عدم إخلاص الغزالى للعثمانيين ، وإنما لجأ إليهم لعدم وجود وسيلة أو حيلة أخرى أمامه ، وأنه كان ينتظر الوقت المناسب ليعيد للمماليك أمجادهم السابقة .

وفى منتصف ذى القعدة ٩٢٦هـ / أواخر أكتوبر ١٥٢٠م ، وصلت الأخبار بموت السلطان سليم الأول ، واعتلاء ابنه السلطان سليمان(٢) مكانه(٣) ، وكان الغزالى قد تمكن آنذاك من توطيد مركزه ، وتقرب من الأهالى ، فوجدها فرصة سانحة لإشهار عصيانه ، فأعلن الخروج على الدولة

---

(١) محمد بن كنّان ، حدائق الياسمين ، ص٢٣٠ .

(٢) يعتبر سليمان هو عاشر السلاطين العثمانية ، وصل للعرش يوم الأحد ١٢ شوال ٩٢٦ / ٢٦ سبتمبر ١٥٢٠م ، وله من العمر ٢٨ عاماً ، وحكم ٤٦ سنة . (لمزيدٍ من المعلومات عنه انظر : ابن إياس ، المرجع السابق ، جـ٥ ص٣٦٣ – ٣٦٤ ، الغزى ، الكواكب السائرة ، جـ٣ ص١٥٦ – ١٥٧ ، النهروال ، الإعلام ، ص٢٩١ – ٣٥٥).

(٣) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص٢٥٩ .

العثمانية(١) ، مستغلاً بُعْد بلاد الشام جغرافياً عن إستانبول ، وأول خطوة قام بها الغزالى ليظهر تخليه عن العثمانيين هو استبدال الملابس العثمانية ، بالملابس المملوكية ، وفى ذلك إشار إلى وفائه للمماليك ، ونادى بإلغاء الزى العثمانى(٢) ، وكانت الملابس تدل على هوية الشخص فى ذلك الوقت ، وأعلن خروجه على الدولة العثمانية ، وبدأ تمرده بحصار دمشق فى يوم الاثنين ١٧ ذى القعدة ٩٢٦هـ/٣٠ أكتوبر ١٥٢٠م ، فاستولى عليها فى نفس اليوم(٣) ، وفى اليوم التالى أرسل أحد رجاله إلى حماة فأخذها ، وفرّ واليها إلى حلب ، وأرسل آخر إلى طرابلس الشام(٤) ، فاستولى عليها ، وفرّ واليها العثمانى إلى حلب أيضاً(٥) ، ثم نادى الغزالى بنفسه سلطاناً على الشام، وتلقّب بالملك الأشرف أبى الفتوحات ، وخُطب باسمه على منابر دمشق ، وضُربت السكة باسمه ، وزُيّنت له دمشق ثلاثة أيام(٦) .

---

(١) محمد ثريا ، سجل عثمانى ، جـ٢ ص٦٦ ، وانظر أيضاً : لطفى باشا ، تواريخ آل عثمان ، برنجى طبعى ، (إستانبول ، ١٣٤١) ، ص٢٩٤ .

(٢) ابن كنّان ، حدائق الياسمين ، ص٢٣١ .

(٣) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ٢ ص١٢٤ ، الطباخ ، إعلان النبلاء ، جـ٣ ص١٧٤ - ١٧٦ .

(٤) طرابلس : أصل الكلمة إغريقى ، وبانى المدينة هو أشباروس قيصر ، وهى على شاطىء البحر المتوسط فى لبنان الحالية ، وكان يحيط بها سور ضخم ، وهى كثيرة الأشجار والثمار ، وقد فتحها عمرو بن العاص رضى الله عنه عام ٢٣هـ / ٦٤٣م . (انظر : الحموى ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٥٧ ، جـ٤ ص٢٥) .

(٥) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص٢٦٠ .

(٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ص٣٦٨ ، ٣٧٠ ، محمد كرد على ، خطط الشام ، بيروت ، ١٩٧٢، جـ٢ ص٢٢٢ .

أراد الغزالى أن يكسب بعض الأنصار لصفه ولا سيما من المماليك ، فظنّ أن خاير بك والى مصر سيكون خير معين له ، فأرسل إليه عارضاً الانضمام له ، ومحاولاً استمالته إلى جانبه ، ومبيناً له سهولة الأمر لبعد المنطقة عن مقر السلطنة العثمانية ، ولما تلقى خاير بك تلك الرسائل استاء لمضمونها أشد الاستياء ، وشرع فى تحصين الولاية ، ثم أرسل أحد رجاله إلى السلطان سليمان ، حاملاً معه مراسلات وكتب الغزالى(١) ، وأخذ خاير بك يجمّع رجاله لمحارب الغزالى الذى أشيع أنه ينوى التوجه للديار المصرية(٢) ، وأخذ يتفقد العسكر ، ويزودهم بالمعدات اللازمة للحرب ، وطلب من عسكره الاستعداد للحرب ، كما أخذ بتحصين قلعة القاهرة ، وتخزين المواد الغذائية بها(٣) ، تحسباً لدفع أى خطر خارجى .

وفى ١ محرّم ١٢/٩٢٧ ديسمبر ١٥٢٠ ، وصل رسول من طرف السلطان العثمانى سليمان إلى خاير بك يخبره بأن السلطان قد جهزّ جيشاً كبيراً للقضاء على حركة جان بردى الغزالى ، وطلب من خاير بك بألا يتوجه لنزال الغزالى ، لأن الدولة ستتكفل بذلك(٤) . وهذا يدل على جدية السلاطين لعثمانيين فى صد أية محاولة عصيان ضدهم ، فما بالك إذا كانت فى ولاية هامة بالنسبة للعثمانيين مثل بلاد الشام ، كما يمكن القول بأن السلطان رفض خروج خاير بك لمحاربة الغزالى لأنه يعلم تماماً بأن خاير بك

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ص٣٦٧ - ٣٦٨ ، المطران يوسف الدبس ، من تاريخ سورية الدنيوى والدينى ، بدون مكان [ب. م.] ، ١٨٩٣ ، جـ٧ ص١٧ - ١٨.

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ص٣٧٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص٣٧٣ - ٣٧٤ .

(٤) نفس المصدر ، جـ٥ ص٣٧٧ .

مملوكى الأصل ، وفى حالة التقائه بالغزالى كان من الممكن أن يستميله الغزالى إلى صفه للوقوف فى وجه الدولة العثمانية ، وخاصة وأن النفوس لا تزال متعلقة بالمماليك فى بلاد الشام ومصر ، هذا بالإضاف إلى وجود عناصر كثيرة من الجنود المماليك فى الولاتين ممن ظلوا يخدمون فيهما بعد زوال دولتهم ، أو لعل السلطان فكر بأنه فى حالة هزيمة خاير بك فسيسهل على الغزالى دخول القاهرة ، وعندها ستكبر حركة الغزالى لتشمل بلاد الشام ومصر وسيزداد عبء الدولة العثمانية ، لذا أعلن السلطان لخاير بك بأن الدولة ستتولى أمر الغزالى .

وقد واصل الغزالى سياسته التوسعية ، فبعد ضمّه المناطق المذكورة فكّر فى ضم حلب ، وجمع العربان والتركمان حوله ، وانضم إليه عدد من مماليك مصر(١) بعدما سمعوا بما حققه من نجاحات على حساب العثمانيين فى بلاد الشام ، وحشد أعداداً كبيرة من العساكر(٢) ، وأخذ معه عشرين مدفعاً من دمشق ، منها ثلاثة كبيرة الحجم ، وتوجه لحصار حلب(٣) .

أما نائب حلب قراجة باشا فقد شرع فى تحصين المدينة وقلعتها ، وأغلق بعضاً من أبوابها ، ووزع العطايا على الجند(٤) ، تكون حافزاً مغرياً

---

(١) يقول صاحب خطط الشام بأن عدد المماليك الذين اجتمعوا على الغزالى بلغوا ١٥٠٠٠ ، والتركمان ٨٠٠٠ ، محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ٢ ص٢٢٢ .

(٢) كامل بن حسين البالى الغزى ، نهر الذهب فى تاريخ حلب ، حلب ، [ب. ت.] ، جـ٣ ص٢٥٤ .

(٣) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص٢٦٠ – ٢٦١ .

(٤) نفس المصدر ، ص٢٦١ .

لهم على الاستمرار فى القتال وعدم الاستسلام(١) ، واصطدمت مقدمة جيش الغزالى بفرقة من عسكر حلب ، انتصر فيها جيش الغزالى ، وفى ٢٧ ذى الحجة ٩٢٦هـ/٨ ديسمبر ١٥٢٠م فرض الغزالى حصاره حول مدينة حلب، وأخذت المدافع تقصف أسوارها ، وبعد ثلاثة أيام أحكموا حصارهم عليها ، واشتدت الضربات ، وكانوا كلما هدّموا جزءاً من السور ، عمّره أهلى حلب ليلاً ، وفى يوم الخميس ٢ محرم ١٣/٩٢٧ ديسمبر قطع عسكر الغزالى قناة الماء التى تمد المدينة بالماء ، فضاق أهلها ذرعاً بهذا العمل(٢) ، واستمر قصف المدينة ، وفكر الغزالى باقتحامها ، فأحضر عسكره سلالم ووضعوها على السور بُغية تسلقها ، إلا أن رماة حلب تمكنوا من صدهم ، واحتجزوا السلالم ، وضيّق الغزالى خناقه علىالمدينة ، فأرسل نائب حلب إلى السلطان سليمان يقول له " إن جان بردى الغزالى صار عاصياً ، جاء وحاصر حلب ، فإذا لم يصلنا جيش من السلطان ، فليس لنا مجال لمقاومته وسيستولى بالتأيد على هذه المدينة "(٣) وفى يوم ٩ محرم / ٢١ ديسمبر أيقن الغزالى باستحالة اقتحام المدينة ، وعلم بوصول قوات عثمانية لمحاربته ، فرفع الحصار عنها ، ورجع إلى دمشق(٤) ، وشرع فى تحصينها ، وأخذ يحث الأهالى على الصمود للدفاع عنها(٥) .

---

(١) محمد كرد على ، خطط الشام ، ط٢ (دمشق ، ١٩٨٣ ؟) ص٢٢٣ .

(٢) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص٢٦٣ .

(٣) " جانبردى عاصى أولوب ، كلوب حلبى حصار ايلدى ، شويله كيم بادشاهدن بزه لشكر مدد إيرشميجك أولورسه ، آنكله مقاومته مجالمز يوقدر ، بودياری ضبط ايتمك مقرردر " لطفى باشا ، تواريخ آلِ عثمان ، ص٢٩٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص٢٦٤ – ٢٦٥ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٥ ص٣٧٧ .

(٥) ابن طولون ، المصدر السباق ، ص٢٦٦ .

وجاءت الأخبر إلى مدينة حلب بوصول الإمدادات العثمانية فكان على بك بن شاه سوار أمير ذى الغادر(١) أول من وصل المدينة ، وانتظر على بك مجيء الجيش العثمانى الرئيسى ، وبعدها بعدة أيام وصل العسكر العثمانى بقيادة الوزير فرهاد باشا(٢) واختلفت الروايات وتضاربت حول عدد الجيش العثمانى فهناك من يقول بأن العدد بلغ قرابة ٦٢٠٠٠ رجل(٣) ، بينما يقدر ابن كنّان عدد العثمانيين ب٣٤٠٠٠ ومعهم قرابة ١٨٠ عربة(٤) ، بينما يقلل لطفى باشا من التقدير فيوصله إلى ١٢٠٠٠ مقاتل ، من بينهم ٤٠٠٠ انكشارى(٥) ، ويبدو أن التقدير الأخير هو أقرب إلى الصحة ، فن غير المحتمل أن يرسل السلطان سليمان تلك الأعداد الكبيرة لقمع تمرد قام بها نائب من ولاته ، ولصعوبة حشد مثل تلك الأعداد فى تلك الديار وحدها .

أما الغزالى فقد أثر أن يلاقى القوات العثمانية خارج دمشق ، لذا خرج بقواته لملاقات العثمانيين يوم الثلاثاء الموافق ٢٦ صفر ٩٢٧هـ / ٥ فبراير

(١) وهو حاكم إمارة ذى القادر ، وقد شارك هو وولدريه فى العسكر العثمانى الذى أخمد تمرد جان بردى الغزالى ، واستمر على بك بن شاه سوار على حكم إمارة ذى القادر حتى عام ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م حين استدعاه الوزير فرهاد باشا هو مع عدد من أبنائه ، وأمر بقتلهم جميعاً وزالت إمارتهم ، وضُمت أملاكها للدولة العثمانية . (انظر : القرمانى ، أخبار الدول ، جـ٣ ، ط١ [بيروت ، ١٩٩٢] ص١٠٣) .

(٢) فرهاد باشا : أصل الاسم فرحات ، إلا أنه كتب حسبما يُلفظ باللغة التركية . عُين نائباً على الشام ودخلها يوم السبت الموافق ١٥ محرم ٩٢٨هـ / ١٥ ديسمبر ١٥٢١ ، وكان محباً للعام ، وبعد سنة مرض فرهاد باشا ، ومات بدمشق يوم الخميس ٢٢ جمادى الآخرة ٩٢٩هـ / ٦ مايو ١٥٢٣م ودفن عند جامع ابن عربى بدمشق . (انظر: ابن طولون ، إعلام الورى ، ص٢٦٩ – ٢٧١) ، تاريخ بجوى ، جـ١ (إستانبول ، ١٩٨٠) ص٦٧ .

(٣) نجم الدين الغزى ، الكواكب السائرة ، جـ١ ص١٧٠ .

(٤) ابن كنّان ، حدائق الياسمين ، ص٢٣٧ .

(٥) لطفى باشا ، تواريخ آلِ عثمان ، ص٢٩٤ .

١٥٢١م ، وتلاقى الفريقان قرب قرية برزة(١) ، ولم يمض إلا وقت يسير من اندلاع القتال بين الجانبين ، حتى ظهرت بوادر الضعف والهزيمة على جيش الغزالى ، فانكسر عسكره ، وقُطع رأس الغزالى وارسل إلى إستانبول مع رؤوس جماعة من أصحابه(٢) ، ثم لاحقت العساكر العثمانية بقية الهاربين من أرض المعركة ، وفتكوا بهم ، وقتلوا أكثر من ثلاثة آلاف نفس(٣) . وفى يوم الأربعاء ٢٧ صفر دخل فرهاد باشا دمشق ، وتسلّم مفاتيح القلعة ، ووزع جنده فى شوارعها وحاراتها لضبط النظام بها(٤) ، وبهذا انتهت حركة الغزالى ، وعادت دمشق لحظيرة العثمانيين ، وفُتح الطريق بين مصر والشام بعد أن كان قد أُغلق بسبب الغزالى(٥) .

---

(١) برزة : قرية فى ضواحى دمشق ، وتقع شمالى دمشق على سفح جبل قاسيون ، وبينها وبين دمشق ٥ كم (انظر : ابن طولون ، إعلام الورى ، ص٢٦٧ هامش : ٢).

(٢) المصدر السابق ، ص٢٦٧، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ص٣٨٢ ، النهروالى، الإعلام ، ص٣١٠ ، لطفى باشا ، تواريخ آل عثمان ، هامش ص٢٩٥ ، ابن كنّان ، حدائق الياسمين ، ص٢٣٦ .

(٣) ابن طولون ، المصدر السابق ، ٢٦٧ . هناك اختلاف بين المؤرخين حول عدد القتلى بعد هذه الموقعة ، فالغزى يقول بأن عددهم بلغ ٧٠٠٠ شخص (الغزى ، الكواكب السائرة ، جـ١ ص١٧٠) ، بينما ابن إياس يبال فى الرقم ليصل إلى ١٠٠٠٠ إنسان (ابن إياس ، المصدر السابق ، ص٣٨٢) .

(٤) ابن طولون ، المصدر السابق ، ص٢٦٧ .

(٥) يقول ابن إياس أن الأخبار قد انقطعت من بلاد الشام لمدة ثلاثة شهور وذلك من محرم إلى ربيع الأول ، كما توقفت البضائع التى كانت تجلب من بلاد الشام بسبب إقفال الطريق ، ولا شك أن ذلك له آثاره الاقتصادية الواضحة ليس على بلاد الشام فقط وإنما على مصر أيضاً ، منها أنه أدى إلى ندر السلع وبالتالى إلى ارتفاع الأسعار. (انظر : ابن إياس ، المصدر السابق ، ص٣٨٠ – ٣٨١) .

وفى يوم الأحد ١ ربيع الأول ٩٢٧هـ/٩فبراير ١٥٢١ سكن فرهاد باشا دمشق ، وبقى بها شهرين ثم خرج منها متوجهاً إلى إستانبول يوم الجمعة ٥ جمادى الآخرة / ١٣ مايو ، وقبيل خروجه منها أسندت ولاية الشام إلى يونس باشا أمير أمراء الأناضول ، وأصبحت كل من غزة وصفد ورملة سناجق مستقلة ، وعُين على كل منها أمير(١) .

ومن جانب آخر فإن تلك الأحداث جعلت السلطنة العثمانية تجرى تعديلات إدارية بما يضمن لها إحكام السيطرة على بلاد الشام ، حيث واصل العثمانيون تقسيم بلاد الشام إلى ثلاث ولايات (وهى الشام أو دمشق وحلب وطرابلس) إلا أنهم أعادوا النظر فى حدود هذه الولايات بشكل لا يسعف الثائرون والمتمردون على استغلال مساحاتها الواسعة ، وضخامة مواردا المالية ، لذا قاموا بتقليصها(٢) .

الخاتمة

تناول هذه الدراسة حياة شخصية من أهم الشخصيات المملوكية التى قامت بدور بارز فى أواخر أيام الدولة المملوكية وبدايات الحكم العثمانى فى بلاد الشام ، وهو جان بردى الغزالى ، الذى اتهمه معظم من عاصره من المؤرخين بالتواطؤ والتعاون مع العثمانيين ، مما كان له دوره فى هزيمة القوات المملوكية ، فى معرك مرج دابق عام ٩٢١هـ / ١٥١٦م .

---

(١) لطفى باشا ، تواريخ آلِ عثمان ، الهامش ص٢٩٥ ، محمد كرد على ، خطط الشام، جـ٢ ، ص٢٢٣ .

(٢) حول حدود هذه الولايات انظر: عبدالكريم رافق ، العرب والعثمانيون ، ص٩٥-٩٦.

إلا أنه بإعادة قراءة تلك المصادر يمكن ردّ الثقة بهذه الشخصية، وإزالة التهمة عنه ، وذلك من خلال استعراض سيرة حياته منذ ظهوره على الساحة السياسية حتى مشاركته فى معركة مرج دابق ، وبعد أن منى المماليك بهزيمة ساحقة فى هذه المعركة ، خرج الغزالى متخفياً من بلاد الشام إلى مصر ، وهناك تم تعيينه على الفور قائداً للقوات المملوكية التى خرجت بملاقات مقدمة الجيش العثمانى بقيادة الوزرى سنان باشا ، وهزم الغزالى بالقرب من غزة ، وعاد إلى القاهرة ووقف بجانب السلطان المملوكى طومان باى فى معركة الريدانية التى هزم الممليك فيها وكان من نتائجها سقوط القاهرة فى أيدى العثمانين .

ولو كان الغزالى قد تعاون مع العثمانيين لكان بإمكانه أن يلجأ لهم أثناء معركة مرد دابق أو بعدها ، ليحظى بمكانة عند السلطان سليم كما فعل خاير بك ، كما أنه لو صحت تلك التهمة لما خرج متنكراً من بلاد الشام مخاطراً بحياته إلى مصر ، كما كان بإمكانه أن ينضم للعثمانيين بعد الهزيمة التى حلت بالمماليك فى موقعة بيسان ، ولا سيما وقد جُرح الغزالى أثناء القتال ، إلا أنه فر راجعاً إلى القاهرة حيث مقر إقامة سيده السلطان طومان باى ، ولكن إخلاصه للماليك كان دافعه الرئيسى للبقاء معهم حتى آخر الأمر ، لذا نجده يحارب العثمانيين فى معركة الريدانية .

ولّما انقطعت به السبل لم يجد الغزالى أمامه إلا السلطان العثمانى سليم الأول ، فطلب منه الأمان على نفسه ، ولما أُعطى الأمان ظهر فى شوارع القاهرة ، وهو يحمل الأمان ليراه الجميع وليتأكدوا بأنه قد أعلن ولاءه وإخلاصه للسلطان العثمانى ، ولما تقابل مع اسللطان سليمعرف الأخير مكانته

وخبرته الإدارية والعسكرية ، فولاه بلاد الشام ، كما ولّى خاير بك على مصر ، متمشياً مع سياسة الإبقاء على كثير من مظاهر الإدارة المملوكية في بلاد الشام ومصر التى طبقها السلطان سليم بعد ضمه للمنطقتين. عن فترة ولايته على بلاد الشام ، حيث دلت كل الشواهد بأن الأعمال التى كان يقوم بها الغزالى كانت كلها ضد المصالح العثمانية ، حيث قام بإبطال بعض الضرائب التى فرضت على أهالى بلاد الشام بعد وقوعها فى أيدى العثمانين ، وقام بقتل كل عثمانى يتعرض للإهالى بسوء ، وأخذ فى الوقت نفسه يتقرّب ويتودد للأهالى على حساب العثمانيين ، وتدل كل هذه الأعمال على أنه كان يدبر أمراً ما ، إلا أنه لم يستطع أن يجاهر بها انتظاراً للوقت الملائم .

بوفاة السلطان سليم الأول عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م ، جاءت الفرصة التى كان ينتظرها الغزالى ، ولا سيما وأنه ظن بأن اسللطان سليمان الذى خلف أباه ، تنقصه الخبرة الإدارية ، وأن بُعد بلاد الشام عن العاصمة إستانبول سيضعف من عزيمة السلطان والدولة على إرسال جيوش لمحاربته ، كما استغل حب الأهالى له والتفاف المماليك حوله ، فأعلن تمرده على الدولة العثمانية ، وأخذ يفتح مدن الشام ، كما حاول أن يجد له بعض الأنصار ، فظن بأن خير معين له يكون خاير بك والى مصر ، إلا أن ظنه بخاير بك قد خاب لأن الأخير ظل مخلصاً للعثمانيين ، فأرسل كتب الغزالى إلى إستانبول ، وأخذ بتحصين ولايته تحسباً لدفع أى خطر تتعرض له مصر من قبل الغزالى، فجاءه ردّ السلطان سليمان الذى اعتبر هذا أو تحد له ولسلطانه ، وكانت حركة الغزالى أول حركة تمرد تواجهه فكان لابد من النجاح فى أول تجربة له ، لأنه كان من الممكن أن تنظر بقية الولايات إلى حركة الغزالى فإن نجح فسوف تحذو حذوه ، فما كان من السلطان إلا أن أخبر خاير بك بأن

الدولة ستتكفل بـأمر الغزالـى ، وأرسـل السـلطان وزيـره فرهـاد باشـا ، الـذى تمكـن مـن قمـع الحركـة ومـن قطـع رأس الغزالـى ومـن شـاركه مـن رجالـه وإرسالها إلى السلطان سليمان ، وانتهت بذلك حركـة الغزالـى ، تلـك الحركـة التى أساء صاحبها التوقيت لها ، لأنها ظهرت فى فـترة ازدهـار وقـوة الدولـة العثمانية ، وفى عهد السلطان سليمان الـذى كـانت فترتـه مـن أطـول الفـترات حيث حكم ٤٦عاماً ، استطاع خلالها أن يمد حدود الدولة العثمانية إلى أقصـى اتساع لها ، وأن يجعل منها قوة عظمى فى القرن العاشر الهجـرى / السـادس عشر الميلادى .

وسائل ضبط ورقابة المعاملات التجارية والمالية
فى صدر الإسلام

د. **محمود عرفه محمود**
كلية الآداب - جامعة القاهرة

ترجع أهمية دراسة وسائل ضبط ورقابة المعاملات التجارية والمالية إلى أنها تعطى صورة صادقة عن مدى دقة وتقدم النظام المالى فى الدولة الإسلامية .

كان لاشتغال العرب قبل الإسلام بالتجارة أثر كبير فى اهتمامهم باستعمال المكاييل والموازين والصنج لتسهيل المعاملات التجارية والمالية .

اهتمت الدولة الإسلامية منذ نشأتها بتطوير هذه المكاييل والموازين وضبطها لارتباطها الوثيق بالنظام المالى للدولة ، ولتنظيم معاملات البيع والشراء لأهميتها فى استقرار الحياة الاجتماعية لطبقات الشعب المختلفة ، فضلاً عن أن القرآن الكريم قد حثّ المسلمين على التوفى فى الكيل والميزان اعمالاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾(١) .

يتناول هذا البحث دراسة وسائل ضبط ورقابة المعاملات التجارية والمالية فى صدر الإسلام ، والتى تتجلى فى المكاييل والموازين والصنج الزجاجية والمعدنية مع توثيقها باللوحات والأشكال وأرقام السجل بالمتاحف المختلفة .

---

(١) سورة الإسراء : آية ٣٥ .

مما تجدر الإشارة إليه أن هذا البحث يتضمن دراسة ونشر سبعة عشر قطعة جديدة من المكاييل والصنج الزجاجية والمعدنية التى يضمنها متحف الفن الإسلامى بالقاهرة .

المكاييـــل :

استخدمت المكاييل فى الدولة الإسلامية على نطاق واسع لقياس كمية المائعات (السوائل) والجامدات وكانت هذه المكاييل تصدر من دار العيار الرسمية بعد ختمها بخاتم الدولة .

١ – مكيلة للمائعات (السوائل) سعة ربع قسط زيت(١)

(القطر : ٢٣ مم)



بسم الله

(أ) مر عبيدا

(١) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ٣٧٧ / ٦٩١٦ ، لوحة رقم ١ .

(اللـ) ـه بن الحبحاب(١)

(ر) بع قسط

(ز) يت

(و) اف

٢ - مكيلة للجامدات (كمون الأسود والأبيض)(٢)

(القطر : ٣٩ مم)



أمر اسا

(١) هو عبيد الله بن الحبحاب السكوتى، ولـى خـراج مصـر مـن سنة ١٠٢ هـ إلى سنة ١١٦هـ، كما تدل أوراق البردى العربية على ولايته امرة مصر لفترة قصيرة .

Grohmann : Arabic Papyri , Vol. III , P 122 .

(٢) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ٦ / ٨١٨٦ ، لوحة رقم ٢ .

مه بن زيد(١)

مكيلة كمون

الأسود

والأبيض وا (ف)

كانت المكاييل تصنع من الخشب وذلك بتشكيل الكتلة الخشبية وشدها بالأفاريز والمسامير حتى تحتفظ بشكلها المطلوب وكان فى الغالب على هيئة مخروط ناقص ، وكان يستخدم من قبل الحمصانيين والفوالين والعلافين(٢) فى تحديد كمية الجامدات خلال عمليات البيع والشراء وعلى الرغم من ذكر هذا النوع من المكاييل فى المصادر التاريخية ، إلا أن الحفائر الأثرية لم تعثر له على أثر حتى الوقت الحاضر(٣) .

كما كانت المكاييل تتخذ من المعدن وبخاصة النحاس بنوعيه الأحمر والأصفر فى بلاد المغرب العربى ، وهذا النوع كان نادرًا ولا يوجد مثيلاً له سوى بالمتحف الوطنى بباريس(٤) ، وكان يتم صناعته بعمل

---

(١) هو أسامة بن زيد التنوخى ، ولى خراج مصر سنة ٩٦هـ من قبل الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، وظل عاملاً على الخراج حتى تم عزله سنة ٩٩هـ من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص٢٣١ – ٢٣٢ .

(٢) ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة . ص ٨٦ .

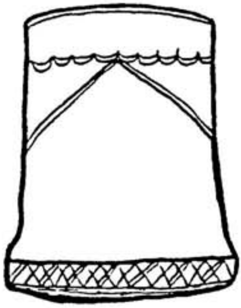
الشيرزى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٨٣ .

(٣) سامح عبد الرحمن : المكاييل فى صدر الإسلام ص ٥١ .

(٤) عنى بنشرها Mustafa El - Habib تحت عنوان Notes Sur deux mesures

الصفائح المعدنية من النحاس وتركيبها على قالب خشبى ثم الطرق على الصفائح حتى تتشكل بالنصوص الكتابية التى تحمل اسم الصانع والآمر بصنع المكيال ومكان الصنع ، فضلاً عن بعض الزخارف فى أرضية المكيال على هيئة عقود أو محاريب مدببة ذات كوشات تملؤها زخارف من عناصر نباتية ثلاثية الفصوص .

مد نحاس أصفر من المغرب العربى(١)



مكيال مخروطى محفوظ بالمتحف الوطنى بباريس(٢)

قطـــر الفوهــة	٨٩ مم
قطـــر القـاعدة	١٠٤ مم
الارتفــــــاع	١٠٧ مم
الســــــعة	٠.٧٥ لتر

(١) نشر Mustafa El - Habib : Notes sur deux mesures d'aumône, Hesperis Tamude

(٢) الرقم بالمتحف الوطنى بباريس MN . A . M . 1907 . 5 . 6

يتألف المكيال من سبيكة من النحاس الأصفر وقد تشابكت أطرافه ، وأرضية المد مقسمة إلى أربعة عقود ذات كوشات تملؤها الزخارف النباتية عبارة عن وريدات ثلاثية الفصوص .

كما تمتلئ أرضية العقود بسطور من الكتابات نقشت بطريقة الحفر ؛ العقد الأول ، أمير المسلمين أبى سعيد ابن مولانا أمير المسلمين أبى يوسف ابن عبد الحق على المد الذى أمر بتعديله مولانا أبو يعقوب رحمه الله . العقد الثانى ، الجالس الذى عدله بمد الشيخ ابى على منصور بن يوسف الغواص . العقد الثالث ، مده بمد الفقيه ابى جعفر أحمد ابن الأخطل ، وعدل ابى جعفر مده بمد خالد ابن إسماعيل . العقد الرباع ، وعدل أبى بكر مده بمد أبى بكر مده بمد أبى إسحق إبراهيم ابن الشنظر وبمد أبى جعفر ابن ميمون وكانا عدلاً ميديهما بمد زيد ابن ثابت صاحب رسول الله ﷺ وهذا تبركًا بسنته على يد الفقيه عبد الله بن حمود الشيخ سنة ١١٧٧هـ .

استعملت المكاييل الفخارية منذ فجر الإسلام وكانت تعرف بالجرار(١)، وكان لكل جرة سعة محدودة بالأقساط تمثل مكيالاً معيناً(٢) ، وكانت المكاييل الفخار تصنع بطريقة الدولاب المستخدمة فى صنع الأوانى الفخارية الأخرى وتتميز عنها بتحقيق سعتها وختمها باسم الصانع والبلد التى صنعت به هذه المكاييل(٣) .

---

(1) Grohmann : Arabic Papyri , VI , P48.

(2) Bell : Translation of the Greek Aphrodito Papyri , II , P211.

(٣) عبد الرحمن فهمى: تحف نادرة من المسكوكات والاوزان والأختام الإسلامية ص٢٤.

بقايا مكاييل فخارية تحمل أسماء البلاد والصناع :

١ -- أختام مكاييل من الفخار تحمل أسماء البلاد



منية
السـود
ان



منية
شـريف

٢ -- أختام مكاييل فخارية تحمل أسماء الصناع





صنعه	صنعه
عيســى	مكن بن كهرمــان

أما المكاييل الأكثر شيوعًا فى استخداماتها المختلفة فكانت تصنع من الزجاج بطريقة الضغط فى القالب ، وذلك بعد خلط عجينة المواد الزجاجية فى الفرن ، وهذه القوالب نفسها كانت عبارة عن مزيج من الرمل والطين حتى يسهل التخلص منها بعد تشكيل المكيلة ، كما استعملت فى صناعتها طريقة النفخ فى القالب وذلك بوضع العجينة فى قالب مع تثبيتها فى نهاية أنبوب معدنى حيث يتم النفخ فى القالب ، وذلك بوضع العجينة فى قالب مع تثبيتها فى نهاية أنبوب معدنى حيث يتم النفخ فيه فتتشكل العجينة الزجاجية بشكل هذا القالق ، وفضلاً عن ذلك استخدم الصانع الأنبوب المعدنى منفردًا دون قالب مع التقاط العجينة الزجاجية المكورة والنفخ فى الأنبوب فيقوم الهواء المضغوط بتشكيل العجينة وتحويلها إلى المكيلة المطلوبة ، ثم توضع فى القالب لتشكيلها بالزخارف الحلزونية أو التضليعات من الداخل والخارج ، أو وضع أسلاك رقيقة من المادة الزجاجية اثناء دوران المكيلة مع أنبوب النفخ ، وينتهى تصنيع المكاييل الزجاجية بتثبيت الأختام وذلك بإعادة تسخين المكيلة عند موضع الخاتم ، وغالبًا ما كان يتم ذلك على مقبض المكيلة أو فوهته ، وكانت الأختام المربعة أو المستديرة تحمل الكتابات البارزة المطبوعة بالقوالب(١) .

---

(١) ابن بعرة : كشف الأسرار العلمية ص١١ .

١ - مكلية من الزجاج مؤرخة سنة ٨٨هـ(١)





سـنة ثمـان وثمنـين

(الخاتم الخاص بالمكيلة)

٢ - مكيلة من الزجاج بخاتم مستدير(٢)



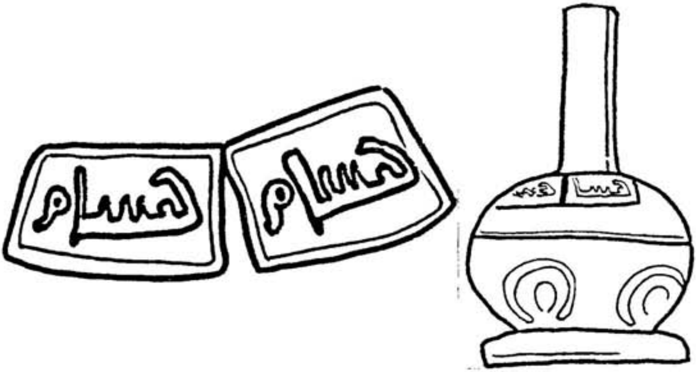


مكيلـة زيت بفلـس

(١) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١/١٣٧١٦ ، لوحة رقم٣ ، لوحة رقم٤.

(٢) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١٣٢٣٥ ، لوحة رقم٥ ، لوحة رقم٦.

٣ - مكيلة من الزجاج بأختام مربعة(١)



هشام هشام

عرفت فى الدولة الإسلامية عدة أنواع مـن المكـاييل(٢) شـاع اسـتعمالها فى ضبط وتحديد سعة المائعات والجامدات ومن أهمها الصـاع ، وهو الصـواع

(١) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١٣٢٨٣ .

(٢) ذكر ابن سلام ثمانية أنواع من المكايل فقال " ووجدنا الآثار قد نقلـت عـن النبـى ﷺ، وأصحابه والتابعين بعدهم ، بثمانية اصناف من المكاييل ، الصاع والمد والفرق والقسط والمدى والمختوم والقفيز .. إلاّ أن عظم ذلك فى المد والصاع " ، انظر كتاب الأموال ص٥١٤.
أن المكاييل لم تقتصر على ما ذكره ابن سلام بل استخدم الأردب وأجزائـه ، والكيلـة والقدح وغيرها ، للمزيد عن المكاييل الفرعية :
انظر أبو يوسف : كتاب الخراج .
الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حـ٨ .
المقريزى : الخطط والآثار حـ١ .

بالضم والكسر(1) ، وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴾(2) ، وذكر ابن سلام أن رسول الله ﷺ كان يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمد(3) ويعد الصاع من أشهر مكاييل أهل المدينة .

وقد اختلف الفقهاء . فى تقدير الصاع ، فالصاع عند أهل الحجاز يقدر بخمسة أرطال وثلث ، وعند أهل العراق ثمانية أرطال(4) ، والسبب فى هذا

---

(1) ابن منظور : لسان العرب " مادة صواع " .
(2) سورة يوسف : آية ٧٢ .
(3) ابن سلام : المصدر نفسه ص ٥١٤ .
(4) يقول المقرى الفيومى : " الصاع مكيال ، وصاع النبى ﷺ ، الذى بالمدينة أربعة أمداد ، وذلك خمسة أرطال وثلث بالبغدادى ، وقال ابو حنيفة : " الصاع ثمانية أرطال لأنه الذى تعامل به أهل العراق ، وكان أبو يوسف لما حج مع الرشيد اجتمع بمالك بالمدينة ، وتكلما فى الصاع ، فقال أبو يوسف : الصاع ثمانية أرطال ، فقال مالك : " صاع رسول الله ﷺ خمسة أرطال وثلث " ، ثم أحضر مالك جماعة معهم عدة أصواع فاخبروه عن آبائهم : كانوا يخرجون بها الفطرة ، ويدفعونها إلى رسول الله ﷺ، فعايروها جميعًا ، فكانت خمسة أرطال وثلثا ، فرجع أبو يوسف عن قوله إلى ما أخبره به أهل المدينة .
انظر : المصباح المنير ، مادة الصاع .
، ويرى الأستاذ على مبارك أن الصاع النبوى هو الصاع الشرعى الذى يسع خمسة أرطال وثلثا ، وأن الفرق الناتج بين علماء العراق وبين غيرهم من علماء العرب نشأ من أن علماء العراق يعتبرون كمية الماء المظروف فى الصاع ، وغيرهم اعتبر كمية الحب التى يستوعبها هذا الكيل ، ثم قال : " وبالتأمل نجد أن خمسة ارطال وثلث رطل توافق ما يستوعب الصاع من الحب ، والثمانية أرطال توافق ما يستوعبه من الماء للغسل لأننا نجد أن الخمسة أرطال وثلث من حب القمح يعادل أكثر من سبعة أرطال من الماء وأقل من ثمانية " .
انظر : الميزان فى الأقيسة والأوزان ص٨٦ – ٨٨ .

الاختلاف يرجع إلى أن أهل العراق كانوا قد سمعوا أن النبى ﷺ كان يغتسل بالصاع، وسمعوا فى حديث آخر أنه كان يغتسل بثمانية أرطال لذلك اعتقدوا أن الصاع ثمانية أرطال(١) ، الاّ أن الأصل فى القياس هو الصاع النبوى الذى استخدمه أهل المدينة وتعارفوا عليه وكان عندهم يقدر بخمسة أرطال(٢) وثلث ، ويتألف من أربعة أمداد(٣) ، ولما كان المد رطل وثلث(٤) ، فالصاع خمسة أرطال وثلث(٥) وقد أيد ذلك الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية(٦) .

مما تجدر الإشارة إليه أن النبى ﷺ كان قد قرر هذا الصاع على المسلمين فى نهاية شهر رمضان من السنه الثانية(٧) بعد الهجرة ، ومن ناحية أخرى عرف الصاع بالمختوم(٨) ، وإنما سمى بذلك لأن الأمراء جعلت على أعلاه أختامًا مطبوعة حتى يتم صنعه دون زيادة أو

---

(١) ابن سلام : الأموال ص٥١٩ .

(٢) الرطل مكيال للسوائل يقدر باثنتى عشرة أوقية .
النقود العربية وعلم النميات ص ٣٨ .

(٣) فالترهنس : المكاييل والأوزان الإسلامية ص٦٣ .

(٤) الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ص٤٠ .

(٥) أبو يوسف : الخراج ص٥٣ .

(٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١١٣ .

(7) Mostafa El Habib : Notes sur deux mesures P. 263 .
، عبد المحسن الحسينى : " اختلاف العراقيين والمدنيين فى تقدير الصاع النبوى " مجلة كلية الآداب جامعة الأسكندرية المجلد ١٦ لسنة ١٩٦٢ ص١٢٩ .

(٨) أبو يوسف : المصدر نفسه ص ٣٠ .

نقصـــان(١) وكان هذا الخاتم يحمل أسماء الولاة أو عمال الخـراج أو أصحـاب الشرط(٢) .

كان المد بالضم من المكاييل الشـرعية التـى شـاع استعمالها منذ فجـر الإسلام(٣) وهو رطل وثلث أو ملء كفى الإنسان المعتدل ، وقد عـرف بذلك لأن الإنسان إذا ملأ كفيه ومد يده بهما كانت الكمية رطلاً وثلثًا(٤) ، والرطل وزنه مائة درهم وثمانية وعشرون درهمًا وهو يساوى ثلث قدح من الكيل المصرى(٥) .

أما الفرق بسكون الراء فهو إناء يسع ستة عشر رطلاً أو ستة أقساط ، وبذلك فهو يساوى ثلاثة صيعاء عند أهل المدينة(٦) ، ولما كان الصـاع أربعـة أمداد ، فالفرق أثنا عشر مدا(٧) .

ويختلف المدى عن المد ، والمدى بالضم مكيال لأهل الشام وأهل مصر خمسة عشر مكوكا بالشامى ، أو أربع كيـلات إلا ربـع بـالمصرى(٨) ، وذكـر ابن سلام : " أن عمر ضرب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير ، وأرزاق المسلمين من الحنطة مديين وثلاثة أقساط زيت لكل إنسان كل شهر "(٩) .

---

(١) ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية ص ٣٢٠ .

(٢) سامح عبد الرحمن فهمى : المكاييل فى صدر الإسلام ص ٨١ .

(٣) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ١٤ .

(٤) الفيروزبادى : القاموس المحيط ماده " المد " .

(٥) ضياء الدين الريس : المرجع نفسه ص ٣١٩ .

(٦) المقريزى : الأوزان والأكيال ص٥٠ .

(٧) ابن سلام : الأموال ص ٥٢٢ .

(٨) ابن منظور : لسان العرب مادة " مدى " .

(٩) ابن سلام : المصدر نفسه ص٥١٩ .

يعد القسط من المكاييل الإسلامية التى استخدمت فى تقدير الأرزاق والضرائب العينية ، وذلك أن عمر بن الخطاب كان قد كتب إلى أمراء الأجناد أن يضربوا الجزية ويحصلوا خراجًا على كل ذى أرض مع الدينارين (الجزية) - ثلاثة أرادب حنطة ، وقسطين عسل ، وقسطين خل رزقًا للمسلمين(١) . ولما كان الفرق يساوى ستة أقساط أو ثلاثة صيعان ، فالقسط يساوى نصف صاع(٢) .

١ - مكيلة سعة قسطان(٣)

(القطر : ٣٧ سم)



بسم الله

أمر القاسم

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٥٢٢ .

(٢) عبد الرحمن فهمى : تحف نادرة م المسكوكات والأوزان ص ٢٣ .

(٣) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١١٧ / ١٤٣١٧ ، لوحة رقم ٧ .

بن عبيد الله[١]

قسطان

واف

٢ - مكيلة سعة قسط[٢]

(القطر : ٤٣ مم)



بسم الله

أمر عيسى بن

(١) هو القاسم بن عبيد الله بن الحبحاب ولى خراج مصر سنة١٦٦هـ وظل عاملاً عليها حتى سنة١٢٤هـ.

Miles : Early Arabic Glass Weigts , PP . 79 - 88 .

(٢) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ٢٤٥ / ٦٩١٦ ، لوحة رقم ٨ .

(أ) بى عطا(١)

بصنعه قسط

واف

كان القفيز مـن المكـاييل التـى اسـتخدمها العـرب قبـل الإسـلام(٢) لقـول زهير ابن أبى سلمى :

تغل لكـم مالا تغــل لأهلهـا قرى بالعـراق من قفيز ودرهـم

وكان كسرى أنو شروان قد فرض ضريبة عينية تؤخذ من المحصـول وقدرت هذه الضريبة على كل جريب درهما وقفيزاً(٣) .

وفــى ظـل الدولـة الإســـلامية استعمل هــذا المكيـال فـى تحـــديد الخــــراج إذ وضـــع عمـــر بـن الخـــطاب علـى كـل جريـب(٤) درهمًـا

(١) كان عيسى بن أبى طالب عاملاً على خراج مصر لمدتين ، الأولـى مـن شـهر شـوال سنة ١٢٥ حتى جمادى الثانية سنة ١٢٧ هـ ، والثانية مـن المحـرم سـنة ١٢٨ هـ إلى ربيع الأول ١٣١ هـ . Wiet : L Egypte Arabe , T. IV, P. 308 .

(٢) ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية ص ٣٠٣ .

(3) Sykes : A history of Persia , Vol I, P 462 .

(٤) الجريب : هو وحدة المسـاحة الرسـمية لقيـاس الأراضـى الصالحـة للزراعـة وتحديد الأملاك حتى يتسنى تقدير قيمة المفروض عليها وفى ذلك يقول الماوردى : " والخراج حق معلوم على مساحة معلومة فاعتبر فى العلم بها ثلاثة مقادير تنفى الجهالـة عنهـا ؛ أحدها : مقدار الجريب بالذراع المسموح به ، والثـانى : مقدار الدرهم المـأخوذ بـه ، والثالث : مقدار الكيل المستوفى ، كما كان الجريب هو الوحدة التى تقاس بهـا القطـائع والضرائب ، والجريب عشر قصبات ولما كانت القصبـة ستة أذرع ، فـالجريب ثلاثـة آلاف وستمائة ذراع ، والفدان المصـرى يسـاوى ثلاثـة أجربـه تقريبًـا ، وقـد توصــل الدكتور ضياء الدين الريس إلى أن مساحة الجريب ١٣٦٦ مترًا مربعًا تقريبًا . =

وقفيزاً(١) . يقول الماوردى : " وجرى (عمر بن الخطاب) فى ذلك على ما استوقفه من رأى كسرى بن قباذ ، فإنه أول من مسح السواد ووضع الخراج(٢) ، وحدد الحدود ووضع الدواوين ، وراعى ما تحمله الأرض من غير حيف بمالك ولا احجاف بزارع ، وأخذ على كل جريب قفيزًا وردهمًا . وكان القفيز وزنه ثمانية مكاكيك وبالكيل المصرى كيلتان(٣) .

مما تجدر الإشارة إليه أن القفيز الذى وضعه عمر على السواد مع الدرهم ، هو ذاك القفيز الأصلى الذى كان معروفًا من أيام الفرس على عهد كسرى الأول وكان يسمى الشبرقان(٤) نسبة إلى بلد فى إقليم خراسان ، ويعادل أربعة وستين رطلاً أو اثنا عشر صاعًا ، وفى العصر الأموى استخدم القفير فى البيع والشراء وكان يقدر ثمنه بأربعة دراهم(٥) ، بينما صار فى العصر العباسى بخمسة دراهم(٦) .

- انظر البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ .
الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٦ .
ضياء الدين الريس : المرجع نفسه ص ٢٧٣ - ٢٧٤ ، ٢٨٩ - ٢٩١ .

(١) على مبارك : الميزان فى الأقيسة والأوزان ص ٩٦ .

(٢) الخراج : من أقدم أنواع الضرائب على مساحة الأرض المزروعة ، بنظام الضمان حيث يضمن فرد ما جباية منطقة معينة ويدفع المبلغ المقرر للدولة سنويًا أو بنظام القبالة بإتفاق جماعة من الجباة على مسئولية جمع الضريبة .
Cahen : Bayt Al - Mal Vol . I, Encyclopedia of Islam , P 1144 .

(٣) ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

(4) Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate P426 .

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ٨ ص١١٠ .
، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حـ٣ ص٧ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان حـ١ ص٢٦٣ .

أما المكوك فكان مكيالاً يسع صاعًا ونصفًا ، أو ثلاث كيلجات أو نصف الويبة ، والويبة أربعة وعشرون مدا ، بمد النبى ﷺ ، وكان النبى ﷺ يتوضأ بمكوك ويغتسل بخمسة مكاكيك(١) ، وتختلف سعة المكوك باختلاف ما اصطلح عليه الناس فى البلاد ، فهو يعادل خمسة عشر رطلاً فى بلاد ما بين النهرين(٢) .

أما الوسق فكان مكيالاً لتحديد نصاب الزكاة ، وذلك طبقًا لما ورد فى كتب الخراج من أن نصاب الزكاة خمسة أوسق وهو الحد الأدنى الذى يؤخذ عنه العشر(٣) ، والوسق ستون صاعًا ، وهى تعادل خمسين كيلة مصرية .

على الرغم من أن الأردب كان مكيالاً مصريًا الاّ أن العرب قد عرفوا هذا المكيال لقوله ﷺ : " منعت العراق درهمها وقفيزها ، ومنعت الشام مدها ودينارها، ومنعت مصر أردبها ودينارها"(٤) ويعادل الأردب أربعة وعشرين صاعًا ، أو ست ويبات(٥) ، ولما تم لعمرو بن العاص فتح مصر ، وضع على كل ذى أرض ثلاثة أرادب حنطة ، وقسطين زيت وقسطين عسل ، وقسطين خل ، رزقًا للمسلمين(٦) .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ماده : " مكك " حـ١٢ .
(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٤٥ .
(٣) يحيى بن آدم : الخراج ص ١٣٩ – ١٤١ .
(٤) المقريزى : كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٦٢ – ٦٣ .
(٥) محمود الفلكى : رسالة فى المقاييس ص ١٣ .
، ذكر على مبارك أن الأردب اختلف مقداره فى داخل البلاد المصرية فمن ذلك أردب رشيد ومقداره ٧٢٦ لترًا ، والأردب الدمياطى ٥٢٨ لترًا .
، انظر : الميزان فى الأقيسة والأوزان ص٨٠ وما بعدها .
(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢٢ .

كانت الويبة مكيالاً مصريًا يعادل ستة أمداد(١) أو ستة عشر قدحًا أو كيلتان(٢) ، وعلى ذلك كانت الكيلة تعادل ثمانية أقداح(٣) أو ربعات ، فالربع كان يعادل أيضًا أربعة أقداح .

أما القدح فكان ينقسم إلى مكاييل متناقصة فمنها نصف القدح ، والربعة والثمنة والخروبة والقيراط ، والخروبة جزء من ستة عشر جزءًا من القدح والقيراط نصف خروبة(٤) .

يعد " الكر " أكبر مقاييس الكيل العربية وهو يعادل اثنى عشر وسقا أو ستون قفيزا ، وكان يقدر بـه كميات الحبوب المأخوذة للخراج ، والصفقات التجارية الكبرى فمن ذلك أن تاجرين أشتريا " ثلاثين ألف كر " وأن يحيى بن خالد نال من هذه الصفقة عشرة آلاف كر(٥) .

الموازين :

ارتبطت الموازين فى الدولة الإسلامية بنقودها ، ذلك أن التعامل بهذه النقود كان وزنا لاعددا ، قال البلاذرى : " كان لقريش أوزانًا فى الجاهلية ، فدخل الإسلام فأقرت على ما كانت عليه ، وكانت قريش تزن الفضة بوزن يسمى درهماً(٦) ، وتزن الذهب بوزن تسمي دينارًا ، فكل عشرة من أوزان الدرهم سبعة أوزان الدنانير ، وكان لهم وزن الشعيرة وهو واحد من الستين

(١) المقريزى : الخطط والآثار جـ١ ص ٢٢٣ .
(٢) محمود الفلكى : المرجع نفسه ص ١٣ .
(٣) فالترهنس : المرجع نفسه ص ٦١ – ٦٢ .
(٤) فالترهنس : المرجع نفسه ص٦١ – ٦٢ .
(٥) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٨٥ – ١٨٦ .
(٦) كان الدرهم معروفًا عند العرب منذ القدم وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ . سورة يوسف : آية ٢٠.

من وزن الدراهم ، وكانت لهم الأوقية ، وزن أربعين درهمًا ، والنش ، وزن عشرين درهمًا ، وكانت لهم النواة ، وهى وزن خمسة دراهم ، فكانوا يتبايعون بالتبر على هذه الأوزان "(١) .

كان الدرهم العملة الأساسية التى تقاس عليها الأوزان المختلفة وقد وصفه الجاحظ بقوله : " والدرهم هو القطب الذى تدور عليه رحى الدنيا "(٢) وتعامل العرب بالدراهم التى كانت ترد اليهم من بلاد الفرس ، وكانت مختلفة الأوزان فمنها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطاً(٣) ، ودرهم وزنه اثنا عشر قيراطاً، ودرهم وزنه عشرة قراريط(٤) ، كما كان الدرهم يوزن بالدوانيق(٥) ، فمنها ما كان وزنه ثمانية دوانق ، ومنها أربعة دوانق ، ومنها ما كان وزنه دانقا واحدًا . وكان وزن الدانق ثمانى حبات وخمسًا حبة من حبات الشعير المتوسطة غير المقشرة(٦) .

لما جاء الإسلام أقر النبى ﷺ أوزان قريش ، وقال : (المكيال مكيال المدينة (الصاع) ، والميزان ميزان مكة " الدرهم(٧) والدينار(٨) " .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٧٢ .
(٢) الجاحظ : كتاب البخلاء ص ١١٦
(٣) القيراط = ٠,٢٤٧٥ من الجرام الفضة .
ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية ص ٣٥٥ .
(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٧ .
(٥) الدانق = ٠,٤٩٥ من الجرام الفضة .
ضياء الدين الريس : المرجع نفسه ص٣٥٥ .
(٦) المقريزى : كتاب النقود الإسلامية ص ٢٣ / ٢٧ .
(٧) ابن سلام : الأموال ص ٥٢٠ .
(٨) قال على بن أبى طالب : " زوجنى رسول الله ﷺ فاطمة رضى الله عنها على أربعمائة وثمانين درهمًا وزن ستة (دوانق) – انظر: ابن سلام : الأموال ص ٥٢٥.

ظل الحال على ذلك حتى قام الخليفة عمر بن الخطاب بتحديد وزن الدرهم الإسلامى بأربعة عشر قيراطًا أو ستة دوانق ، وجعله الوزن الشرعى فقد أمر الخليفة عمر بضرب الدراهم على نقش الكسروية(١) ، وشكلها وزاد فى بعضها عبارات إسلامية فمنها " الحمد لله " ولا إله إلا الله وحده "(٢) .

لما استقر الإسلام بمصر ، كره العرب استخدام النقود المنقوش عليها الصليب وصورة السيد المسيح ، فقاموا بمحوها ودقوا عليها اسم رسول الله ﷺ واسم الخليفة ، يتضح ذلك من كتاب بشندى - أسقف قفط الذى أنفذه إلى البلاد المصرية وما يزال محفوظًا فى المكتبة الأهلية بباريس ، وقد جاء فيه : " إن العرب اخذوا النقود الذهبية المنقوش عليها الصليب المقدس وصورة السيد المسيح ، ومسحوا الصليب وصورة المسيح ، وكتبوا محلها اسم نبيهم محمد - الذى يتبعون تعاليمه واسم خليفة نبيهم ، ونقشوا الاسمين معًا على النقود الذهبية "(٣) .

استقر وزن الدرهم الشرعى على سبعة مثاقيل فكان يوزن كل عشرة منة بسبعة مثاقيل من الذهب ، فهو يساوى سبعه أعشار الدينار ، ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير(٤) . فالدرهم خمسون حبة وخمسًا حبة ، وكما قال ابن خلدون : " وكل هذه المقادير ثابتة بالإجماع "(٥) .

---

(١) الدراهم الكسروية : نسبة إلى كسرى الأول (٥٣١ - ٥٧٩م) .
(٢) المقريزى : كتاب النقود الإسلامية ص ٣١ - ٣٢ .
(3) Quatremere: Memoire Geographiques et Historiques Sur l Egypte, Tome I, P. 343.
(٤) الحبة = ٠.٠٦ من الجرام
ضياء الدين الريس : الخراج ص٣٥٥ .
(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٠ .

كانت الدراهم التى ضربت على عهد الأمويين تتفق مع الأوزان الشرعية ، فضرب معاوية بن أبى سفيان الدراهم على الطراز الساسانى سنة ٤٣ هـ[١] وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل .

ظلت الدراهم التى أمر بضربها الخلفاء تستخدم جنيها إلى جانب مع الدراهم الفارسية حتى أدخل الخليفة عبد الملك بن مروان التعريب والاصلاح فى النظم الإدارية والمالية[٢] ، يرى أغلب المؤرخين القدامى من أمثال البلاذرى والبيهقى والدميرى وأبى المحاسن أن حركة التعريب ترجع إلى عبارة التثليث التى كانت تكتب على القراطيس (أوراق البردى) المنتجة فى مصر، فذكر البيهقى : " وكانت القراطيس للروم ... وكانت تطرز بالرومية ، وكان طرازها أبا وابنا وروحًا قدسًا ، فلم يزل كذلك صدر الإسلام كله على ما كان عليه ، إلى أن ملك عبد العزيز عبد الملك بن مروان ، وكان فطنًا ، فبينما هو ذات يوم ، إذ مر به ذلك ، فأنكره وقال : ما أغلظ هذا الأمر فى الدين والإسلام أن يكون القراطيس وهى تعمل فى مصر ، تخرج منه هذه القراطيس فتدور فى الآفاق والبلاد وقد طرزت بشرك مثبت عليها ، فأمر بالكتابة إلى عبد العزيز بن مروان ، وكان عامله على مصر - بإبطال ذلك الطراز .. وأن يأخذ صناع القراطيس بتطريزها بآية التوحيد[٣] ، (شهد الله أنه لا إله إلا هو)[٤] .

---

(1) Lavoix : Catalogue des monnais , P. XIV.

(2) Waiker : Catalogue of the Arab - Sassanian P. 104 .

(٣) البيهقى : المحاسن والمساوئ حـ٢ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

الواقع أن التعريب واصلاح جميع مرافق الدولة ودواوينها كان من أهداف عبد الملك بن مروان منذ ولى الخلافة ، إلا أن الحركات المناهضة فى الداخل والاعتداءات الخارجية حالت دون تنفيذ خططه ، فلما تم للخليفة عبد الملك بن مروان توطيد سلطانه على بلدان الخلافة ، وتأمين حدود الدولة ضد الاعتداءات الخارجية ، شرع فى تحقيق ما أراد ، وكانت البداية بالقراطيس ، ثم الدواوين وتعريب النقود .

فظهرت الدراهم الإسلامية الخالصة منذ سنة ٧٩هـ(١) التى تحمل نصوصًا قرآنية من سورة الإخلاص ، وبذلك تحرر الدرهم الإسلامى من التبيعية الساسانية وصار له وزنًا شرعيًا ثابتًا .

لم تقتصر اصلاحات الخليفة عبد الملك بن مروان المالية على الدرهم ، بل حظى الدينار بجل اهتمامه فأمر بضرب الدنانير على الطراز الإسلامى ، ومن الجدير بالذكر أن أقدم دينار عربى إسلامى خالص يرجع تاريخه إلى سنة ٧٧هـ(٢) وكان وزنه ٤,٢٥ جرام من الذهب(٣) على وزن السوليدوس (Solidus) المساوى لوزن الدينار البيزنطى (Denarius - aureus) ، ويقدر

---

(1) Walker : Catalouge of the Arab - Sassanian PP. lix, lxii, fig. 21 .

(2) Walker : Ibid , PP. lviii

، أشارد . عبد الرحمن فهمى إلى أن الخليفة عبد الملك بن مروان ضرب دينارًا سنة ٧٤هـ كمناورة سياسية قصد بها جس نبض الدولة البيزنطية تمهيدًا لظهور الطراز الإسلامى المؤرج سنة ٧٧هـ .

، انظر : عبد الرحمن فهمى : فجر السكة العربية حـ١ ص٤٨ .

(3) Miles : Early Arab Glass Weights PP 4 - 5 .

وزن الدينار باثنتين وسبعين حبة شعير ، أو ستة آلاف من حبة الخردل[١] ، وقد ورد ذكر حب الخردل فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٢] ، وفضلاً عن الدينار كان هناك نصف دينار (Semis) ، وثلث الدينار (Tremis) وربع الدينار (Quadrans) ، وقد أشير إليها جميعًا فى أوراق البردى العربية[٣] .

لا شك أن ما قام به الخليفة عبد الملك من ضرب الدنانير والدراهم على الطراز العربى الإسلامى كانت له أهمية خاصة لتحقيق الاستقلال الاقتصادى والتخلص من التبعية للنقود البيزنطية والفارسية ولابراز الشخصية العربية الإسلامية فى التعامل الدولى .

لما كانت الأوقية وزن أربعين درهمًا[٤] فهى تزن١١٩جرامًا من الفضة على اعتبار أن الدرهم يزن ٢,٩٧٥ جرام ، والنش ، وزن عشرين درهمًا أى ٥٩,٥ جرامًا من الفضة ، والنواة وزن خمسة دراهم أى ١٤,٨٧٥ جرامًا من الفضة .

استخدم العرب الفلوس وهى النقود النحاسية والبرونزية فى المعاملات البسيطة ، وهى مشتقة من الكلمة البيزنطية (Follis) وكانت تساوى ٤٠ نميا

---

(١) الكرملى : النقود الإسلامية ص ٣٠ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

(3) Grohmann : From the World of Arabic Papyri PP. 128 - 129

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٧٢ .

ويرمز لها بالحروف (M)(١) ، ومنها ما يساوى ١٢ نميا ويرمز لها بالحرفين (IB)(٢) .

على الرغم من اختلاف وزن الفلوس بإختلاف الأقاليم التى كانت تسك فيها ، إلا أن العلاقة بين الدرهم والفلس كانت ١ : ٣٢ طبقًا لما ورد فى أوراق البردى العربية ، كما أن العلاقة بين الدينار والفلس كانت ١ : ٢٤(٣) .

كانت الفلوس توزن الخراريب وتنقش عليها حتى يسهل التعامل بها ، فمن ذلك فلس الأمير واضح(٤) الذى ينص على قيمته ووزنه فى وقت واحد ، بثلاثين خروبة ، ويزن ٥,٩٩ جرامات وهو يعد من الفلوس الجيده لأن وزن حبة الخروب ٠,١٩٤ جم .

---

(1) Frey : Dict . Art "Fels " P.82 .

(2) Zambaur : Ency . of Islam Art " Fals " .

(٣) محمود عرفه : المسكوكات النحاسية والبرونزية ، رسالة ماجستير ، كلية الاثار ، جامعة القاهرة ص ١٤٠ .

(٤) هو واضح بن عبد الله المنصورى ، ولى الإمارة على مصر فى جمادى الأخره سنة ١٦٢ هـ وظل أميرًا على البلاد حتى شهر رمضان من العام نفسه حيث عين الخليفة المهدى على مصر ، منصور بن يزيد .

، انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ٢ ص ٤٠ .

الكندى : الولاة والقضاه ص ١٢١ .

فلس الأمير واضح(١)

(القطر : ١٨ مم – الوزن ٥,٩٩جم)

الوجه



المركز: أمير

المؤمنين

اكرمه

الله

الهامش :

هذا فلس الأمير (واضح مولى)

الظهر



المركز : خـر

وبـــه

•

الهامش :

محمد رسول الله فلس ثلثين

يعد الرطل البغدادى من الأوزان الرسمية للدولة الإسلامية الذى قـدرت به الأشياء العينية التى ترد ضمن الخراج ، فمن ذلك ما أورده الجهشيارى أن وزن السكر الذى ورد من الأهواز على الرشيد كان ثلاثون ألف رطل ، ومـن

---

(١) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، سجل رقم ٢٧١٦٨ ، لوحة رقم ٩ .

فارس ماء الزبيب الأسود عشرون ألف رطل ، ومن الرى الخوخ ألف رطل(١) ، والرطل الشرعى اثنتا عشرة أوقية فهو يزن ٤٢٨ جراماً(٢) .

صنجة معدنية ميزان الأوقية(٣)

(القطر : ٢٥ مم – الوزن : ١٢١جرام)



كان القنطار من الموازين العربية التى استعملت فى تقدير الأوزان الكبيرة(٤) وقد جاء فى القرآن الكريم : ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك ، إلا مادمت عليه قائمًا ﴾(٥) ، والقنطار ألف ومائتا أوقية ، لأن الآية نزلت فى عبد الله بن

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٨١ – ٢٨٨ .
(٢) ذكر على مبارك أن الرطل البغدادى بالجرامات = ٤٠٨ جرامًا ولم يذكر كيف توصل إلى هذا الاستنتاج :
انظر الميزان فى الأقيسة والأوزان ص٥٨ .
(٣) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ٢٣٥٧١ ، لوحة رقم ١٠ .
(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ١٥١ .
(٥) سورة آل عمران : آية ٧٥ .

سلام(١) حيث استودعه رجل من قريش الفا ومائتى أوقية ذهب فرده ولم يخن فيه ، ولما كانت الأوقية سبعة مكاكيك والملوك ألف ومائتى دينار ، فالقنطار ثمانية آلاف وأربعمائة دينار(٢) .

الصنج الزجاجية :

لما استقرت الفتوحات الإسلامية فى بلاد الفرس والروم ، شرع العرب فى دراسة النظم المالية القائمة ، فوجدوا أن البيزنطيين كانوا يستعملون صنجا(٣) لضبط أوزان النقود المتداولة ، ولما كانت سياسة الدولة الإسلامية فى بداية عهدها تقوم على الإبقاء على النظم القائمة فى بلاد المفتوحة ، لذلك استعمل الحكام المسلمون صنجا بيزنطية فى ضبط عيار السكة وبخاصة فى فترة الانتقال(٤) التى امتدت حتى حركة الاصلاح الإدارى والمالى على عهد الخليفة عبد الملك بن مروان .

---

(١) الزمخشرى : الكشاف حـ١ ص ١٤٩ .

(٢) ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية ص ٣٦٥ .

(٣) الصنج : جمع صنجة أو سنجة ، وهى الوزن المحدد من قبل الإدارة المالية لضبط العيار ويطلق عليها لفظ مثقال أو ميزان ، أى مقدار ثقل الصنجة التى يعير عليها قطع النقود كما يراد بها أيضًا العيار (Poids) .

Sauvaire : Materiaux Pour Servir Vol, II, 119 .

Miles : Eariy Arabic Glass Weights, P. 3 .

(٤) على الرغم من اصدار الصنج المعدنية والزجاجية العربية الخالصة فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، إلا أن العالم الإسلامى شهد صنجا تحمل عبارات عربية تم صنعها فى فترة الانتقال قبيل عهد عبد الملك بن مروان وهذه الصنج تشير إلى البسملة فهى تمثل الحلقة الثانية فى سلسلة التطور من الطراز البيزنطى إلى الطراز الإسلامى. انظر ، Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes P. XIVI .

عبد الرحمن فهمى : الموسوعة المصرية ، تاريخ وآثار مصر الإسلامية ص ٩٩٤ .

كانت صنج السكة تتخذ فى بادئ الأمر من الحديد أو البرونز ، ثم تطورت إلى استعمال الزجاج فى صناعتها حتى لا تستحيل إلى زيادة أو نقصان ، بعد أن وجد المشرفون على دور الضرب تغير أوزان الصنج المعدنية والتى اقتصر استخدامها على وزن البضائع والسلع من اللحوم والفاكهة وغيرها ، وغالبًا ما كان يخصص نوع السلع التى ستوزن بهذه الصنج ، فيقال رطل لحم أو رطل عنب ، كما أن بعض الصنج كان يحمل اسم عامل الخراج أو صاحب الشرطة ، وكان التجار يكلفون بمراجعة دار العيار بصفة دورية للكشف على الصنج لاصلاحها وضبطها على العيار الشرعى .

استخدمت الصنج الزجاجية على نطاق واسع فى كافة أنواع المعاملات المالية والتجارية وبخاصة فى العهد الأموى بعد ادخال التعديلات عليها ، إذ أمر الخليفة عبد الملك بن مروان : " وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان "(١) . وبذلك ارتبط اصلاح السكة باستعمال الصنج الزجاجية لضبط عيارها ووزنها الشرعى ، فضلاً عن استخدام هذا النوع من الصنج فى وزن السلع المتداولة فى الحياة اليومية .

كان ديوان الخراج هو الذى يتولى اصدار الصنج الزجاجية المختلفة تعبًا لنوع السكة المراد عيارها ، فكان هناك الصنج الخاصة بالدينار وتزن ٤,٢٥ جرام ، والصنج الخاصة بالدراهم التى تزن ٢,٩٧ جرام وهو يساوى ٧ / ١٠ من وزن الدينار الشرعى(٢) ، ومما تجدر الإشارة إليه أن أوزان الدنانير والدراهم لم تكن ثابتة ، بل تغيرت عبر العصور المختلفة لارتباطها بالاستقرار السياسى والرخاء الاقتصادى .

---

(١) الدميرى : حياة الحيوان الكبرى حـ١ ص٦٤ .

(2) Frey : Dict . " Dirhem " . P. 66 .

أولاً : صنج بميزان الدينار وأجزائه :

١ - صنجة زجاجية بميزان الدينار(١)

(القطر : ٢٧ مم - الوزن : ٤,٢٠ جرام)



أمر الأ

مير قرة(٢)

بميز (ا) ن دينر

واف

(١) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١٤٢٩٤ / ٢٠٤ .

(٢) هو قرة بن شريك بن مرثد بن حازم العبسى ، ولى امرة مصر فى ربيع الأول سنة ٩٠هـ وظل فى ولايته حتى توفى فى ربيع الأول سنة ٩٦هـ ، وقد اهتم الأمير قرة بضبط الصنج اللازمة للسكة فقد تشدد فى أخذ الجزية على وزن بيت المال . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص٢١٧ - ٢١٨ .

Grohmann : Arabic Papyri , II, p. 47 .

٢ – صنجة زجاجية بميزان نصف الدينار[١]

(القطر : ٢٢ مم – الوزن : ٢٫١٠ جرام)



أمر اسا

مه بن زيد[٢]

بميز (ا) ن نصف

دينر واف

(١) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١٨٤ / ١٤٢٩٤ ، لوحة رقم ١١ .

(٢) هو أسامة بن زيد التنوخى – متولى خراج مصر سنة ٩٦ هـ ، ويعد أسامة مؤسس بيت المال بالفسطاط بالقرب من جامع عمرو واشتهر بالتشدد فى تحصيل الخراج ، وقد ظل عاملاً على الخراج حتى اقاله الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ .

انظر الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٢ / ١٤٣٦ .

٣ - صنجة زجاجية بميزان ثلث الدينار(١)

(القطر : ٢٠ مم - الوزن : ١،٣٩جرام)



بسم الله

أمر الأمير

يزيد بن حاتم(٢) مثقال ثلث

واف

(١) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١٦٦ / ١٤٢٩٤ ، لوحة رقم ١٢ .

(٢) هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى ، ولى امرة مصر بعد عزل حميد بن قحطبة فى ذى القعدة سنه ١٤٤هـ ، وضم الخليفة المنصور إلى يزيد ابن حاتم سنة ١٤٩هـ برقة إلى أعماله ، ويعد أول أمير يضم مصر وبرقة معًا ، وظل يلى البلاد حتى تم عزله سنة ١٥٢ هـ .

الكندى : الولاة والقضاء ص ١١٥ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ٢ ص٢ .

ثانيًا : صنجة زجاجية بميزان درهم[١]

(القطر : ٢٥مم – الوزن : ٢.٧١٥ جرام)



بسم الله مما

أمر به الأمير

محمد مثقال

درهم واف

أما الفلوس فكانت توزن بالصنج الزجاجية التى تحمل كتاباتها أوزان بالخروبة أو القيراط ، وتعرف الخروبة باسم Siliqua عند البيزنطيين وهى تساوى ٠.١٩٤ جرام[٢] .

(١) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ٥ / ١٤٦١٢ ، لوحة رقم ١٣ .

(2) Sauvaire : Materiaux Pour Servir , Vol. P. 100 .

صنج زجاجية بميزان الفلوس :

١ - صنجة زجاجية بميزان نصف فلس ١٥ قيراط[١]

(القطر : ٢٣مم - الوزن : ٢,١٠جرام)



بسم الله

أمر عبيد الله

ابن الحبحاب مثقا

ل نصف فلس

خمسة عشر

قيراط وا

ف

(١) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١٤٢٩٤ ، لوحة رقم ١٤ .

٢ - صنجة زجاجية بميزان فلس ٢٠ خروبة(١)

(القطر : ٣٠مم - الوزن: ٣,٩ جرام)



مما أمر به

محمد بن عمرو

مثقال فلس واف

عشرين خروبة

لم يقتصر استخدام الصنج الزجاجية على ضبط أوزان وعيار النقود بنوعياتها المختلفة قبيل صدورها من دور الضرب ، بل استعملها التجار لاختبار أوزان العملات إذا ما قدمت ثمناً لبضائعهم ، لذلك رأى المسئولون عن اصدار العملات، صنع كثير من الصنج الزجاجية التى تشير إلى قيمة الدنانير والدراهم والفلوس(٢) .

(١) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة :الرقم بالسجل ١٠١ / ١٤٢٩٤ ، لوحة رقم ١٥ .

(2) Lane - Poole: Catalogue of Arabic Glass Weights in the B. M.

Cazanova: Catalogue des Pieces de verre.

Miles: Early Arabic Glass Weights.

يتجلى الارتباط الوثيق بين الصنج الزجاجية والنقود الإسلامية فيما تحمله من كتابات ونقوش تتضمن قيم العملات المضروبة من ذهب وفضة واسماء ، وأوزان المسكوكات النحاسية ، فيقرأ عليها دينر ونصف دينر ودرهم ، وفلس ، وخروبة(١) .

ولتأكيد ضبط الصنجة كانت تختم بلفظ " جايز " أو " واف " ، فالوفا فى الصنجة كان من أهم ما يتمسك به الصانع ، ولكن هذا الوفا كان يتوقف بالضرورة على طرائق الصناعة ودقة الصانع بحيث لا يخل بالغاية من ضبط الصنجة التى تساوى السكة .

كان لضبط الصنج وتقدير قيمتها أثره فى سهولة التعامل ، فلو أراد شخص ما شراء ، ثوب بدرهمين ونصف الدرهم ، ولم يكن لديه أجزاء الدرهم فكان التاجر يزن العدد المطلوب من الفلوس النحاسية المقدرة بالخراريب بهذه الصنج الزجاجية ذات الخراريب المتعددة(٢) .

كما تؤكد العبارات العربية المنقوشة على كل من النقود والصنج الزجاجية العلاقة الوثيقة بينهما ، فكلاهما يحمل اسم الوالى أو عامل الخراج ، أو صاحب الشرطة(٣) فضلاً عن العبارات الدعائية للأمر بصناعتها

---

(1) Rogers: Numismatic Chronicle, XIII, P. 60

وقد أدت هذه الكتابات إلى أن اعتقد بعض الباحثين فى علم النميات أن الصنج الزجاجية ما هى إلا عملات زجاجية . Nummi Viterei

Rogers: Numismatic Chronicie, XII, P. 199.

(2) Lane Poole : Ibid .

(٣) كان يعاون الوالى وعامل الخراج فى الإدارة المالية ، موظف على جانب كبير من الأهمية هو صاحب الشرطة ، الذى كان يعين بواسطة الوالى ، وفى حالات أخرى -

ومـن أشـــهرها : " أكرمـه اللـه " أو " أصلحـــه اللـه " فضـــلاً عـن عبـــاره " على يدى " .

كما تختم الصنجة باسم الصـانع ، بحيث تسبق اسمه كلمـة " صنعـه " بينما يسبق اسم الآمر بالصنع كلمه " على يدى "(١) .

تتميز الكتابات على صنـج السكة بأسلوب الخـط الجـاف اليـابس الـذى تشيع فى حروفه الزوايـا القائمـة والـتربيع ، والـذى ينسـب إلـى الكوفـة ، منـذ القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى ، وإن كان فى حقيقته خط حجـازى : مكى ومدنى(٢) ، إلا أنه اشتهر بالخط الكوفى لأنه انتشر منها فى أرجاء العالم الإسـلامى ، وقـد اسـتخدم فـى كتابـة المصـــاحف ، والنقـوش علــى السـكة ، والصنج والأختام فضلاً عن العمائر وسائر الكتابات التذكارية(٣) .

كان لصعوبة الكتابات على الصنج الزجاجية أن وقع الحفار فــى بعض الأخطـاء اللفظية أو اللغوية فكتب " سكال " بدلًا من " مثقال " أو " ديمر " بـدلاً من " دينر " أو " عمد " بدلاً من " عبيد " ، ويرجع السبب فى ذلك إلــى ضيـق

- كان يعين من قبل الخليفة مباشرة ، وكان صاحب الشرطة ينوب عن الوالــى فـى إمـرة البلاد أثناء غيابه أو مرضه أو وفاته ، حتى يتم تعيين والى آخر .

أحمد ممدوح : الشرطة فى مصر الإسلامية ، مجلة المجلة ، العدد الأول ص ٨٥ .

(١) يلاحظ أن كلمة " على يدى " وردت على النقود ، مثال على يدى يزيـد بـن عمر فـى الرى بفارس سنه ١٣٠هـ ، وعبد الملك بن مروان فى الفسطاط بمصر سنة ١٣٣هـ . انظر :

Lane Poole : Catalogue of Arabic Glass, P114 .

(٢) إبراهيم جمعه : تطور الكتابات الكوفية ص٢٨ .

(٣) زكى حسن : فنون الإسلام ص ٢٣٦ .

مساحة القرص الزجاجى وصعوبة الحفر فى الخاتم الأصلى وبخاصة أن الكلمات كانت تنقش مقلوبة(١) .

أفادت الرموز التى وردت على الصنج بعض العلماء(٢) ، فى استنتاج قيم وأوزان هذه الصنج ، فضلاً عن نظام الترقيم بالأعداد الحسابية من خلال رموز معينة ، فالصنج التى تحمل الرمز تزن حوالى ٥,٧٩ جرام أو ثلاثين خروبة ، وذلك أن هذا الرمز هو اللام القبطية التى اشتقت من اللام الاغريقية ، ويساوى فى الأبجدية القبطية ٣٠(٣) ، والرمز يتألف من اللام القبطية التى تساوى ٣٠ ، وحرف gamma الذى يساوى ٣ ، أى تساوى ٣٣ خروبة ، كما أن الرمز يعبر عن الحرفين القبطيين iota تساوى ١٠ ، alpha تساوى ١ فالصنجة تساوى احدى عشر خروبة أى ٢,١٥ جرام .

(١) عبد الرحمن فهمى : صنج السكة ص ١٩ – ٢٠ .

(2) Cazanova: Catalogue des Pieces de Verre, P. 352.
Miles: Early Arabic Glass Weights, P. ii.

(3) Worth: Catalogue of the Imperial Byzantine Coins, P. 130.

١ - صنجة زجاجية تحمل الرمز سلمه (١)

(القطر : ٣٢مم - الوزن : ٥.٨١ جرام)



سلمه(٢)

لم تقتصر النقوش التى وردت على الصنج على الرموز الحسابية إنما ظهرت عليها بعض الرموز الفلكية ، كالهلال والنجمة متفرقين أو مجتمعين فمنها ما يظهر عليه النجمة فقط أو الهلال والنجمة معًا ومنها ما يحمل أكثر من نجمة متراصة ، كما أن النجوم فى ذاتها تختلف من نجمة خماسية أو سداسية أو ثمانية الأطراف . وهذه الزخارف الفلكية نقشت لاضفاء المسحة الجمالية .

---

(١) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ٢٤/١٤٢٩٤ ، لوحة رقم ١٦ .

(٢) هو سلمه بن رجاء ولى مصر من سنة ١٦١ - ١٦٢ هـ وقد توسع فى إصدار الصنج الزجاجية الخاصة بالفلوس ، ولم ترد له بقايا من الصنج الخاصة بالدنانير والدراهم .
الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ٥ ص٤٩٢ - ٤٩٣ .
Miles : Early Arabic Glass Weights PP, 127 - 128 .
عبد الرحمن فهمى : صنج السكة ص ١٣٨ .

المؤرخ المصرى العدد السابع عشر يوليو ١٩٩٦ ص ص ٤٥ - ١٠٢

صنجة زجاجية مثقال فلس ٣٠ خروبة(١)

(القطر : ٣٠ مم - الوزن : ٥,٨٠ جرام)



على يدى عبد

الجبار بن نصير

مثقال فلس

خروبة

مما تجدر الإشارة إليه أن هذه الرموز لم ترتبط بالوفاء أو العقيدة الإسلامية كما يرى بعض علماء النميات(٢) وإنما اتخذها

---

(١) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ٦٩١٦ / ١٢١ .

وانظر لوحة رقم ١٧ تبين الرموز الفلكية على الصنج ، متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، الرقم بالسجل ٢٠٧ / ١٤٢٩٤ .

(2) Cazanova : Catalogue des Pieces de Verre, P. 341,352.

المسلمون لملء الفراغ[1] على الصنج والنقود وغيرها من الآثار والتحف الفنية .

حظيت الصنج الزجاجية باهتمام الخلفاء تجنبًا لوقوع الغش وتوكيدا وأحكامًا للرقابة المالية فكان المخالف يعاقب بقطع الأيدى وضرب الأبشار كما وضعت الدفاتر فى دواوين دور الضرب لأحكام الرقابة الإدارية والمالية[2] .

قصارى القول أن الحكام المسلمين أرادوا الحفاظ على وزن السكة وعيارها لذلك أمروا بصنع مجموعات متكاملة من الصنج الزجاجية لضبط أوزان النقود وعيارها على الأوزان الشرعية التى وضعت من قبل الإدارة المالية للدولة الإسلامية .

---

(١) أشار د. عبد الرحمن فهمى إلاّ أن الرموز الفلكية وردت علء الدراهم الفارسية فهى بذلك لا تتعلق بالعقيدة الإسلامية وإنما هى تشير عند الشرقيين للرخاء والفأل الحسن . ، انظر عبد الرحمن فهمى : صنج السكة ص٢٤ .

(٢) محمود عرفه : الرقابة الإدارية والمالية فى الدولة العربية الإسلامية ص٣٩ .

اللوحات

مكيلة للمائعات (السوائل) سعة ربع قسط زيت



لوحة رقم (١)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ٣٧٧ / ٦٩١٦

مكيلة لجامدات (كمون الأسود والأبيض)



لوحة رقم (٢)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ٦ / ٨١٨

مكيلة من الزجاج مؤرخة سنة ٨٨هـ



لوحة رقم (٣)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١ / ١٣٧١٦

خاتم مكيلة من الزجاج مؤرخة سنة ٨٨ هـ



لوحة رقم (٤)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١ / ١٣٧١٦

مكيلة من الزجاج بخاتم مستدير



لوحة رقم (٥)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١٣٢٣٥

خاتم مستدير لمكيلة من الزجاج



لوحة رقم (٦)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١٣٢٣٥

مكيلة سعة قسطان



لوحة رقم (٧)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : القرم بالسجل ١١٧ / ١٤٣١٧

مكيلة سعة قسط



لوحة رقم (٨)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ٢٤٥ / ٦٩١٦

فلس الأمير واضح

الوجه



الظهر



لوحة رقم (٩)

متحف الفن بالقاهرة : الرقم بالسجل ٦٨ / ٢٧

صنجة معدنية ميزان الأوقية



لوحة رقم (١٠)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ٢٣٥٧١

صنجة زجاجية بميزان نصف الدينار



لوحة رقم (١١)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١٨٤ / ١٤٢٩٤

صنجة زجاجية بميزان ثلث الدينار



لوحة رقم (١٠)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١٤٢٩٤ / ١٦٦

صنجة زجاجية بميزان درهم



لوحة رقم (١٣)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ٥ / ١٤٦١٢

صنجة زجاجية بميزان نصف فلس ١٥ قيراط



لوحة رقم (١٤)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١٤٢٩٤

صنجة زجاجية بميزان فلس ٢٠ خروبة



لوحة رقم (١٥)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ١٠١ / ١٤٢٩٤

صنجة زجاجية تحمل الرمز



لوحة رقم (١٦)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ٢٤ / ١٤٢٩٤

صنجة زجاجية ذات رموز فلكية



لوحة رقم (١٧)

متحف الفن الإسلامى بالقاهرة : الرقم بالسجل ٢٠٧ / ١٤٢٩٤

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية :

إبراهيم جمعه

١ - " دراسة فى تطور الكتابات الكوفية على الأحجار فى مصر فى القرون الخمسة الأولى للهجرة " ، المطبعة العالمية ، القاهرة ١٩٦٩م .

ابن الأثير : على بن أحمد بن أبى الكرم ، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢ م .

٢ - " الكامل فى التاريخ " ، دار الفكر ، بيروت ١٩٧٨ م .

أحمد ممدوح حمدى

٣ - " الشرطة فى مصر الإسلامية ومعاقل التأديب بها " ، مجلة المجلة ، العدد ٥١، مارس ١٩٦١م .

ابن الأخوة : محمد بن محمد بن أحمد القرشى ، ت ٧٢٩هـ/١٣٢٧ م.

٤ - " كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة " ، عنى بنقله وتحقيقه روبن ليوى، كمبردج ١٩٣٧م .

ابن بعرة : منصور بن بعرة الذهبى الكاملى

٥ - " كتاب كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبدالرحمن فهمى ، القاهرة ١٩٦٦م .

البلاذرى : أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر ، ت ٢٧٩هـ/١٣٨٢م .

٦ - " كتاب فتوح البلدان " ، مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٧م .

البيهقى : إبراهيم بن محمد ، ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م .

٧ - " المحاسن والمساوئ " ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة .

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر ، ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م (بدون تاريخ) .

٨ - " كتاب البخلاء " ، شرح العوامرى والجارم ، القاهرة .

الجهشيارى : أبو عبد الله محمد بن عبدوس ، ت ٣٣١هـ/٩٤٢م .

٩ - " الوزراء والكتاب " ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، مطبعة البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٣٨م .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٤م .

١٠ - " المقدمة " ، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة (بدون تاريخ) .

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم ، ت ٦٨١هـ/١٢٩٠م .

١١ - " كتاب وفيات الأعيان " جزءان ، بولاق ١٢٨٢هـ .

الخوارزمى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب ، ت ٣٨٢هـ/٩٩٣م .

١٢ - " مفاتيح العلوم " ، المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٤٢هـ .

الدميرى : كمال الدين أبو البقاء محمد ، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٤م

١٣ - " حياة الحيوان الكبرى " ، المكتبة التجارية بمصر ١٩٥٤م .

زكى محمد حسن

١٤ - " فنون الإسلام " ، القاهرة ١٩٤٨م .

الزمخشرى : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر ، ت ٥٣٨هـ/١١٤٣م .

١٥ - " الكشاف " ، مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٤٨م .

سامح عبد الرحمن فهمى

١٦ - " المكاييل فى صدر الإسلام " ، مكة المكرمة ١٤٠١هـ .

ابن سلام : أبو عبيد القاسم ، ت ٢٢٤ هـ/٨٣٨م .

١٧ - " كتاب الأموال " تحقيق محمد خليل هراس ، القاهرة ١٩٦٨م .

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير ، ت ٣١٠هـ/٩٢٢م .

١٨ - " تاريخ الرسل والموك " ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦م .

عبد الرحمن فهمى

١٩ - " صنج السكة فى فجر الإسلام " ، دار الكتب المصرية ١٩٥٧م .

٢٠ - " موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، فجر السكة العربية ، دار الكتب المصرية ١٩٦٦م .

٢١ - " تحف نادرة من المسكوكات والأوزان والأختام الإسلامية ، مجلة المجمع العلمى المصرى ، المجلد ٥٣ لسنة ٧١ - ١٩٧٢م .

عبد المحسن الحسينى

٢٢ - " اختلاف العراقيين والمدنيين فى تقدير الصاع النبوى " ، مجلة كلية الآداب - جامعة الأسكندرية ، المجلد ١٦ لسنة ١٩٦٢م .

على مبارك

٢٣ - " الميزان فى الأقيسة والأوزان " ، المطبعة الأميرية ببولاق ، مصر ١٣٠٩هـ/١٨٩٢م .

فالترهنتس

٢٤ – " المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها " ، ترجمة كامل العسلى ، منشورات الجامعة الأردنية ، عمان ١٩٧٠م .

الفيروزبادى : مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الشافعى ، ت ٨١٧هـ/١٤٢٧م .

٢٥ – " القاموس المحيط " ، المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٠٢ هـ .

الكرملى : الأب انستاس

٢٦ – " النقود العربية وعلم النميات " ، القاهرة ١٩٣٩م .

الكندى : أبو عمر محمد بن يوسف ، ت ٣٥٠هـ/٩٦١م .

٢٧ – " كتاب الولاة وكتاب القضاة " ، بيوت ١٩٠٨م .

الماوردى : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى ، ت ٤٥٠هـ/١٠٥٧م .

٢٨ – " الأحكام السلطانية " ، القاهرة ١٩٦٠م .

أبو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ، ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م.

٢٩ – " النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة " ، دار الكتب المصرية ١٩٢٩ – ١٩٣٦م .

محمد ضياء الدين الريس

٣٠ – " الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية " ، دار التراث ، القاهرة ١٩٨٥م .

محمود الفلكى

٣١ - " رسالة فى المقاييس والمكاييل العلمية بالديار المصرية ، تعريب زيور أفندى ، الاستانة ١٢٩٠م .

محمود عرفه محمود

٣٢ - " الرقابة الإدراية والمالية فى الدولة العربية الإسلامية فى القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، مجلة البحوث والدراسات العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، المجلد ٦ لسنة ١٩٨٨م .

٣٣ - " المسكوكات النحاسية والبرونزية بمصر الإسلامية خلال عصر الولاة ، دراسة أثرية حضارية " ، رسالة ماجستير ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

المقدسى : محمد شمس الدين أبو عبد الله ، ت ٣٨٨هـ/٩٩٧م .

٣٤ - " أحسن التقاسم فى معرفة الأقاليم " ، ليدن ١٩٠٦م .

المقرى الفيومى : أحمد بن محمد الفيومى .

٣٥ - " المصباح المنير " ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٢٢م .

المقريزى : تقى الدين أبو العباسى محمد بن على ، ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م .

٣٦ - " كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " بولاق ١٢٧٠هـ .

٣٧ - " الأوزان والأكيال " . نشر تخسن ١٧٩٨م .

٣٨ - " شذور العقود فى ذكر النقود القديمة والإسلامية " ، استنبول ١٢٩٨هـ.

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين ، ت ٧١١هـ/١٣١١م .

٣٩ – " لسان العرب " ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٦م .

يحيى بن آدم : أبو زكريا سليمان ، ت ٢٠٣هـ/٨١٨م .

٤٠ – " كتاب الخراج " ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٨٤ هـ .

أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم ، ت ١٨٢هـ/٧٩٨م .

٤١ – " كتاب الخراج " ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٨٢هـ .

الهيئة العامة للاستعلامات

٤٢ – " الموسوعة المصرية ، تاريخ وآثار مصر الإسلامية " ، جمهورية مصر العربية .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

BALOG, P.:

1. " Umayyad, Abbasid and Tulunid Glass Weights and vesoel stamps, New york, 1976.

BELL,H. I.:

2. " Translation of the Greek aphrodito papyri, der islam, strassburg, 1911.

CAHEN, CLO:

3. " Bayt Al-Mal ", Encyclopedia of islam, vol. I.

CAZANOVA, P:

4. " Catalogue des pieces de verre des apoques Byzantine et Arabe ce la coll, " Fouquet, vol. VI, memoires publies par les membres de la mission archeologique Francaise au Caire, Paris, 1893.

5. " Encyclopedia of Islam.

FREY, A.R.:

6. " Dictionary of Numismatic Names " A.N.S, 1917.

GROHMANN, ADOLF:

7. " Arabic Papyri in the Egyption Library, Cairo, 1934-1938.

8. " From the World of Arabic Papri, Cairo, 1952.

LANE - POOLE, S:

9. " Catalogue of Arabic Glass weights in the British Museum, London, 1891.

LAVOIX, HENRI:

10. " Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque Nationale, Paris, 1887.

LE STRANGE, G.:

11. " The Lands of the Eastern Caliphate ", Cambridge, 1930.

MILES, G.C.:

12. " Early Arabic Glass Weights and Stamps, New York, 1948.

15. " Contributions Glass Weigts and Measures in Munteze Paiace ", Journal of the American Center in Egypt, 1964.

MUSTAFA El - HABIB:

14. " Notes sur deux mesures d'aumone, Hesperis Tamude Vol. Rabat, 1969.

PETRIE, FLINDERS:

15. " Glass Stamps and Weights, London, 1926.

QUATREMERA, E. T.:

16. " Memoires Geographiques et Historiques sur L'Egypte ", Paris, 1811.

ROGERS, E. T.:

17. " Unpublished Glass Weights ", Numismatic Chronicle, Vol. XIII, 1966.

SAUVAIRE, M. H.:

18. " Materiaux Pour Servir a l'histoire de la Numismatique et de la Metrologie Musulmanes ", (Extrait du Journal Asiatique, 7 em Serie, Paris, 1879.

SYKES, P.:

19. " A History of Persia ", London, 1951.

WALKER, JOHN:

20. " Catalogue of the Arab-Sassanian Coins ", London, 1941.

WORTH, WARWICK:

21. " Catalogue of the Imperial Byzantine Coins in the British Museum.

عمان بين الحكم الذاتى والانفصال
فى القرنين الأول والثانى للهجرة

د. عبد الحســـين على أحمـــد
كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية
جامعة قطر

أبرز الجغرافيون أهمية عمان على أنها جزء من جزيرة العرب ، فبيـن المقدسى وآخرين بأنها وحـدة حضريـة فيقـول " جزيـرة العـرب وقـد جعلناهـا أربع كور جليلة وأربع نواحى نفيسة والكور أولها الحجاز ثم اليمـن ثـم عمـان ثم هجر ... "(١) .

وتعددت روايات المؤرخين واختلفوا فى أصل اسم عمان ، فمنهـم مـن يرجع التسمية بأنها تعنى " السلام "(٢) فى حين نجـد آخريـن ينسـبون التسـمية إلى أشخاص لهم الفضل فى تعمير المنطقة ، فيذكر ياقوت الحموى بأن أصل التسمية عائد إلى عمان بن سليم بن يغثان بن إبراهيم الخليـل لأنـه بنـى مدينـة عمان(٣) واختلف ابن خلدون معه فأرجع التسمية إلى عمان بن قحطـان الـذى يعتبره أول من نزل المنطقة فى ولاية أخيه يعرب وصــارت بعـد سـيل العـرم مقراً لقبيلة الأزد(٤) .

---

(١) المقدسـى ، أحسـن التقاسـيم ، ٦٨ ، انظـر يـاقوت الحمـوى ، معجـم البلـدان ، ١٥٠ ، وابن الفقيه ، البلدان ، ١١ .

(٢) وندل فيسليبس ، تاريخ عمان ، ٨ .

(٣) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ١٥٠ .

(٤) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٤ / ١٩٨ ، بيروت ، ١٩٦٧ .

هذه الآراء لا تتفق مع روايات مؤرخى عمان أنفسهم فهم يرجعون التسمية إلى الأزد وإنهم أطلقوا عمان على الإقليم نسبة إلى موطنهم الأصلى قبل الهجرة ، فقد كانوا يسكنون بواد لهم بمأرب يقال له عمان فشبهوها به ، أما التسمية القديمة لهذا الإقليم فكانت مزونا(١) ، وفى ذلك أنشد شاعرهم قوله :

إن كسرى سمى عمان مزونا ومزون يا صاح خير بلاد
بلدة ذات مزرع ونخيل ومراع ومشرب غير صاد(٢)

أما حدود الإقليم فمن المتعذر تحديدها تحديدًا دقيقًا وخاصة أن المصادر الجغرافية لا تهتم كثيراً بتحديد الفواصل بين الأقاليم العربية ربما لكونها وطن واحد يسكنه شعب واحد(٣) إلى جانب تشابه التضاريس وعدم وجود حواجز طبيعية فاصلة يُميِّز كل إقليم ، ويتفق الجغرافيون على موقع عمان بشكل عام على بحر العرب من ناحية الجنوب وعلى الخليج العربى من جهة الشرق ، ومن الشمال تحدها البحرين ، ومن الغرب اليمامة وحضرموت(٤) ونتيجة لهذا اختلف الجغرافيون فى تحديد مساحة هذا الإقليم فقيل ثلاثمائة فرسخ(٥) ،

---

(١) السالمى ، تحفة الأعيان ، ١ / ٣١ ، العوتبى ، الأنساب ، ٢ / ٢٠٥ ، الموهوبى ، عمان قبل الإسلام ، ١٨ ، الأزكوى ، تاريخ عمان ٢٦ .

(٢) السالمى ، تحفة الأعيان ، ١ / ٧ . الأزكوى ، تاريخ عمان ، ٢٦ .

(٣) فاروق عمر ، الخليج العربى فى العصور الإسلامية ، ١٦ .

(٤) ابن خلدون ، ٤ / ١٩٨ ، المسرى ، تاريخ العلاقات السياسية والاقتصادية بين الطرق والخليج العربى ، ١١٦ .

(٥) أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ٩٩ ، الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ٢٧ ، السالمى ، تحفة الأعيان ، ١ / ٧ .

وقيل ثمانين فرسخاً فى مثلها(١) قد يرجع هـذا الاختـلاف فـى تقدير المسـاحة إلى نفوذ العمانيين عبر العصور فقد شهدت المنطقة اضطربـات قبل الإسـلام وبعده حاول العمانيون أن يبرزوا سلطتهم فيها .

لقد عدد الجغرافيون العرب مدن كثيرة فى عمان وركزوا على خيراتها مما يدل على أن هذا الإقليم إقليم جذب ، وفى ذلك يقول المقدسـى : " صحـار قصبة عمان ليس على بحر الصين اليوم بلد أجل منه عامر بأهلها حسن طيـب ، وهى بلدة طريفة ولهم آبار عذبة وهم فى سـعة مـن العيش ويعتبرون دهليز الصين وخزانة الشرق "(٢) فى حيـن أن الإدريسـى يصـف أهل صحـار أنهم أغنياء منذ القدم ، يقصدهم التجار فى كل سـنة يستوردون بضـائع مـن اليمـن وأرباحهم مرتفعة ، كما أنهـم علـى اتصـال بالسـند والهنـد والصيـن والزنـج ، ويصدرون التحف إلى فارس(٣) .

فالحياة الاقتصادية كانت مزدهرة بشكل عام فى عمان ، غنيـة بثروتها الزراعية كثيرة النخيل ومن أجود تمورها الغرض والبلعن والتحيـوت(٤) إلـى جـانب زراعـة الفواكـه كـالموز والرومـان والتيـن والسـفرجل والتفـاح(٥) ، فاشتهرت المنطقة بالخصب والذخائر المتنوعة والمعادن الجيدة كالنحاس حيث

---

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ٩٣ .

(٢) المرجع السابق ، ٩٣ .

(٣) الإدريسى ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ١ / ١٥٦ ، وانظـر الأصطخـرى ، ٢٧ السالمى ، تحفة الأعيان ١ / ٩ .

(٤) ابن الفقيه ، البلدان ، ٢٣٠ ، ابن خلدون ، ٤ / ١٩٨ .

(٥) نزهة المشتاق ، ١ / ١٥٥ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ٤٨ ، الأصطخرى ، ٢٧ السالمى ، تحفة الأعيان ١ / ٩ .

استعمل بدلاً من الآجر فى أرضية دكاكينهم(١) كما أنهم استخرجوا خيرات البحر حيث تمكنوا من مغاصات اللؤلؤ الجديد(٢) وبرعوا فى صيد الأسماك حتى قيل بأن ريف الدنيا من السمك ما بين ماهيرديان إلى عمان(٣) .

واستفادوا من غابات المناطق الجبلية فصدروا الأخشاب إلى أقاليم المدن العربية(٤) وبرعوا فى صناعة النسيج وكان للرسول ﷺ برد يمنى ، وإزاء من نسيج عمان كان يلبسها فى الجمعة ويوم العيد فقد كان نسيج عمان فاخرًا حتى أن الرسول ﷺ أهدى فروة بن مسبك حلة من نسيج عمان(٥) .

يمكن للباحث أن يتلمس الازدهار الاقتصادى وكثرة خيرات الأقاليم باتصالهم بالمدن المتحضرة من خلال هدية أرسلها عامل الخليفة المقتدر عام خمس وثلثمائة وفيها " من الكافور الرياضى عشرة أمناء ، وعود مرتفع قمارى عشرة أمناء ، راوند صينى عشرة أمناء ، وقطعة عود طولها عشر ذراعًا ووزنهاماية وستون منًا ، ومن الرماح المتوزة عشرة أرماح ، ومن الملمعة رمحان ، وطير بيضاء صينى أحمر وطير لم يجلب إلى ناحية العرب مثله وبط من ناحية الصين أسود بعرفين يتكلم بالهندية والفارسية ومن الظباء السود ظبيان(٦) .

---

(١) الألوسى ، بلوغ الأرب ، ٣ / ٣٨٧ ، السالمى ، تحفة الأعيان ١ / ٧ .
(٢) ابن خلدون ، ٤ / ١٩٨ ، ابن الوردى ، خريدة العجائب ، ٨٤ ، السالمى ، ١ / ٨ .
(٣) ابن الفقيه ، البلدان ، ١١٤ و ١٣٥ .
(٤) صالح العلى ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ، ٢٢١ .
(٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ١ / ٢٥٠ و ٣٢٧ .
(٦) مجهول ، العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ٤/ ٢٧٢ ، تحقيق نبيلة عبد المنعم .

ومما سبق يمكن القول بأن عمان إقليم جذب لكثرة خيراتها وموقعها فى طرف الجزيرة العربية إضافة إلى أن غالبية سكانها من تكتل قبلى واحد هو قبيلة الأزد قد صبغت الإقليم بميول كنفدرالية مع دولة الإسلام فى المدينة ، وبعد الفتنة أخذت تسعى نحو الاستقلال ، ويمكن رصد جذور هذه الظاهرة من خلال ما ورد فى كتابات الجغرافيين والمؤرخين فقد عبروا عن وضع عمان عبر العصور فالإدريسى فى وصفه لعمان يقول " بلاد عمان مستقلة بذاتها عامرة بأهلها "(١) ، وصاحب المسالك والممالك يقول : " وعمان مستقلة بأهلها "(٢) ، أما ابن خلدون فى حديثه عن عمان فيذكر : " عمان إقليم سلطانى منفرد على بحر فارس "(٣) .

والمتتبع لتاريخ عمان يجد النزعة الاستقلالية قد صاحبت الأزد منذ استقرارهم فى عمان مع رغبة جامحة للتعايش السلمى مع القوى المجاورة فقد كانت عمان تحت سيطرة الساسانيين زمن أردشير " ٢٢٣ ميلادية " واتخذ عامله " المرزبان " صحار مقرًا لحكمه ، فى حين أقام نفسه فى قرية مزون ، ولم يكن للعرب دورًا فى الإدارة والسياسة بل كانوا خاضعين للحكم الساسانى يعملون كملاحين فى ميناء شحر وحضرموت(٤) .

ويتفق المؤرخون بأن أول عربى أدار دفة الحكم فى عمان هو مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان الأزدى ، فقد كان رجلا جليلا فى قومه خرج

---

(١) الإدريسى ، نزهة المشتاق ، ١ / ٥٥ .

(٢) الأصطخرى ، المسالك والممالك ، ٢٧ .

(٣) ابن خلدون ، ٤ / ١٩٨ .

(٤) أندرو ويليامسون ، صحار عبر التاريخ، ١٥ - جواد على المفصل فى تاريخ العرب، ٤ / ٢٠٢ .

مع جماعته من شتراة اليمن(١) مغاضبًا لأهلـه وباقترابـه مـن عمـان(٢) كـاتب المرزبان عامل الملك دارا بن دارا بن بهمن " .... " فى صلح جوار فلم يستجب له بل أمره بالرحيل مع قومه عن المنطقة فلم يصغ مالك لأوامـره وانتهى الأمر باشتباك الطرفين فكـان النصـر حليـف مـالك بـن فهـم وجماعتـه فاضطر المرزبان عرض الهدنة ودفع الجزية لمالك الذى استجاب له دون أن يعلم بأنها مكيدة لضعف الفرس آنذاك فقد طلـب المرزبـان العـون مـن الملـك دارًا فبعث جيشًا آخر لاعادة سيطرتهم على الإقليم إلا أن هذه المحاولة بـاءت بالفشل فكان هذا أول استقرار عربى بسط نفوذه على المنطقة(٣) .

وفى ظل ذلك استطاع مالك بن فهم من بسط سيطرته علـى عمـان بـل امتدت ليمد نفوذه حتى أطراف الطرق ، ودانت لـه القبـائل العربيـة ، وتقـرب بالمصاهرة إلى أكثر المنافسين له مالك بن زهير الأزد فى النفوذ فـتزوج ابنـة الخزام فضمن وقوفه إلى جانبه ليستمر فى حكـم عمـان نحـو سـبعين سنة لـم يتمكن أن ينازعه فى ملكه عربى ولا أعجمى(٤) .

كـانت نهايـة مـالك علـى يـد ابنـه خطـأ حين رمـاه بسـهم فـى منتصـف الليـل(٥) فخلفـه ابنـه هنـاة الـذى كـان يتمتـع بخصـال طيبـة فأحسـن

(١) المشتراة : بلاد الأزد فى اليمن وهـى بيـن حضرمـوت وصنعـاء ، ياقوت الحمـوى ، معجم البلدان ، ٥ / ٥٩ ، ٧ / ٣٥٤ .

(٢) اليعقوبى ، ١ / ٢٠٤ ، الأزدى ، تاريخ الموصل ، ٩٦ . السـالمى ، تحفـة الأعيـان ، ١ / ٢٠ . جواد على ، المفصل ، ٤ / ٢٠٢ .

(٣) العوتبى ، الأنساب ٢ / ٢٦٧ - ٢٦٩ . السالمى ، تحفة الأعيان ، ١ / ٢٢ - ٣٠ .

(٤) السالمى ، تحفة ، ١ / ٣٣ ، ٣٧ .

(٥) تاريخ الموصل ، ١٠٠، العوتبى ، الأنساب ، ٢ / ٢٠٨ ، السالمى ، ١ / ٣٧ .

السيرة(١) ولكن من خلفه من أبنائه لم يكن بكفاءته ، وأجمعت القبائل الأزدية(٢) مع نقل الزعماء لشيوخ المعاول(٣) ، فكان أول ملوكهم عبد عز بن معولة بن شمس الأزد الملقب بالجلندى(٤) . ونتيجة للدعم الداخلي تمكن الجلندى من بسط نفوذه حتى اليمامة والبحرين وفرض عليهم إتاوة ، فكان عامله يتشدد في قبضها كل عام(٥) .

وبمرور الزمن لم يتمكن آل الجلندى من أحكام سيطرتهم على جميع مناطق نفوذهم في عمان ، فقد كان الساسانيون يتطلعون للسيطرة على المناطق الاستراتيجية وتمكنوا في عهد كسرى أنو شروان " .... " أن يعيدوا نفوذهم فاحتفظوا بإدارة السواحل ولأهمية المنطقة ترك كسرى قوة عسكرية فيها يتلقون التعليمات منه مباشرة ، وترك للجلندى حكم المناطق العربية فكانوا يسيرون فيها بسيرة الملوك ويعشرونهم ، إلا أن سلطتهم لم تكن مطلقة فكان على الجلندى استشارة نائب كسرى في كل أمر(٦) .

إسلام أهل عمان :

بعد فشل قريش وحلفائهم في غزوة الأحزاب اتبع الرسول ﷺ سياسة الردع والتحدي للقوى المعارضة للمسلمين ، ونتيجة لهذه السياسة توصل ﷺ

---

(١) العوتبي ، ٢ / ٢٢٢ ، السالمي ، ١ / ٤١ .
(٢) جعل بعض النسابة الأزد ستا وعشرين قبيلة ، جواد علي ، ٤ / ٤٤١ .
(٣) ولكنس ، بنو الجلندى في عمان ، ٨ – ٩ .
(٤) الجلندى : لقب لكل من ملك عمان ، جواد علي ، ٤٤١/٤ ، ويقاس بمنصب الأصبهذ العربي في البحرين وبالابناء في جنوب جزيرة العرب ولكنس ، ١١ .
(٥) العوتبي ، ٢ / ٢٤٦ ، السالمي ، ١ / ٥١ .
(٦) ابن حبيب ، المحبر ، ٣٦٥ ، السالمي ، ٤٧ ، العوتبي ، ٢ / ٢٥٩ ، الأزكوي ، وتاريخ عمان ، ٣٣ ولكنس ، ١٠ – ١١ .

إلى عقد صلح الحديبية فتمكن الرسول من نشر الدين الحنيف وبدأ بإرسال الكتب والرسل إلى مختلف أنحاء الجزيرة ومنها منطقة عمان .

لقد تعددت روايات المؤرخين حول إسلام هذه المنطقة فالروايات العمانية تبين بأن مازن بن غضوبة وهو من أهل سمائل أول من دخل الإسلام على يد الرسول ﷺ ، وكان مازن شأن فى قومه حيث تولى سدانة إلـه ناجر معبود طئ(١) .

أما كتب الرسول ﷺ إلى عمان فالروايات توضح بأنه ﷺ قد بعث بعدة كتب إلى أهل عمان(٢) وتذكر الروايات العمانية نص كتاب الرسول ﷺ موجه إلى عامة عمان قوله : " من محمد رسول الله إلى أهل عمان ، أما بعد ، أقروا بشهادة لا اله إلا الله وأنى محمدًا رسول الله . وأقيموا الصلاة وأدوا الزكاة وعمروا المساجد وإلا غزوتكم(٣) .

فكانت هذه الرسالة دعوة عامة إلى الإسلام ، وإنذار بغزوهم فى حالة الرفض ، وحسب الروايات يمكن أن نرجع تاريخ هذا الكتاب إلى العام السادس من الهجرة بعد صلح الحديبية ، فقد روى ابن الخياط والبلاذرى(٤)

---

(١) الأزكوى ، تاريخ عمان ، ٣٥ . مجهول ، قصص إخبار ، ٣٦ ، السالمى ، تحفة ، ٥٣/١.

(٢) كتاب للرسول ﷺ موجه إلى ملوك عمان دون تسمية ، ابن سلام ، الأموال ، ٢٥ . وكتاب آخر موجه إلى أهل دما وهى قرية من قرى عمان ، وكتاب آخر لسكان منطقة الأسياف ، والأجواف بالقرب من صحار ، حميد الله ، ٧٠ - ٧١ .

(٣) الأزكوى ، ٣٧ ، مجهول ، تاريخ أهل عمان ٤٠ .

(٤) تاريخ ابن الخياط ، ٩٧ - البلاذرى ، فتوح ، ٨٤ .

بأن الرسول ﷺ قد بعث أبا زيد الأنصارى الخزرجى(١) إلى عمان فى العام السادس ، وتستبعد تتمة الرواية فيما يتعلق بأخذ الجزية من مجوس عمان ، لأن الجزية قد فرضت فى السنة التاسعة فى تبوك بعد أن أسلمت جزيرة العرب(٢) ، كما تستبعد أن يكون عمرو بن العاص سفيرًا للرسول ﷺ فى هذه الفترة لأنه اسلم فى صفر من السنة الثامنة من الهجرة(٣) .

أما الكتاب الثانى فهناك شبه إجماع بين المؤرخين بأن الرسل ﷺ قد بعث عمرو بن العاص فى العام الثامن من الهجرة(٤) ونص كتاب الرسول ﷺ الذى حمله عمرو إلى السلطة فى عمان(٥) :

" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فأنى أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما فإنى رسول الله إلى الناس كافة لانذر من كان حيًا ويحقّ القول على الكافرين ، وأنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وأن أبيتما أن

---

(١) أبو زيد : قيل اسمه قيس بن سكن بن زيد بن حزام ، وقيل عمرو بن أحطب جد عروة بن ثابت ، وقيل ثابت بن زيد ، البلاذرى ، فتوح ، ٨٣ ، قدامة ، الخراج وصناعة الكتابة ، ٢٧٦ .

(٢) ابن الجوزية ، أهل الذمة ، ١ / ٦ .

(٣) الذهبى ، تاريخ الإسلام ، ٢ / ٢٣٦ ، البلاذرى ، فتوح ، ٨٨ .

(٤) الطبرى ، ٣ / ٢٩ ، ابن الأثير ، ٢ / ٢٣٢ ، البلاذرى ، فتوح ، ٨٣ - ٨٤ ، وبرواية أخرى يذكر الطبرى بأن الرسول ﷺ قد بعث عمرو بن العاص عام ١١هـ بعد حجة الوداع، الطبرى ٣/٢٥٨ ، ويتفق معه المسعودى، التنبيه والأشراف ، ٢٤٠.

(٥) ابن سيد الناس ، عيون الأثر ، ٢ /٣٤٠ ، محمد حميد الله ، الوثائق السياسية ، ٦٩، السالمى ، ١ / ٥٧ ، مجهول ، قصص ، ٤٠ .

تقرا بالإسلام ، فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلى تطأ ساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما " .

نستخلص من هذه الرسالة الكريمة بأن الكتاب موجه إلى جيفر وعبد أبنى الجلندى دون ذكر صفتهما السياسية وأن الرسول ﷺ قدم الترغيب للدخول فى الإسلام موضحًا المكاسب السياسية لهما بالولاية ثم أردف التهديد موضحًا سلبيات الرفض بزوال ملكهما وفرض الإسلام بالقوة. واللافت للنظر أن الرسول ﷺ لم يصرح فى كتابه شكل الولاية ولكن الصحابة فيما بعد فسروا ذلك بأنها ولاية وراثية فلم يقدم الخلفاء الراشدون على تغير السلطة الحاكمة فى عمان فتوارث أنباء جعفر وعبدالحكم حتى بداية عهد الأمويين .

لم يتلق عمرو بن العاص ردًا سريعًا على كتاب الرسول ﷺ فبعد استقباله أخذ جيفر يستشير وجوه قومه فأكدوا له نبوة الرسول فدخل الإسلام ، وتذكر الروايات العمانية أن جيفر بعث إلى نواحى عمان يدعوهم إلى الإسلام فبعث إلى مهرة والشحر ودبا فاسلموا والزمهم الصدقة وأمر عمرو بن العاص بقبضها فى حين امتنع الفرس من الدخول فى الإسلام(١) فطالب المسلمون جيفر بصفته حاكمًا مسلمًا إخراج الفرس ، من عمان أن أصروا على دينهم فخيرهم جيفر وبعد رفضهم الإسلام قاتلهم وطردهم دون متاعهم من عمان(٢) .

---

(١) السالمى ، تحفة ، ١ / ٥٨ - ٥٩ ، مجهول قصص وأخبار ، ٤٠ - ٤١ ، العوتبى ، الأنساب ، ٢ / ٢٦١ .

(٢) السالمى ١/ ٥٩ ، العوتبى ، الأنساب ، ٢ / ٢٦١ - ٢٦٢ . مجهول ، تاريخ أهل عمان ، ٤٢ .

ولم تذكر المصادر دورًا لعمرو بن العاص في إخراج الفرس من عمان لا في المشورة ولا في القيادة العسكرية ، فقد مكث عمرو بن العاص في عمان حتى وفاة الرسول ﷺ واختلفت الروايات في مهمته . فاليعقوبي يقول : في ذكر عمال الرسول ﷺ : " على عمان عباد وجيفر ابنا الجلندى ، وقال بعضهم عمرو بن العاص "(١) ، أما ابن سعد فإنه يزيل الغموض في روايته عن عمرو بن العاص قوله : " ... وصدقا بالنبي ﷺ ، وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لي عونا على من خالفني ، فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددتها في فقرائهم "(٢) إذا تولى عمرو الجانب المالي للزكاة في حين ترك الحكم والإدارة بيد جيفر وعبد وهذا ما يؤكده ابن الأثير بأن عمرو كان مصدقًا فكان يأخذها من أغنيائهم ويردها على الفقراء(٣).

أما الروايات العمانية فإنها تشير إلى أن جيفر ضمن الحكم مسبقًا وذلك في حديث جرى بين عمرو وعبد الجلندى حيث أكد عمرو السلطة الذاتية لهم بقوله : " إنه أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه "(٤) . ويمكن القول بأن سيادتهما على عمان كانت مطلقة فلم يكن لعمرو بن العاص سلطة سوى الإرشاد الديني دون التدخل في شؤون الإدارة المدنية ويؤكد هذا الاتجاه ابن حبيب بقوله : (بعد إسلام جيفر وعبد فإنهما غلبا على عمان)(٥) .

---

(١) اليعقوبي ، ٢ / ١٢٢ . William Muir, it's Rise, Decline, and fall, Darf Publ. LTD, London, 1948. P. 35.

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ١ / ٢٦٣ .

(٣) ابن الأثير ٢ / ٢٧٢ وينفرد ابن الآبار برواية مفادها أن عمرو بن العاص كان أميرًا على عمان ، الحلة السيراء ، ١ / ١٣ .

(٤) السالمي ، تحفة ١/ ٦١ .

(٥) ابن حبيب ، المحبر ٧٧ .

بعد وفاة الرسول ﷺ رجع عمرو إلى المدينة فصحبه سبعون راكبًا من بينهم عبد بن الجلندى ، وحينما دخلوا على الخليفة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وصف متحدثهم بأن عمرو كان أمانة فى أيديهم ولم ينعته بصفة سياسية أو إدارية(١) أما الخليفة فقد استقبلهم بكل ترحاب ، مؤكدًا اطمئنانه على انفرادهم بالسلطة المحلية بقوله : " ولست أخاف عليكم أن تغلبوا على بلادكم "(٢) .

كما أن الروايات العمانية تشير إلى أن الخليفة قد كتب كتابًا أقر فيه جيفر وأخاه على الحكم وجعل لهما أخذ الصدقات من أهلها وحملها إليه(٣) فتمتع جيفر وعبد بالحكم الذاتى فى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وخلفهما عبادين عبد الجلندى فى خلافة عثمان وعلى رضى الله عنهما ، تستثنى فترة الاضطرابات وردة أهل دبا(٤) فقد تزعمهم لقيط بن مالك ذو التاج ، فانتدب الخليفة أبى بكر الصديق رضى الله عنه حذيفة بن محصن ودعم عسكره بعكرمة بن أبى جهل المخزومى فقضى على حركته بعد مقتله

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٤ / ٣٢٩ ، الأزكوى ٣٩ ، السالمى ، ١ / ٦٢ .
(٢) السالمى ١ / ٦٣ ، مجهول ، قصص ، ٤٤ ، الأزكوى ، ٣٩ .
(٣) الأزكوى ، ٤٠ ، السالمى . ١ / ٦٧ . مجهول ، تاريخ أهل عمان ، ٤٥ ، الحارثى ، العقود النصية فى أصول الأباضية ، ٣١ .
(٤) ويشير ابن حجر بأن أهل دبا لم يدخلوا الإسلام ، وأن سبب تواجد حذيفة فى عمان الأحبار أهل دبا على الإسلام ، الإصابة فى معرفة الصحابة ، ١٠ / ٣١٧ . وانظر ابن أعثم ، الفتوح ، ١ / ٦٠ .
Miles, S.B.,The Countries and Tirbes of the persian Gulf, Frank, Rassl Co., Ltd London, 1966, P. 36.

بصحار ومكث حذيفة فى عمان حتى وفاة الخليفة(١) ولذا ذكره بعض المؤرخين من جملة ولاة عمان(٢) دون الأخذ بعين الاعتبار مهمته العسكرية، وأما الطبرى فإنه يعلل سبب بقاء حذيفة فى المنطقة بعد انتهاء الردة بقوله : " لكى يوطئ الأمور ويسكن الناس " وخاصة بأن لقيط ذو التاج قد سيطر على مناطق شاسعة حتى الجأ جيفر وأخاه إلى الجبال(٣) .

وخلاصة القول القول بأن مهمة حذيفة كانت محددة فلم يكن عاملا ولم تسحب الثقة من جيفر وعبد ، بل أن مشكلة دبا والمرتدين ثبتت مكانة الحكم الذاتى فقد أمر الخليفة أبو بكر الصديق قادة الجيش حذيفة وعرفجة البارقى أن يأخذا الأوامر والتعليمات من جيفر وعبد(٤) فهما أعلم بأمور منطقتهم وجغرافيتها إلى جانب إمارتهما على البلاد .

مكث حذيفة فى عمان حتى عام ١٧هـ(٥) كقائد عسكرى بعمل لنشر

---

(١) اليعقوبى ، ٢ /١٣١ ، وقيل لقب الخليفة حذيفة وعكرمة ، البلاذرى ، فتوح ، ٨٤ – ابن سعد ، الطبقات ، ٧ / ١٠١ ، ابن قتيبة ، المعارف ، ٣٩٩ . أما الروايات العمانية تنكر الردة ونرجع القضية إلى سوء فهم بن حذيفة ابن محصن عامل الصدقة والأهالى فى تحديد مقدار الصدقة ، العوتبى ، ٢/ ٢٤٠ .

(٢) تاريخ ابن الخياط ، ١٢٣ ، اليعقوبى ٢ / ١٣٨ ، ابن حجر ، الإصابة ، ١ / ٣١٧ ، ابن الأثير، أسد الغابة ، ١ / ٤٦٧ . قدامة ، الخراج ، ٢٧٧ .

(٣) الطبرى ، ٣ / ٣١٤ ، ٣١٦ ، وانظر ابن الأثير ، ٢ / ٣٧٣ .

(٤) المرجع السابق .. William, the Caliphate, pp 35-36

(٥) الطبرى ، ٣ / ٤٧٩ و ٦٢٣ ، ٤ / ٣٩ و ٩٤ ، اليعقوبى ، ٢ / ١٣٨ ابن الأثير ، ٢/٤٤٩ و ٤٨٩ و ٥٠٨ و ٥٥٤ ، ويذكر اليعقوبى بأن أبا هريرة كان عاملاً على عمان ٢ / ١٦١ ، ويذكر ابن الخياط رجلاً يدعى بلال من الأنصار أيضًا ، تاريخ ابن الخياط ، ١٥٤ .

الدين فالسالمى يبين آثاره فى قتال الفرس(١) وكان انضمام عامل البحرين عثمان بن العاص عام ١٥هـ من أجل دعم موقفه عسكريًا بعمان ، وبقى جيفر آمرًا سيدًا للموقف بتوجيهات من الخليفة عمر رضى الله عنه(٢) وبعد انتهاء مهمة عثمان بن العاص قطع البحر لمواجهة الفرس فقتل قائدهم سهرك وافتتح توج ليستقر بعد انتهاء مهمته فى البصرة(٣) .

وفى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ٢٤ - ٣٥هـ ، ولم يذكر المؤرخون أن الحكومة المركزية فى المدينة قد أرسلت عمالاً إلى عمان وهذا يعنى بأن الخليفة قد اتبع سياسة الشيخين واكتفى بإدارة الحكم المحلى فكان عباد بن عبد الجلندى حاكمًا على عمان . وشهدت المنطقة فى هذه الفترة استقرارًا فلم يكن للقبائل العربية فى عمان دور فى الفتنة التى اندلعت فى أواخر خلافة عثمان بن عفان(٤) رضى الله عنه .

وفى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه ظلت هادئة فترة من الزمن ليطفح على سطح المنطقة أمرًا ما وأميل أن يكون الأمر متعلقًا بالصدقة فعين أزدياهو الحلو بن عوف الأزدى عاملاً (مصدقًا) على عمان ولم يواجه بشئ من الرفض إلا بعد عام ٣٨هـ وخروج الخوارج على الإمام على الذى واجههم بشدة ففر الخريت بن راشد الناجى من الكوفة واستقر فى

(١) السالمى، ٦٧/١ .Miles S.B., the Countries and Tribes of the Persian Gulf, P. 36

(٢) العوتبى ، الإنسان ، ٢ / ١٢٢ ، ابن قتيبة ، المعارف ٢٨٦ . .Abid, P. 44

(٣) ابن قتيبة ، المعارف ٢٦٩ ، السالمى ١ / ٦٧ - ٦٨ ، ياقوت معجم ٢/ ٥٦ العوتبى ٣٢٤٢ - ٣٢٥ .

(٤) خليفات ، نشأة الحركة الأباضية ، ٥٨ .

عمان بعد أن شد أزره بقبيلته وقبيلة عبد القيس وأنضم إليه جماعة مـن الذيـن ارتدوا إلى نصرانيتهم وقتلوا الحلو بن عوف وسيطروا على المنطقـة ، إلا أن سيطرتهم لم تدم طويلاً فقد بعث الخليفة قائد شرطة معقل بـن قيـس الريـاحى إلـى عمـان فتمكـن مـن القضـاء علـى الخـوارج وقتـل الخريـت وسـبى مـانعى الجزية من النصارى والزمهم دفع الصدقة بعد انقطاعهم حولين(١) .

لم تشر المصادر التـى اطلعـت عليهـا تعييـن عـامل آخـر وخاصـة بـأن معقل الرياحى بعد الانتهاء من هذه المهمة قفل عائدًا إلى العراق ، ويظهر بإن الإمـام علـى قـد سـلم عبـاد بـن عبـد الجلنـدى السـلطة الذاتيـة وظلـت المنطقـة محتفظة بهذه السمة حتى اغتيال الخليفة على بن أبى طالب فى رمضـان عـام ٤٠هـ ، فتأثرت عمان بشكل مباشر بالفتنة فالسلطة الذاتية منـذ عهـد الرسـول كانت تستمد قوتها من خليفة المسلمين ، أما فى هذه الفترة الحرجة فأن القبـائل العمانية ازدادت تطلعاتها لفك ولاتها عن سلطة الجلندى(٢) .

الحكم الذاتى وموقف بنى أمية :

شهدت الخلافة الراشدة اضطرابات شديدة فى أواخرها أدت إلى ظهـور أحزاب سياسية ، وكان الخوارج أكثر الأحزاب نشـاطًا ومـع اتفـاقهم علـى أن الخلافة حق لكل مسلم دون التقيد بالقرشية إلا أنهم لم يكونـوا وحـدة مترابطـة إذ أن جماعة منهم نأت بنفسها عن القتال وحمل السـلاح عرفـوا بـالقعدة ومـن هـذه الفرقـة تبلـورت فرقـة الأباضيـة التـى تنسـب إلـى عبـد اللـه بــن أبــاض

(١) الطبرى ، ١٢٤/٥ - ١٢٩ ، اليعقوبى ، ١٩٥/٢ ، ابن الأثير ، ٣٦٨/٣ - ٣٦٩ .
(٢) فاروق عمر ، الخليج ، ٤٤ - ٤٥ .

فعارضوا الخلافة الوراثية فى بنى أمية سلبيًا دون أن يأخذوا أفكار الخوارج المتطرفة .

ولا تسعفنا المصادر بمعلومات تميط اللثام بشكل أكبر عن انتشار أفكار عبد الله بن أباض خارج العراق وخاصة عمان إلا أن المؤرخين يرجعون ذلك إلى عام ٧٥هـ ، ولاية الحجاج بن يوسف على العراق فقد واجه جماعة القعدة فسجن فى بداية ولايته عمران بن حطان الذى كان آنذاك أحد زعماء القعدة فى البصرة والمناظر بأسمهم وبعد إطلاق سراحه تنقل عمران بين القبائل انتهى به المطاف فى عمان فوجدهم يعظمون أبا بلال مرداس ابن آدية ويعتنقون أفكاره فأظهر أمره بينهم وبقى حتى وفاته . فالأفكار المعتدلة التى كان ينادى بها العقدة رواد الأباضية الأوائل تسربت فى عمان ولاقت استحسان ، الأزد فيها(١) .

كان أول خلفاء بنى أمية معاوية بن أبى سفيان ٤١ - ٦٠هـ ، عمل جاهدًا على جمع وحدة المسلمين وكسب ولائهم واتبع اللامركزية الإدارية حتى يتمكن من شل قوى المعارضة وكان زياد بن أبيه واليًا على العراق وضم إليه إدارة ساحل الخليج العربى بالإضافة إلى عمان(٢) التى أصبحت قبله الخوارج الفارين من وجه الخلافة منذ خلافة الإمام على ، فالمنطقة بها مقومان الدولة وأكثر أمنًا فأرسل نجدة بن عامر الحنفى عام ٦٩هـ عطية بن الأسود الحنفى إلى عمان فسيطر عليها بعد تغلبه رموز السلطة الذاتية المتمثلة آنذاك فى عباد بن عبد الجلندى وأبنائه ، وعين رجلاً من الخوارج يكنى أبا

(١) عوض خليفات ، نشأة الحركة الأباضية ، ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) الطبرى ، ٥ / ٢١٧ . ابن الأثير ، ٣/ ٤٤٧ .

القاسم واليًا على عمان ، ولكم سرعان ما تمكن سعيد وسليمان من عباد الجلندى من استرجاع سلطتهم وطرد الخوارج من المنطقة وبقى الأخوان فى السلطة دون فرض تدخل من دمشق حتى خلافة عبد الملك بن مروان(١) .

ومن جهة أخرى رغب عبد الله بن الزبير المرشح القوى بعد وفاة معاوية بن أبى سفيان بسط سيطرته فى الجزيرة ومنها عمان ووجه عماله إليها(٢) ولا يمكن أن نقدر مدى نفوذ ابن الزبير على عمان ولكن من الملاحظ أن والى ابن الزبير عبد الله بن الحارث بن نوفل على البصرة بعد عزله استقر به المقام فى عمان حتى وفاته(٣) .

فقد كانت عمان محط أنظار الكثير من المخالفين للأمويين وخاصة الخوارج لبعدها عن دمشق وكثرة خيراتها ووجود سلطة ضعيفة نسبيًا ، ففى خلافة عبد الملك بن مروان وولاية الحجاج على العراق تمرد عبد الله بن الجارود وفر قائد ميسرته عبيد الله بن زياد بن ظبيان إلى عمان وأدرك سعيد ابن عباد الجلندى سوء نيته فتخلص منه قبل أن يستفحل أمره(٤) لا حبا فى مساندة حكم دمشق بقدر الحفاظ على استقلالهم .

قد تكون هذه الواقعة ، قد لفتت نظر الخلافة الأموية إلى وضع عمان وانفرادهم بالسلطة وتزامن هذا مع رغبة عبد الملك بن مروان لبسط سلطته

(١) يرجع اليعقوبى سيطرة عطية بن الأسود على عمان إلى عام ٩٥ هـ ، اليعقوبى ، ٢ / ٢٧٣ ، ابن الأثير ، ٤ / ٢٠١ ، ٢٠٣ ، السالمى ، تحفة ١ / ٧٤ ، الأزكوى ، ٤٠ ، الفتح المبين ، ٢١٣ .

(٢) الدينورى ، الأخبار الطوال ، ٢٨٧ .

(٣) ابن سعد ، الطبقات ، ٧ / ١٠٠ . ابن قتيبة ، المعارف ، ١٢٧ .

(٤) ابن الأثير ، ٤ / ٣٨٥ .

على جميع المناطق ومن جملتها عمان فأوعز إلى الحجاج بإخضاعها ولكن محاولاته لم تثمر فقد تمسك سليمان وسعيد الجلندى بسلطتهم وقاوموا كل قوة أرسلت لإجبارهم فكانت هذه بوادر الاستقلال التام كمطلب عام(١) للعمانيين.

فالروايات العمانية تشير بأن الحجاج قد أرسل حملة برية وأخرى بحرية بقيادة القاسم بن شعوة المزنى ، فشلت هذه ذريعًا وقتل قائدها ، وأدرك الحجاج مدى قوة أزد عمان وتماسكهم ، فأعد جيشًا بقيادة مجاعة بن شعوة المزنى ومنع الأزد من الاشتراك فيها فقد أدرك مدى ولائهم لأزد عمان وكان لهم دور فى إخفاق الحملة الأولى فقد كانوا بمثابة عيون للعمانيين فى البصرة ينقلون إليهم أخبار استعدادات الحجاج ضد أزد عمان ، بلغت هذه القوة البرية والبحرية أربعين ألفا معظمهم من النزاريين حققت الحملة أهدافها رغم خسائرها واضطر سعيد وسليمان اللجوء إلى الساحل الأفريقى " بلاد الزنج " وأصبحت عمان مرتبطة بولاية العراق وولى الحجاج عليها الخيار من سبرة المجاشعى أحد فرسان يزيد من المهلب(٢) .

بقيت عمان تابعة إداريًا بشكل مباشر للعراق وتتابع الولاة عليها ، ففى خلافة الوليد بن عبد الملك كان يزيد بن سيف الهانى الهمدانى عاملاً

---

(١) الفتح المبين ، ٢١٣ . Willson the Persian Gulf, p. 80.

(٢) الطبرى ، ٣٩٤/٦ . الأزكوى ، ٤٠ – ٤٢ ، الفتح المبين ، ٢١٣ – ٢١٦ . قصص وأخبار ، ٤٥ – ٥٦ . ابن خلكان ، ٢٨٩/٦ ، السالمى ، ٧٥/١و٧٧ . العوتبى ، الأنساب ، ١٤٧/٢.

Miles, S.B., The Countries and Tribes of the Persion Gulf, pp 50 -55

ويذكر ابن حبيب بأن القائد القاسم بن سعر السعدى ، وإن أخاه مجاعة حينما دخل عمان وجد أخاه مصلوبًا فأراد أصحابه إنزاله فأبى وعاث فيهم وبعد انتصاره أنزله ودفنه ، ابن حبيب ، المحبر ، ٤٨٤ Abid, pp. 55-56

أنيطت به مهمة استيفاء الصدقات(١) .

أما سليمان بن عبد الملك فقد بدأ خلافته بعزل ولاة أخيه ، واتبع هذه السياسة فى عمان فعزل عمالها وعين عبد الرحمن بن قيس الليثى ، ويبدو أنه لم يكن كفؤًا فى إدارته فأعاد العمال السابقين وجعل عبد الرحمن الليثى مشرفًا عليهم لإخلاصه لبنى أمية ، ولم تدم إدارة هؤلاء على عمان ، ففى السنة ذاتها ٩٦هـ عين يزيد بن المهلب الأد على العراق فولى يزيد أخاه زياد بن المهلب على عمان ، واستمر فى ولايته حتى وفاة سليمان(٢) وتشدد زايد فى ولايته مع من سبقه فى إدارة عمان فأمر بصلب الخيار المجاشعى لأنه أضر بمصالح الأزد وخالف يزيد بن المهلب(٣) ، ويبدو أن الخيار كان مقيمًا فى عمان مع ولاته لبنى أمية .

انتعش العمانيون وقابلوا زياد بارتياح فقد وجدوا فيه ضالتهم فهو أزدى وكأنهم استعادوا سلطتهم مرة ثانية ، ومن جانب آخر حسنت إدارة زياد ، فالروايات العمانية تعبر عن ذلك بقولها (فأحسن السيرة) إلا أن زيادًا لم يستمر فى ولايته فى خلافة عمر بن عبد العزيز الذى كان متابعًا بنفسه لأعمال عمال الأقاليم للإدارة ، فخلافته اتسمت بالعدل ورفع جور الولاة فى الأقاليم وتذكر الروايات بأن العمانيين رفعوا مظلمتهم لعمر بن عبد العزيز بعد أن جار واليهم الذى عينه عدى بن أرطاه الفزارى والى العراق ، واستجاب الخليفة لهم فولى عمرو بن عبد الله بن صبيحة الأنصارى واليًا

(١) العوتبى ، الأنساب ، ١٤٧/٢ ، الأزكوى ، ٤٢ - السالمى ، ٧٧/١ . الفتح المبين ، ٢١٦.

(٢) الطبرى ، ٥٠٦/٦ ، الأزكوى ، ٤٢ ، قصص وأخبار ، ٤٧ ، الفتح المبين ، ٣١٦ ، السالمى ، ٧٧/١ ، العوتبى ، الأنساب ، ١٤٧/٢ .

(٣) ابن حبيب ، المحبر ، ٤٨٢ .

ومستوفيًا للصدقات على عمان ، فأحسن السيرة بفضل توجيهات الخليفة المتابع لإدارته وحين علم أنه يرسل الصدقة إلى البصرة قومه وأمر الخليفة رد هذه الأموال وتوزيعها على فقراء عمان(١) .

توضح الروايات العمانية بقاء عمرو الأنصارى واليًا على عمان حتى وفاة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عام ١٠١ هـ بعدها أعتزل الولاية من تلقاء نفسه لزياد بن المهلب مدعيًا بأنه أقدر على إدارة قومه ، فقام زياد بشؤون عمان حتى خلافة العباسيين(٢) . ولا يمكن أن نأخذ بظاهر الرواية العمانية ونميل بالقول بأن عمرو الأنصارى قد أجبر على التنازل وخاصة بعد تمرد يزيد بن المهلب على خلافة يزيد بن عبد الملك واستيلاء المهلب على البصرة ، وبعد امتداد نفوذه إلى مناطق أخرى بعث عماله إلى الأهواز وفارس وكرمان ومكران والسند والهند(٣) فكان من الطبيعى أن يضم عمان لسلطنته فتولى زياد أمر عمان بعد أن فقد الأنصارى دعم حكومة البصرة له.

أن قلة المعلومات بشأن ولاية زياد بن المهلب الثانية تحجب عنا نشاط الأباضية فى هذه الفترة ، ويمكن أن نعتبر ولاية زياد هذه بداية لدعم الحكم الذاتى فى عمان وخاصة بأن المصادر لم تبين مدى اهتمام خلفاء بنى أمية بعمان ومدى سلطتهم عليها وشرعية ولاية زياد فى خلافة يزيد بن عبدالملك.

---

(١) البلاذرى ، فتوح ، ٨٥ ، العوتبى ، ١٤٧/٢ ، السالمى ، ٧٧/١ ، الفتح المبين ٢٢١. الأزكوى ، ٤٣

(٢) العوتبى ، ١٤٧/٢ ، السالمى ، ٧٧/١ - ٧٨ - الأزكوى ٤٤ .

(٣) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ٢٧٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٧٥/٥ ابن أعثم ، الفتوح ، ٢٤٦/٤ ، ويذكر Miles ، أن يزيد بن المهلب قد استدعى عمرو الأنصارى وعين أخاه زياد أميرًا على عمان دون أن يبين مصدر هذه الرواية .Miles, Abid, p. 56

فهذه الفترة مرحلة انتعاش للأباضيين ويمكن القول دون سند زياد بأن زيادًا كان كمعظم الأزديين أباضيًا قد اتبع التقية فلم يزل الأباضيون فى وضع لا يتمكنون من الإعلان عن أنفسهم وطموحاتهم ، مع أن الروايات العمانية تجمع على تولى زياد بن المهلب أمر عمان منذ عام ١٠١ هـ حتى قيام الخلافة العباسية إلا أنهم لم يذكروا منجزاته وأسلوبه إدارته وما صادفه من المعوقات فى هذه الفترة الطويلة عدا ذكر استقباله أسرة يزيد بن المهلب المنكوبة واحتضانه لهم فترة من الزمن قبل رحيلهم إلى مكران وعلى رأسهم آنذاك المفضل بن المهلب(١) .

إعلان المذهب الأباضى :

بويع أبو العباس عبد الله السفاح بالخلافة فى ربيع الأول عام ١٣٢ هـ وفى شعبان انتدب أخاه جعفر المنصور لإنهاء الجيب الأموى فى واسط حيث اعتصم ابن هبيرة فنزل المنصور البصرة(٢) كقائد للجيش العباسى فى حين تعاقب على ولاية البصرة عدد من الولاة فى فترة قصيرة ما بين إعلان الخلافة حتى عام ١٣٣ هـ تولى ثلاث ولاة هم سفيان بن معاوية بن زيد بن المهلب ، ثم خلفه عمر بن حفص هزار مرد وبعد عزله تولى سليمان بن على بن عبد الله بن العباس(٣) وكانت عمان تابعة للبصرة من الناحية الإدارية ، وأول عامل يولى عمان فى ظل الخلافة العباسية هو جناح بن قيس بن عبادة

---

(١) العوتبى ، الأنساب ، ٢ / ١٥٦ .

(٢) تاريخ ابن الخياط . ٤٠١ .

(٣) تاريخ ابن الخياط . ٤١٢ ، الطبرى ٤٥٩/٧ ، ٤٦٥ ، ابن الأثير ، ٤٤٨/٥ ، ٤٥٤ .

الهنائى ، إلا أن ولايته لم تستمر طويلاً فعين ابنه محمد بن جناح الهنائى ، ويبدو أن الأخير اتبع سياسة والده فى مداهنة الأباضية مذهب غالبية الأزد فجمعت كلمتهم وعقدوا الإمامة للجلندى بن مسعود معلنين لذلك استقلالهم للمرة الثانية عن الخلافة فى العراق(١) .

ولا تستبعد أن يكون سفيان بن معاوية بن المهلب هو الذى عين بنى هناة على عمان فكلاهما من الأزد وقد يكون عزل الأب وتحويل الولاية للابن من باب تقاعسه فى خدمة الأباضية لا سيما أن إعلان الأباضية قد جاء من قبل دعم من منطقة البصرة فقد كان أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة إمامًا لهم وقد مدهم بالمال مع يحيى بن نجيح(٢) وأن اختيارهم للجلندى بن مسعود يدل على تنظيم مسبق فقد كان الجلندى أكثر الأباضيين نشاطًا سياسيًا وعلمًا فقد مثل قومه لتهنئة طالب الحق بحضرموت(٣) .

اختلف الروايات العمانية حول تاريخ إعلان إمامة الأباضية فقيل عام ١٣١هـ وقيل أواخر عام ١٣٢هـ تجمع هذه الروايات على قتل الجلندى فى عام ١٣٤هـ(٤) ويعتبر مسعود أول إمام أباضى ومؤسسًا للإمامة الأباضية فى عمان ، ففى فترة إمامته نظم قوة عسكرية معتمدًا على الشتراة ، وقسم جيشه

---

(١) العوتبى ، ٢ / ٢٢٢ ، الفتح المبين ، ٢٢١ ، السالمى ١ / ٨٧ ، الأزكوى ، ٤٣ قصص وأخبار ، ٤٨ ، فاروق عمر ، الخليج ، ١٧٥، Wndell Phillips: Oman A History , p. 10

(٢) قرقس، عمان والحركة الأباضية ، ٢٠٦ . وانظر، مايلز، الخليج بلدانه وقبائله ٢٥٦.

(٣) السالمى ، ١ / ١٨٨ ، وانظر السيابى ، الحقيقة والمجاز فى تاريخ الزباضية باليمن والحجاز ، ٨٣ - ٨٤ .

(٤) السالمى ، ١ / ٩٦ و٩٧ .

إلى فرق كل فرقة مكونة من ثلاثمائة إلى أربعمائة عليهم قائد يتحلى بصفات القيادة والعلم والفقه ، وعلى كل عشرة منهم مؤدب يثقفهم ، كما أنه أظهر غيرته على الإسلام فمنع أهل الذمة أن يتشبهوا بزى المسلمين(١) ونظم الإدارة وعين الولاة فكان أبو صالح الوضاح واليًا على أبرى(٢) وعين القضاة وجباة الصدقات والحسبة(٣) وأنشأ بيتًا للمال لتنظيم الإنفاق وحصر إيرادات الدولة(٤) . وتمكن بعدله أن يجعل الانتماء لعمان أساسه المذهب الأباضى كعامل موحد لصفوفهم بدلاً من الانتماء القبلى(٥) فكان على استعداد لصد كل أشكال التدخل فى دولته لالتفاف الأباضية حوله(٦) .

لم تكن الخلافة العباسية فى غفلة عن أحداث عمان كقيام دولة أباضية لا تعترف بالخلافة العباسية فهذا يعنى أنهم شقوا عصا الطاعة ويعنى أيضًا سيطرتهم على الخليج العربى فاصلين بين الخلافة ومنطقة الهند والصين ومن جهة أخرى هناك تمركز للخوارج فى جزيرة كاوان واحتمال اتحادهم ضد العباسيين أمر ليس بالبعيد ، وما هدأت الأوضاع فى العراق حتى انتدب أبو العباس السفاح حملة عسكرية بقيادة خازم بن خزيمة(٧) عام ١٣٤هـ لإنهاء

(١) السالمى ، ١ / ٩٠ - ٩١ .

(٢) السالمى ، ١ / ٨٩ ، ٩٣ .

(٣) قرقس ، عمان والحركة الأباضية ، ٢١٤ .

(٤) قرقس ، نفس المرجع ، ٢١٦ .

(٥) السبب الحقيقى لتولية قيادة الجيش زجه فى قتال للتخلص منه لأن خازم قتل جماعة من أخوال الخليفة أبو العباس ، الطبرى ، ٧ / ٤٦١ و ٤٦٢ . الأزدى ، تاريخ الموصل ، ١٠٥ ، السالمى ، تحفة ١ / ٩٧ .

(٦) Miles, S. B., The Countries and Tribes of the Persian Gulf, pp. 61-62.

(٧) اليعقوبى ٢ / ٣٣٩ . الطبرى ، ٧ / ٣٥٣ ، ابن الأثير ، ٥ / ٣٥٥ .

تمرد الأباضيين وقتال الخوارج بزعامة شيبان اليشكرى آنذاك من بعد مقتل الضحاك عام ١٢٧هـ(١) .

انطلقت الحملة بقيادة خازم بن خزيمة فى سبعمائة من الجند إضافة إلى ما انتخبهم من المخلصين من أهل مرو الروذ وانضم إليهم عدة من بنى تميم، وقدر سليمان بن على والى البصرة لهم السفن لنقلهم إلى جزيرة كاوان ، وعندما وطأوا اليابسة وجه خازم خمسمائة من جنده بقيادة نضله بن نعيم النهشلى(٢) فلم يستطع شيبان مواجهتهم ولاذ بالفرار إلى عمان(٣) أملاً فى لقاء العون من أهل عمان وخاصة أن سليمان بن هشام قد استقر بعمان بعد تفرق أصحاب عبد الله بن معاوية(٤) .

وفور وصول الصفرية بزعامة شيبان لجلفار عبر العمانيون عن استيائهم ، واستعد الجلندى ابن مسعود إمام الأباضية بقواته وخيروا شيبان بين الدخول فى طاعتهم واعتناق مذهبهم أو الرحيل ولكن شيبان لم يصغ لهم فوقعت معركة رجحت كفة الأباضية بقتل شيبان عام ١٣٤هـ(٥) .

أما خازم بن خزيمة فقد قاد جيشه من جزيرة كاوان واتجه نحو عمان لبسط الحكم العباسى عليها والقضاء على الأباضيين الخوارج فى نظر

(١) وقيل بقيادة المسيح بن الحوارى ، مجهول ، العيون والحدائق ، ٣ / ١٦٣ .

(٢) الطبرى ، ٧ / ٤٦٣ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) وسليمان بن هشام من رؤوس الصفرية ، وقد تزوج ابنة شيبان، العيون والحدائق ١٦٣/٣.

(٥) مجهول ، العيون والحدائق ، ١٦٣/٣ ، الأزكوى ، تاريخ عمان ٤٣ . الفتح المبين ، ٢٢٢ ، السالمى ، ١ / ٩٤ ، قصص وأخبار ، ٤٨ ، ٤٩ . فاروق عمر ، ١٧٩ ، خليفات ، ١٣١ .

العباسيين(١) فى حين تشير الروايات العمانية بأن حملة خازم كانت تهدف إلى أخذ اعتراف العمانيين بالخلافة العباسية ، ومهما يكن فإن القائد العباسى منذ نزوله أرض عمان أخذ يطالب بغنائم شيبان فقد طلب خاتمه وسيفه وعبر الجلندى عن استقلال عمان فاستشار قومه الذين كانوا لا يرون للخلافة العباسية أساس من الشريعة فرض طلب خازم وجرت معركة فى منطقة جلفار انتهت بهزيمة الأباضية وقتل إمامهم الجلندى وجمع غفير من الأباضيين بعد حرق منازلهم(٢) .

مكث خازم شهرًا فى عمان حتى أتاه كتاب أبى العباس السفاح يأمره بالعودة بعد أن أجهز على المحاولة الأولى للاستقلال فى خلافة بنى العباس ، ومع هذا لم تتوقف تطلعات العمانيون نحو الاستقلال بالوحدة المذهبية قد سادت وعمت أرجاء المنطقة والانتماء للأباضية أصبح عامل قوى لجمع كلمتهم فبرز بعض العلماء كانوا ذوى سلطة غير رسمية فشبيب بن عطية كان يمثل المعارضة المحلية وداعيًا لمقاومة نفوز الخلافة العباسية واتخذ من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سبيلاً فى ذلك بل تمكن من جباية القرى فى حالة غياب ولاة العباسيين مع أنه لم يكن إمامًا متفق عليه(٣) فكان البعض يتولاه وآخرين يتبرأون منه .

---

(١) الطبرى ، ٧ / ٤٦٢ .

(٢) الطبرى ، ٧ / ٤٦٣ ، السالمى ، ١ / ٩٥ – ٩٦ ، الفتح المبين ٢٢٣ . الأزكوى ٤٣ ، ٤٤ ، فاروق عمر ، الخليج ، ١٨٠ .

(٣) السالمى ، ١ / ١٠٤ – ١٠٦ .

لم تجتمع كلمة العمانيين على تشكيل وحدة وطنية لا تحت غطاء قبلى ولا تحت المذهب الأباضى ويمكن أن ترجع ذلك إلى الخسائر الفادحة وكثرة عدد القتلى فى صفوف الأباضيين بعد انتصار خازم بن خزيمة إلى جانب وجود سلطة عباسية تمثلت فى بعض رؤساء القبائل ، فالروايات العمانية - الأباضية - تطلق عليهم بالجبابرة من بنى الجلندى ، فقد كانوا ولاة للعباسيين وإذا اصطدموا بالمعارضة العمانية هددوهم بالخلافة العباسية ويظهر أن روح التحدى وعدم اكتراث الأباضيين كان طاغيًا ضد من أطلق عليهم بالجبابرة(١).

يمكن القول بأن العباسيين قد سلموا الحكم للعمانيين فأعطوهم الحكم الذاتى واستعانوا بالأسرة الحاكمة - الجلندى - فى عمان إلا أن الأيدولوجية الطارئة المتمثلة فى المذهب الأباضى المنتشر فى عمان لم تتقبل ذلك فرفضت التعاون معها وتقبلها فقد فقدوا الثقة بهم بعد فرار سعيد وسليمان الجلنديين بعد انتصار الحملة العسكرية فى ولاية الحجاج على العراق .

ظل الحال على هذا المنوال حتى عهد المنصور الذى واجه عام ١٤٥هـ ثورة محمد بن عبد الله بن الحسين فى المدينة وأخيه إبراهيم فى البصرة فلم يستطع العمانيون الاستفادة من هذا الظرف(٢) بشكل مباشر مع ذلك فإن الروايات العمانية توضح أن القلاقل قد بدأت فى هذا العام ضد السلطة العباسية المتمثلة فى محمد بن زائدة وراشد بن شاذان الجلنديان ، وكان الأباضيون يساندون قوى المعارضة بزعامة غسان الهنائى ولانشغال

(١) السالمى ، ١ / ١٠٢ ، ١٠٣ Miles , SB., The Countries and Tribes of the Persian Gulf, p. 63.

(٢) العيون ، الحدائق ، ٣ / ٢٥٢ .

القوم بأمورهم الداخلية ، ولم يستجب العمانيون للخوارج الخارجين على المنصور وفى عام ١٤٨هـ بعث حسان بن مجالد الهمدانى كتابًا يطلب فيه أتباع مذهبه أو اللجوء إليهم فلم يلقى الهمدانى ردًا على طلبه(١) لاختلاف مذهبهما من جهة ومن جهة أخرى لم يرغب الأباضيون إيواء الخوارج فلهم تجربة مريرة فى إمامة الجلندى بن مسعود .

كان والى البصرة(٢) يعزز سلطة العباسيين فى عمان باعتماده على القوى المحلية المخلصة فإن وجد ضعفًا أو طلبًا للعون عززهم برجال من عنده ففى عام ١٥٨هـ كان تسنيم الحوارى الأزد واليًا على عمان لأن الخليفة المنصور قد ركز على فتح الهند(٣) فكان عليه تأمين منافذ الخليج بالسيطرة على عمان ، ويبدو بأن هذه الأسرة ظلت تشرف على إدارة عمان فكان الحسن بن تسنيم الحوارى واليًا عليها ١٦٩هـ(٤) .

رغم اهتمام ولاة البصرة بالمناطق التابعة لهم إلا أن عمان ظلت فى حالة غليان ، رافضين التبعية . ووجد الأباضيون فى مساندة القوى الثائرة كسبًا سياسيًا لهم ، ولم تكشف المصادر نمط انضمام الأباضيين للمعارضة ، إلا أنها أبرزت ثقلهم السياسى بعد إنهاك قوى المعارضة حيث اجتمع الأباضيون فى منح (نزوى) حول عميدهم موسى بن أبى جابر الأزكوى

---

(١) ابن الأثير ، ٥ / ٥٨٤ ، تاريخ الموصل ، ٢٠٤ .

(٢) يذكر ابن الخياط قائمة طويلة من ولاة البصرة ، كان أبرزهم محمد بن سليمان بن على الذى توفى عام ١٧٣هـ ، تاريخ ابن الخياط ، ٤٣٢ ، ٤٤٠ ، الطبرى ، ٨ / ١٣٤ ، ١٤٩ ، ٢٣٧ ، ابن الأثير ، ٦ / ٤٩ ، ١٠٩ .

(٣) الطبرى ، ٥٧/٨ . تسنيم الحوارى ينتسب للعتيك - ابن حزم جمهرة أنساب العرب، ٣٧١

(٤) ابن الأثير ، ٦ / ٩٤ .

إلى جانبه زعماء القبائل لاختيار إمام لهم فكان ألمع المرشحين بعد محمد بن العلى محمد بن عفان فبويع بالإمامة عام ١٧٧هـ وتفاديًا للفتنة أرضى الأزكوى شيوخ القبائل ببعض الولايات الصغيرة(١) .

عبرت روايات مؤرخوا عمان عن استنكارهم لفترة سيطرة العباسيين على عمان بقولهم وتلاعب الجبابرة بعمان أربع وأربعين سنة(٢) . وقد تكون هذه الكلمة باب المبالغة فى الشئ فجملة انقطاع إمامة الأباضيون عن السلطة نحو ٣٣ سنة فقد أسقطت إمامة الجلندى بن سعود عام ١٣٤هـ وبويع محمد ابن عفان فى منتصف عام ١٧٧هـ .

إمامة الاباضية الثانية :

بويع محمد بن أبى عفان اليحمدى بيعة الشتراة ، وهو من أصل عراقى نشأ فى عمان ، وقويت شوكته بعزل شيوخ القبائل من الولايات وعين آخرين من الأباضيين ، وقضى على التكتلات والأحلاف القبلية فقد أرسل سعيد بن زياد البكرى إلى المنطقة الشرقية لهذه المهمة إلا أن البكرى بطش بالقوم ودمر المنطقة مما أساء لابن عفان فكان هذا من أسباب انحراف الناس عن إمامته التى امتدت نحو سنتين اتفق القوم بعدها على عزله لانفراده بالرأى واستبداده بالأمور ، إضافة إلى اتجاه العمانيين نحو الوطنية الإقليمية فالروايات العمانية لا تخلو من التركيز على أن محمد بن أبىعفان من مواليد

(١) الفتح المبين ، ٢١٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، الأزكوى ، ٤٤ - ٤٥ السمائلى ، إزالة الوعثاء ٤٧ ، السالمى ١ / ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) السالمى ، ١ / ٩٧ .

العراق(١) وكأنهم اشترطوا أن يكون إمامهم عمانى المولد والمنشأ ، فخلعوا ابن عفان بعد أن استدرجوه خارج عسكره وانتخبوا الوارث بن كعب الخروصى اليحمدى إمامًا .

كان الفضل فى ترشيح الوارث لشيخ علماء الأباضية موسى بن أبى جابر الأزكوى بايعه الخاصة والعامة بيعة الشتراة عام ١٧٩هـ ، ومع أننا لم نقف على تنظيماته ولكن نستشف من الروايات العمانية بأنه قد استطاع أن يوحد صفوفهم ويتغلب على مشاكل عصره ويظهر فى رواية وفاته بأنه كان شخصًا متابعًا لجميع أمور الدولة قد اتخذ من المركزية فى السلطة أسلوبًا للحكم ، وقد لخص مؤرخرا عمان عصره بأنه (أخمد الكفر ودفع الله الجبابرة) وكذلك قولهم (أظهر العدل وأعز الحق وأهله) (٢) وهذه عبارات تعنى بأنه قد مكن الشتراة فى عمان فنشط المذهب الأباضى وهناك من يرجع الوارث الفضل فى نشر المذهب الأباضى خارج حدود عمان وقتال مخالفيهم(٣).

لم يكن هناك رد فعل من الخليفة هارون الرشيد فى بغداد من قيام الأباضية فى عمان منذ تولى ابن عفان الإمامة عام ١٧٧هـ إلا بعد مضى ١٢سنة . مع أن خلافة الرشيد عهد استقرار وازدهار فى جميع المجالات الثقافية ، واستقرار سياسى .

---

(١) الفتح المبين ٢١٤ ، الأزكوى ، تاريخ عمان ٤٥ ، السالمى ، ١ / ١١١ ، ١١٢ .
السمائلى ، إزالة الوعثاء ، ٤٨ .Oman A History , 11

(٢) السالمى ، ١ / ١١٤ – ١١٥ – الأزكوى ، ٤٦ ، مجهول ، تاريخ أهل عمان ، ٥٨،
السمائلى ، إزالة الوعثاء ، ٤٥ – ٤٦ الفتح المبين ، ٢٢٥
Miles S.B. the Countries and Tries of the Persian Gulf .P.65.

(٣) المسرى تاريخ العلاقات السياسية والاقتصادية ، ١٣٢ .

ويمكن أن نرجع عدم اكتراث الرشيد باستقلال عمان إلى بعدهم عن بغداد وأنهم لم يشكلوا عائقًا للخلافة عن مناطق أخرى كالخوارج ثوار إفريقية بعدما أثاروا الفتن فتصدى لهم الرشيد عام ١٧٨هـ فأرسل قائده المشهور هزيمة بن أعين لقمع الثوارات ولتوطيد الوضع هناك[١] وقد نرجع تأجيل الرشيد لإعادة بسط سيطرته على عمان لوعورة الطريق البرى وقلة العناصر المؤيدة للخلافة العباسية فى عمان ، وهذه العوامل التى ساعدت الوارث على نشر المذهب الأباضى وتوطيد كيانهم السياسى قبل أن تستعد الخلافة العباسية من اتخاذ موقفًا منهم[٢] .

لقد عبرت الإمامة الأباضية فى عمان باستقلالها بقطع إرسال الصدقة والجزية فى عهد الرشيد[٣] ، لذا لم يذكر الجهشيارى خراج عمان فى هذه الفترة[٤] ومع هذا لم تتأثر خزانة بيت المال لهذا النقص لانتظام تدفق أموال الخراج من باقى الأمصار ، فإن قطع إقليم خراجها عن بغداد دليل على استقلالها وظلت عمان على هذا الحال ولا يمكن أن نفسر ما أورده قدامه عن خراج عمان فى عهد المأمون عام ٢٠٤هـ حيث قدر بثلاثمائة ألف دينار[٥] فالوضع السياسى فى عمان لم يتغير بل لأن إمامة الأباضية رسخت دعائم استقلالها بإيجاد قوة عسكرية ، وتشددت مع من خالفهم فى المذهب من المسلمين[٦] .

(١) الطبرى ، ٨ / ٢٥٦ .

(٢) فاروق عمر ، الخليج ، ٢٠٥ .

(٣) البلاذرى ، فتوح ، ٨٨ .

(٤) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ٢٨١ ، ٢٨٨ .

(٥) قدامه ، الخراج ، ١٨٤ .

(٦) المسرى ، تاريخ العلاقات ١٣٢ .

سواء لسبب مالى أو سياسى لاستقلال العمانيين بالسلطة فإن الرشيد أرسل قوة عسكرية إلى عمان بعد اثنى عشرة سنة من إعلان الأباضيين استقلالهم هدف الرشيد إحكام تبعيتهم للخلافة العباسية ، فالبلاذرى يذكر بأن الرشيد قد أرسل قوة بقيادة عيسى بن جعفر بن سليمان بن على ، فخرج بأهل البصرة عام ١٨٩هـ/٨٠٤م ، وتمكن من دخول عمان واستقر فى صحار وارتكب جنده الفواحش يفجرون بالنساء ويسلبونهم ويظهرون المعازف ، فلم يحتمل أهل عمان ذلك فتصدت لهم الشتراة وهزم الجيش العباسى وصلب قائدهم عيسى جعفر(١) .

ويختصر الطبرى هذه الرواية ويكتفى بذكر ولاية عيسى بن جعفر على عمان وتمكنه من احتلال جزيرة كاوان ولكن العمانيين تمكنوا بقيادة ابن مخلد الأزدى من إحباط حملته وأسره وحمله إلى عمان(٢) .

أما الروايات العمانية فتروى الحادثة بالتفصيل . فالحملة قد خرجت لاسترجاع عمان من أيدى الأباضية فى ألف فارس وخمسة آلاف راجل بقيادة عيسى بن جعفر وكتب داود بن يزيد بن المهلب الأزدى إلى الوارث يخبره بأمر الحملة واستطاع الجيش العمانى من الانتصار بعد معركة بحرية وبرية وأسر عيسى بن جعفر وحبسه فى حصن من حصون سحار وتمكن أحد الشتراة من قتله دون علم إمام الأباضية الوارث ولا والى صحار مقارش بن محمد اليحمدى ، وعلم الرشيد بالأمر فعزم على انتداب جيش آخر فاضطرب الناس فى عمان ، ولكنه توفى قبل أن يتم ذلك(٣) .

---

(١) البلاذرى ، فتوح ، ٨٨ ، قدامه ، الخراج ، ٢٧٧

Wondell Phillips : Oman A History p . 12.

(٢) الطبرى ، ٨/ ٣١٧ .

(٣) السالمى ١ / ١١٨ ، ١١٩ ، الفتح المبين ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، الأزكوى ، ٤٦ .

أما من تسور الحصن وقتل عيسى فهو يحيى بن عبدالعزيز أحد الشتراة البارزين ولم يستنكر أحد وكأن القوم اتفقوا رغم عدم اتفاقهم على أن تكون هذه رسالة للرشيد وتعبيرًا عن رغبتهم فى الاستقلال وإلقاء الرعب فى قلوب القوة التى قد يرسلها الخليفة العباسى .

والباحث فى تاريخ الإمامة الأباضية لا يجد معلومات وافية للجانب التنظيمى والإدارى ورغم أن وارث بن كعب قد تولى اثنى عشر سنة وستة أشهر ، ولا يمكن القول عن إمامته إلا أنه كان حريصًا على استقرار عمان ، ابتعد عن كل ما قد يشوه إمامته دفع حياته من أجل انقاذ سجناء وادى كليوه حين عزم على انقاذهم من السيل(١) وتمكن من تأليف قلوب الأباضيين مما انعكس إيجابيًا على بيعة خلفه فقد اجتمع الشتراة وفى مقدمتهم سليمان بن عثمان ومسعدة ابن تيم واستقر رأيهم على عدم أخذ مشورة أهل الشرق - موطن قبائل مهرة وبنى هناة - بؤرة الاضطربات وتفاديًا للاختلاف بايع المسلمون غسان بن عبد الله بيعة الشتراة لست خلون من جمادى الأولى عام ١٩٢هـ(٢) .

اتبع الإمام غسان بن عبد الله المركزية فى الحكم فكان مطلعًا على جميع الأمور فإذا وجد تقصيرًا من أرباب دولته استبدلهم واضعًا نصب عينيه العدل بين الجميع فكان أقرب الناس إليه القاضى مسبح بن عبد الله ، ولم ينفرد باتخاذ قرار فقد كان يستشير العلماء والمؤيدين له(٣) ونعم غسان بفترة

(١) الأزكوى ، تاريخ عمان، ٤٦ ، الفتح المبين ، ٢٢٦ .
(٢) السالمى ، ١ /١٢٢ .
(٣) السالمى ، ١ / ١٢٦ .

هدوء فلم يكن هناك رد فعل من العباسيين فبعد وفاة الرشيد انشغل الأمين والمأمون بفتنة حتى عام ١٩٨هـ ، أما فى الداخل فقد واجه غسان تمرد أهل الشرق الذين لم يعترفوا بإمامته فخرج عليه بنى هنأة وعلى رأسهم راشد بن شاذان واستطاع احتلال دما ونهبها وقتل واليها ، فأوغر الإمام إلى والى سمايل الوضاح بن عقبة فتمكن بمعية الشراة أن يحتوى هذه الأزمة(١) .

وأمن حدود عمان وخاصة سواحلها التى تعرضت لهجمات قراصنة الهند للإمام غسان فضل فى بناء أسطول بحرى لتوطيد أمن السواحل ورد كل عدوان فقد قام الإمام بانشاء نوع من السفن يعرف بالشذاوة سريعة لعبت دورًا كبيرًا فى أبعاد خطر القراصنة عن سواحل عمان(٢) .

تميزت فترة إمامة غسان الممتدة نحو ١٥ سنة – فقد توفى عام ٢٠٧هـ – ٨٢٢م ، بقوة نفوذ المذهب الأباضى وقيل إن سلطانهم قد تجاوز حدود عمان إلى نواحى اليمامة وحضرموت(٣) فقد بلغت الأباضية قمة ازدهارها وقوتها وبرزت نزوى مقر الإمامة والمركز الإدارى وسميت بيضة الإسلام ، وكانوا

---

(١) السالمى ، ١٢٢/١ – ١٢٥ ، الفتح المبين ، ٢٢٧ .

(٢) السالمى ، ١٢٣/١٢ ، الأزكوى ٤٧ ، الفتح المبين ٢٢٧ ، مجهول ، قصص ، ٥٢، فاروق عمر ، الخليج ، ٢١٧ ، ٢١٨ هذه الغارات لم تنقطع من الإغارة على سواحل الخلافة العباسية حتى عهد المتوكل وكان اندفاعهم للخليج أثر قحط وغلاء فى الهند ، المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ٣٠٧

Miles, SB, the Countries and Tribes of the Persian Gulf., p. 69 Willson , the Persian, p . 82 .

(٣) المسرى ، تاريخ العلاقات ، ١٣٤ .

قبل ذلك يطلقون عليها (تخت ملك العرب) كما ازدهرت الحياة الاقتصادية وخاصة فيما يتعلق بالفلاحة)[١] .

أن هذا الازدهار لم يكن سندًا للحياة السياسية فى عمان ، فبعد وفاة الإمام غسان بن عبد الله فى ذى القعدة عام ٢٠٧هـ بقيت عمان تسعة أشهر دون إمام يتولى شؤون الحكم ، فقد بويع خلفه عبد الملك بن حميد بيعة الشتراة فى شوال عام ثمانى ومائتين من الهجرة لدوره المفعال فى إعلان الإمامة الأباضية عام ١٧٧هـ فقد كان من أكثر المتحمسين للإطاحة بحكم راشد بن النضر الجلندى[٢] .

كان بإمكان الخلافةالعباسية أن تستغل هذه الفترة لاخضاع عمان لحكم بغداد ، ويظهر أن المأمون قد انشغل بتثبيت أركان خلافته من بعد الفتنة ومن جهة أخرى انشغل بفكر المعتزلة ومجادلته قضية خلق القرأن التى شغلت جل اهتمامه ، ولم تكن عمان بمنأى عن هذه التيارات الفكرية فى هذه الفترة فقد أصبحت صحار ملتقى المذاهب الفكرية من قدرية ومرجئه وكثر المستجيبون لها بل امتدت لمدن أخرى مما ازعج الأباضيون حتى نعتوهم بالخوارج ، وطلب هاشم ابن غيلان من الإمام عبد الملك بن حميد طردهم من عمان[٣].

استقرت عمان فى عهد الإمام عبد الملك وتمكن من اخضاع قبائل المهرة المتمردة ثم عفا عنهم بعد تدخل موسى بن على أبرز علماء الأباضية[٤] فقد بقى موسى سندًا لعبد الملك فى شيخوخته بعد أن ثقل سمعه

(١) السالمى ، ١/١٢٥ ، فاروق عمر ، الخليج ، ٢١٩ ، محمد راشد ، الخليج ، ١٤٣ .
(٢) السالمى ، ١ / ١٢٦ ، ١٣٤ ، الفتح المبين ، ٢٢٨ .
(٣) السالمى ، ١٣٨ ، ١٤٠ . فاروق عمر ، الخليج ، ٢٢١ .
(٤) السالمى ، ١ / ١٣٥ .

وضعف بصره واضطرب عسكره وتعالت صيحات عزل الإمام فلم يصغى لهم فقد أرجع موسى الأمور إلى نصابها وساند الإمام حتى وفاته فى رجب عام ست وعشرون ومائتين من الهجرة (١) .

قام موسى بن على مقام الإمام فى جمع شمل الأباضيين تحت لواء إمام آخر وخاصة أن الجميع كانوا يتوقعون وفاة عبد الملك نظرًا لكبره ومرضه ففى نفس يوم وفاة الإمام استشار موسى بن على علماء الأباضية واجتمع بهم فى بيت المشورة واتفقت كلمة الأباضية على مبايعة المهنا جيفر اليحمدى ، مما يدل على أنه كان يتمتع بتأييد قوى من قبل علماء الأباضية . وكان أول من بايع المهنا موسى بن على الأزكوى على (طاعة الله ورسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)(٢) .

اتسمت إمامته بالاستقرار وتميزت حكومته بالمركزية والميل إلى الحزم والضبط وركز على القوة العسكرية وجعلها فى حالة استنفار دائم(٣) ظهرت قوته العسكرية فى اسطول قوامه ثلاثمائة مركب مهيأة للحرب . أما القوة البحرية فإنها كانت عظيمة فعسكره فى نزوى دون سائر المدن نحو عشرة آلاف مقاتل ، وفى خدمتهم سبعمائة وقيل تسعة آلاف ناقة وستمائة فرس تركب عند أول صارخ(٤) .

---

(١) السالمى ، ١٣٤/١ . الفتح المبين ، ٢٢٨ - ٢٢٩ . الأزكوى تاريخ عمان ، ٤٩ . قصص وأخبار ، ٥٤ - ٥٥ .

(٢) السالمى ، ١ / ١٠٥ ، ١٥٢ . فاروق عمر ، الخليج ٢٢٣ .

(٣) الأزكوى ، تاريخ عمان ، ٤٨ .

(٤) السالمى ، ١ /١٥٠ ، الأزكوى ، تاريخ عمان ، ٥٠ .

لم يتهاون فى حل أهون القضايا واعقدها فكان شديدًا مع مانعى الزكاة والمماطلين(١) .

واعتمد فى إدارته على المخلصين من الأباضين فقد كان محمد بن على فى القضاء ، وأبو مروان واليًا على صحار ، وزياد بن الوضاح صاحب شرطة صحار ، وخالد بن محمد صاحب شرطة نزوى(٢) .

ومن تمتع بهذه القوة والتنظيم سهل عليه أن يحبط كل حركة مناهضة لحكمه فقد تمكن الإمام مهنا اليحمدى فى احباط آخر حركات آل الجنلدى على الإمامة الأباضية فقد تزعم المغيرة بن روشن الجلندى واستطاعوا السيطرة على توام وقتل واليها أبى وضاح ، فأرسل الإمام جيشاً قوامه اثنا عشر ألف مقاتل يتقدمهم والى صحار أبو مروان وبشير الأزكوى ، واللافت للنظر بأن الأباضيين ولأول مرة ادخلوا المرتزقة من الهنود فى قمع آل الجنلدى مما يدل على عظم البلاء أو خشية الإمام من تقاعس أو تعاطف الجند مع الخارجين بصفهم جميعًا من الأزد فتمكن هذا الجيش من سحق التمرد واطفأت تطلعات الجلندى للسلطة(٣) فقد كانوا يعتبرون أنفسهم أولى بالحكم لجذورهم التاريخية فى الحكم ولم تشر المصادر بأنهم كانوا يتلقون الدعم من الخلافة العباسية .

---

(١) السالمى ، ١ / ١٥٩ .

(٢) السالمى ، ١ / ١٥٤ - ١٥٥ ، الفتح المبين ، ٢٣١ ، ٢٣٢ . فاروق عمر ، الخليج العربى ، ٢٢٧ .

(٣) السالمى ، ١ / ١٥٩ ، الفتح المبين ٢٣٢ .

لقد اتبع الإمام المهنا سياسة صارمة مع كل مخالف ومناهض وهذه السياسة أوجدت نوعًا من المعارضة التى لا تتعدى الاستنكار ، ففى عهده امتلأت السجون وخاصة من الذين يهددون أمن البلاد والزمهم نفقة أنفسهم ولم يقبل شفاعة وجوه القوم وكبار الأئمة الأباضية(١) .

وفى أواخر حياة الإمام لم يكن بمقدوره القيام بمهمات الإمامة وتعالت صيحات عزله من منصبه وكلف مرجع الفتوى ورأس أهل الحل والعقد موسى بن على خلع الإمام وباجتماعهما أدرك الإمام معزى قدومه فبين له سوء عاقبة ما أشاروا عليه الإمامة وعمان فعدل عن مقصده وتولى موسى بن على الأمور حتى وفاة المهنا فى ربيع الأول عام ثلاثين ومائتين وقبل سبع وثلاثين ومائتين من الهجرة(٢) .

بويع الصلت بن مالك الخروصى بالإمامة فى اليوم الذى توفى فيه المهنا بإجماع كبار علماء الأباضية وأصحاب الرأى والقادة وفى مقدمتهم بشير بن المنذر ومحمد بن محبوب ، ولم يختلف اثنان عليه(٣) ويدل هذا على تماسك المجتمع الأباضى آنذاك واستقرار نفوذهم . وشهدت عمان فى صدر إمامته استقرارًا سياسيًا فلم يعد للمعارضة قوة واتجه بالإمامة نحو مزيدًا من المركزية فلم يعطى ولاته صلاحيات البيت فى بعض القضايا العظيمة كالقصاص وإقامة الحدود(٤) وتشدد مع أهل الذمة تشبهًا بخلفاء بنى العباس

(١) السالمى ، ١ / ٩٢ ، Miles , Abid , p 74

(٢) السالمى ، ١ / ١٥١ ، الأزكوى ، تاريخ عمان، ٥١ .

(٣) السالمى ، ١ / ١٨٤ و ١٨٧ .
Miles SB. the Countreis And Tribes of the Persian Gulf, p 71

(٤) نفس المرجع السابق .

فقد أصدر أوامره للولاة بأخذ الجزية عند دخول كل شـهر ، كما أوصى بأن تربط أوساطهم بالكساتيج وجز نواصيهم وشرك نعالهم حتى لا يشبهوا فى زيهم بالمسلمين[١].

كما أمر ولاته أن يظهروا الشدة والتخويف مع أهل الخلاف للأباضية وفى مقدمتهم القدرية والمعتزلة والخوارج والمرجئة[٢] ونتيجة لهذه الإجراءات لقب الإمام الصلت الخروصى بأمير المؤمنين وهذا لقب لم يحظى به أئمة الأباضية من قبل ، فقد روى التنوخى عن محمد الحسن بن دريد الأزدى ، وهو من أزد عمان أنه قال : (كنت بعمان مع الصلت بن مالك الشارى ، وكانت الشراة تدعوه : أمير المؤمنين)[٣] .

لقد وصلت الإمامة فى عهد الصلت ذروتها وامتدت سلطتها ففرضت هيمنتها على جزيرة سقطرى[٤] فإمامة الصلت ازهى عصور الإمامة قوة واستقرارًا تعرضت الإمامة من بعده إلى سلسلة من الفتن والاضطربات الداخلية فقد اعتزل لضعفه ورشح راشد بن النظر للإمامة عام ٢٧٣هـ[٥]

---

(١) السالمى ، ١ / ١٩٢ . فاروق عمر ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

لقد أمر الرشيد عام ١٩١ أن يغير أهل الذمة هيأتهم هيأة المسلمين فىلباسهم وركوبهم، وكذلك أمر المتوكل عام ٢٣٩ هـ .

(٢) السالمى ، ١ / ٩٢ Miles , Abid, p . 74,

(٣) التنوخى ، نشوار امحاضرة ، ٤ / ١٠٨ .

(٤) السالمى ، ١/١٦٦

Miles, .S.B. the Countries and the Tribes of the Persioan Gulf , p 74 .

(٥) السالمى ، ١/١٩٥ -١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢١٦ ، الفتح امبين ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، الأزكوى ، ٥٢ . مجهول ، قصص وأخبار ، ٦٠ .

ومع ذلك لم تتقدم الخلافة العباسية لضم عمان للخلافة فى بغداد فكأنهم قنعوا بأن لعمان عهد قديم حقهم الانفراد بالسلطة بلا خوف من غلبتهم على بلادهم.

وخلاصة القول أن إقليم عمان إقليم جذب حضرى ذا موقع استراتيجى واقتصادى متكامل استقرت قبيلة الأزد فى المنطقة وتمكنوا من مجارات أقوى الامبراطوريات قوة وسطوة ، فكانوا ملوكًا على العرب لقوتهم فرضوا أتاوة تؤخذ بانتظام فقد امتد نفوذهم حتى اليمامة والبحرين . ومنَّ الله عليهم بالإسلام من تلقاء أنفسهم بعد ما تلقوا كتاب الرسول ﷺ فخصهم بمكرمة لم يخصها تكتل سياسى عربى غيرهم فجعل لآل الجلندى حكم عمان ، فكانوا مستقلين بالحكم ذاتيًا تابعين لدولة الرسول والخلافة الراشدة فكان موقفهم موقف دعم لحكم الجلندى فى وقت الشدائد مؤكدين بذلك على بقاء الحكم الذاتى .

وفى أواخر عهد الخلفاء الراشدين وقعت الفتنة وتحزبت الأمصار فتأثرت عمان كبقية المدن الإسلامية ، إلا أنها بقيت محايدة دون أن تساهم فى هذا الاضطراب السياسى فلم يكن لهم فى هذا ناقة ولا جمل تابعين تحت أمره آل الجلندى كدولة مستقلة رغم دخول أفكار متأثرة بهذه الفتنة فيما بعد ، فقد تسربت أفكار جماعة القعدة المخالفين لآراء الخوارج فقد تبنى القعدة السلم على حمل السلاح فى وجه الخلافة الأموية مع اعتقادهم بعدم شرعية الخلافة المتوارثة فى أسرة الأمويين ، وحاول الأمويون أن يبسطوا سيطرتهم على عمان فكان آل الجلندى لهم بالمرصاد ، ولكن أمام اصرار عبد الملك بن مروان خارت قوى العمانيين وتمكن الحجاج أخيرًا من اخضاع المنطقة ففر حكام عمان إلى أفريقية لتنتهى فترة الحكم الذاتى التى بدأت منذ زمن الرسول ﷺ حتى ولاية الحجاج على العراق . وتزامن هذا الحدث مع دخول أفكار

القعدة وبدأ المذهب الأباضى يتبلور وخاصة بعد استقرار عمران بن حطان فى عمان فكان هذا هو عماد الوحدة الوطنية بعد انضمام عناصر وطنية للخدمة كعمال للأمويين وتمكنت الأباضية فى أواخر العهد الأموى وبداية الخلافة العباسية أن تعلن أول إمامة أباضية حين انتخب الجلندى بن مسعود كبداية لاستغلالهم عن حاضرة الخلافة ولكن بنى العباس تمكنوا من اخمادها عام ١٣٤هـ .

ظلت فكرة الاستقلال أمنية العمانيين مدة ثلاث وثلاثين سنة إلى أن تمكنوا من إعلانها مرة ثانية عام ١٧٧هـ وانتخب الإمام محمد بن أبى عفان فتتابع أئمة الأباضية حكم عمان على أساس انتخابى مع الأخذ بعين الاعتبار علمه وتقواه ووطنيته الإقليمية ، فكان جل نشاطهم الإدارى والعسكرى معتمد على رجالات المذهب (الشتراة) لا على الإنتماء القبلى كما أن أئمة الأباضية عملوا على تقوية دولتهم بجمع الصفوف وأعداد العدة خوفًا من مواجهة الخلافة العباسية التى انشغلت عن عمان بأمور أخرى عدا محاولة فاشلة فى خلافة الرشيد .

لقد اتسم أئمة الأباضية حكام عمان بالجدية وعدم التهاون وكان آخر الأقوياء منهم فى العصر العباسى الأول الصلت بن مالك الخروصى الذى تولى حكم عمان ٢٣٠هـ فقد لقب بأمير المؤمنين مؤكدين على الاستقلال التام بعمان فى ظل المذهب الأباضى عن حاضرة الخلافة العباسية .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

- ابن الآبار : محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى (٥٩٥ – ٦٥٨ هـ)
  الحلة السيراء ، طبعة أولى ، القاهرة ، ٩٦٣ هـ .
- ابن الأثير : يحيى بن أبى عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى
  الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ابن أعثم : أحمد بن أعثم الكوفى " توفى ٣١٤ هـ "
  الفتوح ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- الإدريسى : محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحموى
  نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . بيروت ، ١٩٨٩.
- الأزكوى : سرحان بن سعيد
  تاريخ عمان المقتبس عن كتاب كشف القمة الجامع لأخبار الأمة طبعة ثانية ،عمان ، ١٩٩٢ .
- الألوسى : محمود شكرى الألوسى البغدادى
  بلوغ الإرب فى معرفة أحوال العرب ، بيروت .
- البلاذرى : أحمد بن يحيى ، " توفى ٢٧٩ هـ "
  فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٣٢ .
- التنوخى : الحسن بن على ،" توفى ٣٨٤ هـ
  نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، بيروت ،١٩٧١ .

- ابن الجوزية : محمد بن أبى بكر .

أحكام أهل الذمة ، طبعة ثانية ، بيروت ، ١٩٨٣

- الحارثى : سالم بن حمد بن سليمان بن حميد

العقود الفضية فى أصول الأباضية ، عمان .

- ابن حجر : أحمد بن على بن محمد بن على الكتانى العسقلانى

الإصابة فى تميز الصحابة ، طبعة أولى بيروت ، ١٣٢٨هـ .

- الحموى : ياقوت بن عبد الله

معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت .

- ابن حوقل : محمد بن على الموصلى

صورة الأرض ، بيروت ، ١٩٧٩ .

- ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة ثانية ، بيروت ، ١٩٦٧ .

- ابن خلكان : أحمد بن محمد بن أبى بكر ، " ٦٠٨ - ٦٨١ هـ "

وفيات الأعيان وأنباء ابنا الزمان ، دار الثقافة ، بيروت .

- ابن الخياط : خليفة بن خياط

تاريخ ابن الخياط، تحقيق أكرم ضياء العمرى، طبعة ثانية، بيروت، ١٩٧٧.

- الدينورى : أحمد بن دواود

الأخبار الطوال ، مكتبة المتنبى ، بغداد .

- الذهبى : محمد بن أحمد بن عثمان ، " توفى ٧٤٨ هـ "

تاريخ الإسلام ، مكتبة القدسى ، القاهرة ، ١٣٦٨

- الأزدى : يزيد بن محمد بن أياس بن القاسم ، " توفى ٣٣٤ هـ "
تاريخ الموصل ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ابن زريق : حميد بن محمد بن زريق بن بخيث
الفتح المبين ، تحقيق عبد المنعم عامر ، عمان ١٩٧٧
- السالمى : عبد الله بن حميد
تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، الكويت ، ١٩٧٤ .
- ابن سعد : الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت .
- السمائلى : سالم بن حمدو بن شامس السيابى
إزلة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء ، تحقيق سيدة كاشف عمان ، ١٩٧٩
- ابن سلام : أبى عبدالله القاسم بن سلام
الأموال ، تحقيق محمد هراس ، القاهرة ، ١٩٨٠
- السيابى : سالم بن حمد بن شامس
الحقيقة ، المجاز فى تاريخ الأباضية باليمن والحجاز ، عمان ، ١٩٨٠.
- ابن سيد الناس
عيون الأثر ، طبعة ثانية ، بيروت ، ١٩٨٢
- الأصطخرى : إبراهيم بن محمد الفارسى
المسالك ، الممالك ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- الطبرى : محمد بن جرير ، " ٢٢٤ _ ٣١٠ هـ "
تاريخ الأمم ، الملوك ، طبعة رابعة ، دار المعارف ، مصر .
- العوتبى : سلمة بن مسلم الصحارى
أنساب العرب، عمان ، ١٩٨٤.

– أبو الفدا : إسماعيل بن على جمال الدين محمود

تقويم البلدان ، باريس ، ١٨٤٠

– ابن الفقيه " أحمد بن محمد الهمدانى

البلدان ، لندن ، ١٣٠٢ هـ .

– قدامة بن جعفر

الخراج وصناعة الكتابة ، تحقيق ، محمد الزبيدى ، بغداد ، ١٩٨١ .

– ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم

المعارف ، حققه ثروت عكاشة ، طبعة ثانية ، دار امعارف ، مصر .

– مجهول

تاريخ أهل عمان تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، طبعة ثانية ، عمان ، ١٩٨٦.

– مجهول

قصص وأخبار جرت فى عمان تحقيق عبدالمنعم عامر ، طبعة ثانية ، عمان ١٩٨٣ .

– مجهول

العيون والحدائق فى أخبار الحقائق الجزء الثالث ، مكتبة المتنبى ، بغداد، الجزء الرابع تحقيق نبيلة داود ، بغداد ، ١٩٧٢ .

– المسعودى

التنبيه والإشراف ، بيروت ، ١٩٦٨ .

– المقدسى

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبعة ثانية ، ١٩٠٩ .

– ابن الواردى : عمر بن الوردى " توفى ٨١٦ هـ " خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، بيروت ، ١٩٩١ .

ثانيًا : المراجع العربية ، المترجمة :

- جواد على، الفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، طبعة ثانية ، بيروت ، ١٩٧٦ .
- سيدة إسماعيل الكاشف ، عمان فى فجر الإسلام ، طبعة ثانية ، عمان ، ١٩٨٢ .
- صالح العلى ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ، بغداد ، ١٩٥٣ .
- عامر على عمير المرهوى ، عمان قبل الإسلام ، عمان ، ١٩٨٠ .
- عوض محمد خليفان ، نشأة الحركة الأباضية ، عمان ١٩٧٨
- فاروق عمر ، الخليج العربى فى العصور الإسلامية ، دبى ، ١٩٨٣ .
- مايلز س ، ب ، الخليج بلدانه وقبائله ، ترجمة أمين عبد الله ، عمان ١٩٨٣ .
- محمد أرشيد العقيلى ، الخليج العربى فى العصور الإسلامية ، بيروت ، ١٩٨٨ .
- محمد حميد الله آبادى ، الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٤١ .
- المسرى ، حسين على ، العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق ومنطقة الخليج العربى بيروت ، ١٩٨٢ .
- محمد قرقش ، عمان ، الحركة ، دبى ، ١٩٩٠
- ويليامسون ، صحارى عبر التاريخ ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، طبعة ثانية ، عمان ، ١٩٧٩ .

- وندل فيليبس ، تارخ عمان ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، طبعة ثانية ، عمان ، ١٩٨٣ .

- ولكنس ، ج ، س . بنو الجلندى ، عمان ، ١٩٨٢ .

المراجع الأجنبية :

Wendell Phillips :

Oman a History , London , 1960

Muir, Wiliam,

The Caliphate, Its Rlse. Decline, and Fall, Darf Publishers Ltd, London , 1984.

Willson, Aranold

The Persian Gulf, George Allen Unwin Ltd, 3rd Edtion. London 1959.

Miles, S. B The Countries and Tirbes of The Persian Gulf, Frank Casse, Co. Ltd, London 1966.

الأقليات الإســلامية فى أوروبا الغربية

دراسة لأوضاع الأقلية المسلمة فى ألمانيا الغربية

د. نعمان محمود جبران

قسم التاريخ من جامعة اليرموك – الأردن

هذه دراسة فى إطار تتبع أوضـاع المسلمين فـى أوروبـا الغربية ، بحيث تعالج هذه الدراسة أوضـاع الأقليـة المسـلمة فـى ألمانيا الغربية من بدايات تواجد المسلمين على الأرض الألمانيـة وتطور هذا التواجـد ومـا رافقـه مـن مواقـف مـن جـانب الألمـان حيال ذلك تعرض هذه الدراسـة لانتشـار الإسـلام بيـن الألمـان ، وتشير أيضاً إلـى الجماعـات الإسـلامية فـى ألمانيـا ومـا لهـا مـن نشاطات وأثر هذه النشاطات علـى تغيير الصـورة عـن الإسـلام والمسلمين وتوضح هذه الدراسة أيضـاً الأعـداد المتناميـة للأقليـة المسلمة وما رافق ذلك من ازدياد للمشـكلات التـى واجهـت هـذه الأقلية مستعرضة الأسباب وراء هذه المشاكل والمحـاولات التـى بذلت فى سبيل إيجاد حلول لها مبينة دور الألمان فى ذلك .

أوروبا والإسلام :

إن صلة العالم الإسلامى بأوروبا قديمة جـداً ، وتعـود إلـى عهـد الدولـة الأموية ، حيث استطاع المسلمون والعرب خاصـة أن يؤسسوا دولة عربية فى الأندلس ، وأصبح البحر المتوسط بحـيرة عربيـة إسـلامية وتمكـن المسـلمون من النفاذ والسيطرة على مناطق فى جنـوب فرنسـا ومنطقـة الرفـيرا وجنـوب

إيطاليا وأسسوا لهم دولة على أجزاء من سويسرا(١) . ورغم أن هذا المد الجغرافى قد انحصر فى أعقاب معركة بلاط الشهداء ، إلا أنه من الواضح أن صلة العالم الإسلامى بالغرب الأوروبى لم تصل إلى حد القطيعة منذ العهد الأموى إلى يومنا هذا ، لكن هذا الاتصال ما بين الطرفين اعتورته لحظات تم فيها تبادل المواقع ، مما أثر على اقتباسات كل طرف من الآخر وتكوين صورة عنه .

فالموقف من الإسلام والمسلمين لدى الجانب الأوروبى بدأ حاقداً وسلبياً منذ القرن الثامن الميلادى استمر كذلك عبر قرون لاحقة حيث غذته طرق العصور الوسطى فى البحث المعتمدة على التقليد والبعد عن النقد هادفة لإثارة الحقد ضد ما صور على أنه العدو الأول ألا وهو الإسلام . وتطور هذا الموقف الأوروبى خلال فترة الحرب الصليبية ، حيث دخلت إلى العقل الأوروبى فكرة إبادة الإسلام والمسلمين ، وأحلت ارتكاب كل الفظائع وشجعت كل أنواع التشويه للطرف الإسلامى مدعومة بذلك برعاية الكنيسة ورجالها . وعلى الرغم من أن احتكاك الأوروبيين بالإسلام والمسلمين قد زاد خلال هذه الفترات ، وعلى الرغم من ترجمتهم للقرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية منذ سنة ١١٣٤م واهتمامهم منذ القرنين ١٢-١٣م بتدريس اللغات الشرقية ومن ضمنها اللغة العربية لغة الإسلام ، وبرغم ازدياد الاحتكاك المباشر بين الأوروبيين والمسلمين إلا أن ذلك جميعه لم يساهم بشكل حاسم

---

(١) شكيب إرسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ، ١٩٦٦ ، ص٣٢ ، ٣٣ ، ٦٨ - ٧٠ ، ١٢٢ .

فـى تغيير معالم الصـورة الأوليـة المشـوهة للإسـلام والمسـلمين فـى الغـرب الأوروبى ، وهنا لا بد من تساؤل : لماذا لم تتغير هـذه الصـورة رغـم ازديـاد المعلومات عن الإسلام فى الغرب ؟ ثم ما هـى القـوى التـى كـانت وراء عدم تغيير هذه الصورة ؟

نعتقد أن جزءاً من الإجابة على هذه التساؤلات يكمن فـى أمـور منهـا : المكونات التاريخية للغرب والتى تتمحور حول التقـاليد الموروثـة مـن الكتـاب المقدس والخلفية الكلاسيكية بما تعنيه من تراث يونـانى وروماـنى ، مرتبطـة بشكل أو بأخر بتجربة العصور الوسطى ، وما بـرز مـن خلالهـا مـن سيطرة ودور بارز للكنيسة والأديـرة بشـكل فـاعل منـذ القـرن الخـامس وإلـى بدايـات عصر النهضة ، ثم التطورات الحضاريـة بـدءاً مـن القـرن الثـالث عشـر ومـا رافقها من حركـة إصـلاح دينـى ، ثـم مـا تبـع ذلـك مـن محـاولات الاكتشـاف والتوسع الأوروبى وما تلى ذلك من تجربة الأمبريالية والاستعمار الحديـث . تلك هى الأساسيات فى التكوين التاريخى للغـرب الأوروبـى . كمـا أن عمليـة إحياء التراث اليهودى المسيحى المشترك ، والتى تمحورت على اعتبار العهـد القديم جزءاً من الكتاب المقدس المسيحى بحيث خلق ذلـك مفهومـاً بقـى سـائداً حتى يومنا هذا ، على أن هناك وحدة ثقافية بين اليهود والمسيحيين فى جـانب وأثر على تكوين فكرة أن العرب والإسلام هما نقيضا هذا الميراث ، ويمكـن أن نلمح ذلك بـالمفهوم الفاعل علـى السـاحة الأوروبيـة حتـى يومنـا هـذا بـأن المسلم والعربى هما من وجهـة نظـر عقائديـة وثقافيـة غربـاء علـى أوروبـا . ولذلك فإن الكثير من المحاولات الغربية للتعرف على الإسلام وبلاد المسلمين لم يكن فى أحوال كثيرة من أجل إقامة حوار أو تفاهم أو لقاء ، بل كان يهدف إلى تطوير أساليب القضاء على الإسلام أو تحجيم دوره أو الحد من خطـره ،

ولهذا تجدنا نلمح اختلافاً وتبايناً فى الآراء ما بين التطرف والاعتدال لتحقيق هذه الأهداف ، فمع أن مجمع فينا سنة١٣١٢م قرر إنشاء مدارس فى بلدان أوروبية (باريس ، أوكسفورد ، بولونيا ، أفينون ، وسلامنكا) لتدريس لغات منها العربية ، إلا أن ذلك لم يكن سعياً أوروبياً لفهم أفضل للحضارة الإسلامية بل كان فى الحقيقة تطويراً لأسلوب المواجهة بعد أن فشلت هذه المواجهة عسكريًا بخروج القوى الصليبية منهزمة من الشرق بعد سنة ١٢٩١م(١) . ويتأكد ذلك بالدعوة التى صدرت عن مجمع بازل سنة ١٤٣٣م والتى ترى أن تحقيق النصر وكسب الصراع مع المسلمين لا بد أن يستمر ولكن بالوسائل السلمية والتى تمثلت فى بعض الأفكار التى دعا إليها يوحنا السيغوفى (١٤٠٠- ١٤٥٨) والتى تمثلت بالعمل على عقد المؤتمرات من أجل تحقيق الأهداف السياسية والدينية معاً ، حيث يقول : "إن المؤتمر ولو استمر عشر سنوات فإن تكاليفه وآثاره لا تقارن بالتكاليف المرعبة والآثار السلبية القظيعة للحرب"(٢). وأيده فى ذلك نيقولاوس فون كيس الألمانى (١٤٠١-١٤٦١) ، الذى أضاف على أن فكرة عقد المؤتمرات المسيحية الإسلامية يجب أن تكون بعيدة عن سيطرة أو مشاركة رجال الكنيسة(٣) .

إن مثل هذه الدعوات هى وليدة للهزائم العسكرية للجانب الأوروبى فى تجربة الحروب الصليبية والتى من خلالها لمحنا دعوات أمثال وليم الطرابلسى بأن النصر على المسلمين لن يتم إلا بالتبشير للديانة المسيحية

(١) ريتشارد سوذرن : صورة الإسلام فى أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة وتقديم رضوان السيد ، ط١ ، معهد الإنماء العربى ، بيروت ١٩٨٤ ، ص١١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص١٣٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص١٣٨ .

وبالوسائل السلمية(١) ، والشاعر البافارى فولغرام فون أيشنباخ حيث دعا لعدم قتل المسلمين رغم همجيتهم ، وذلك لأنهم لا يعرفون المسيحية وهو بذلك لا يخرج عن إطار الفكرة الداعية للقضاء على المسلمين وإن اختلف فى المنهج المتبع لذلك(٢) . على أن مثل هذه الدعوات لم تكن الوحيدة فقد رافقتها دعوات للحرب والإبادة للمسلمين لما فى ذلك من خدمة للمسيحية والإنسانية بشكل عام كتلك الدعوة التى قادها جان جيرمان الفرنسى (١٤٠٠-١٤٦١م) ، وعلى كل فالدعوات والمحاولات بمجملها هدفها القضاء على الإسلام ولكن بأساليب مختلفة تراعى ظروف المجتمع الأوروبى وظروف الخصم ، وهذه الدعوات بمجملها لم تخرج عن قاعدة أساسية فى الفكر الغربى - الإحتواء والتملك - ونلمح ذلك فى دعوة إيناس سلفيوس (١٤٠٥ - ١٤٦٤م) للسلطان العثمانى محمد الثانى لاعتناق المسيحية ليصبح بذلك زعيماً للعالم ، ورغم أن هذه الدعوة لم تلاق آذاناً صاغية إلا أن الأوروبيين والكنيسة لم يتخليا عن ذلك إلى يومنا الحالى ، وإن كان النمط الآن التبعية الثقافية والاقتصادية والتكنولوجية .

والحقيقة أن الجانب الأوروبى والكنسى منه قد حاول فى عصرنا الحديث القيام بمحاولات للحوار والتفاهم مع الجانب الإسلامى آخذاً فى الاعتبار معيقات مثل هذا الحوار الإسلامى المسيحى ، ففى المؤتمر الثانى للفاتيكان سنة ١٩٦٥م قد أصدر إعلان ينص على ما يلى : " ... يجب علينا

---

(١) المصدر السابق ، ص١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) شاخت وبوزورث : تراث الإسلام ، ترجمة محمد زهير السمهورى وآخرون ، جـ١، طـ٢ ، ١٩٨٨ (سلسلة عالم المعرفة ، رقم ٨) ، ص٤٨ - ٤٩ .

كمسيحيين ونحن نخاطب المسلمين أن نفكر قبل كل شيء فى صعوبات وعوائق الحوار والتى تتعلق بنا إلى حد كبير ، إن المسيحيين قد أوقفوا بل حطموا انطلاقهم الحضارى نتيجة الحروب الصليبية التى أسهمت بوضع حد لأكثر الأوقات ازدهاراً فى التاريخ الإسلامى "(١) ، ورغم أن هذه الدعوة تمثل اعترافاً بجرائم أوروبا المسيحية قديماً بحق الإسلام إلا أن بها من الدهاء والخبث ما يؤكد الإصرار الغربى على نمطية النظرة للإسلام ، فهذه الدعوة تعتبر أن العداء المسيحى للإسلام هو من مخلفات الماضى ، ويتناسى إعلان الفاتيكان الاستعمار الأوروبى الحديث والمعاصر وما جلبه من ويلات على العالم الإسلامى ، وعلى الرغم من ذلك فهذه المحاولة لا تخرج عن كونها نسمة أما إعصار من الكراهية لا يزال مستمراً فى الغرب إلى يومنا هذا ، حتى أننا نأخذ بفكرة وليم ستودارت القائلة : " .... لبعض الأسباب التاريخية غير التاريخية كان الغرب للديانتين الهندوسية والبوذية أكثر ألفة منه للإسلام، لم يسء الغربيون فهم الإسلام فقط ، بل إنهم به أكثر جهلاً منهم بأى غير دين مسيحى حتى ليجوز أن يدعى الإسلام بأنه الدين المجهول "(٢) . لم يقصد بذلك أن الإسلام لم يدرس ولم تعمل عنه دراسات فى الغرب وإنما الحقيقة أنه على الرغم من الدراسات الكثيرة عن الإسلام والمسلمين وما قام به المستشرقون فى هذا المجال إلا أن ذلك لم يعدل من الصورة العامة عن الإسلام فى الغرب الأوروبى ، وبطبيعة الحال الدراسات الاستشراقية لم تكن

---

(١) حليم اليافى وزير ماردينى : من أجل حوار إسلامى مسيحى ، موقف المسيحيين من الإسلام كما حدده الفاتيكان ، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٣ ، ص٩٢ – ٩٦ .

(2) William Stoddart: Sufism, Thorson Publishers, 1976, p. 21.

على نمط واحد إلا أن المنصفين منهم لـم يستطيعوا أن يغيروا هذه الصـورة بشكل كامل . وعلى أية حال نجد أن الصورة المكونة عن الإسلام والمسـلمين متباينة فهى لدى الأكاديميين غيرها لـدى الساسـة ورجـال الإعـلام والجمهور الأوروبى الذى لا زال متأثراً بالنقص المشوه والمتعمد عن الإسلام والمسلمين والذى تغذيه الدعاية الصهيونية المعادية للإسـلام والعروبـة وبنـاءاً علـى ذلـك يمكننا القول أن الإسلام بصفائه وحقيقته وعمقه الإنسانى لا زال ديناً مجهولاً لدى أوروبا وذلك لإصرار الأوروبى فى الغالب الأعم على التشبث بـالصورة القديمة عن الإسلام . وللحقيقة أن مما زاد الأمر سوءاً فى ذهن الأوروبى هـو ما يشاهده أو يسمع عنه من تناحر الدول الإسلامية أو ما يظهر هنا وهناك فى العالم الإسلامى مـن حركـات متطرفـة أو مـا تعانيـه الشـعوب الإسـلامية مـن أزمات اقتصادية واجتماعية حادة مما جعل الأوروبى يرى فى هـذا الأخـر أو المسلم صورة مخالفة عـن حضارتـه واقتصـاده وحياتـه الاجتماعيـة ، وعلـى الرغم من أن الجزء الأهم من مشاكل العـالم الإسـلامى فـى جوانبهـا المختلفـة هى من صنـع الغـرب أو تـأثيره إلا أن ذلـك غـير واضـح بشـكل جلـى للفـرد الأوروبى مما يزيد الأمر سوءاً ويدعو بالوقت نفسه إلى بذل المزيد من الجهد الإسلامى لتوضيح ذلك بمختلف الوسائل والإمكانيات المتاحة ، ويبـدو هنـا أن الأقليات المسلمة فى أوروبا يمكنها أن تقوم بدور رئيس فى هذا المجـال علـى أن يتوفـر لهـذه الأقليـات المزيـد مـن الدعـم والرعايـة مـن الـدول الإسـلامية والمنظمات والاتحـادات الإسـلامية ، إلا أن ذلـك سيبقى محـدود الأثـر إن لـم يرافقه إصلاح لأوضاع العالم الإسلامى حتى لا تكـون الأقليـة الإسـلامية فـى أوروبا مجزأة متناحرة لأنها تعكس العالم الإسلامى .

المسلمون فى ألمانيا :

عند الحديث عن المسلمين فى ألمانيا فى عصرنا الحديث تعود بنا الذاكرة تاريخياً للقول بأن العلاقات الإسلامية الألمانية قد شهدت مراحل تختلف فى تفصيلاتها عن العلاقات الإسلامية الأوروبية وأن اتفقت معها فى الإطار العام . فالبعض يرجع العلاقات الإسلامية مع ألمانيا من حيث كونها علاقات جيدة إلى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣/ ٧٨٦ - ٨٠٩) وما تم بينه وبين شارلمان أقوى أباطرة الغرب أنذاك من تبادل للرسل والهدايا(١) . وقد يرجعها البعض إلى فترة الحروب الصليبية حيث تم إجراء مفاوضات وتفاهم بين الملك الكامل الأيوبى (ت٦٣٥/١٢٢٧م) وبين فريدرك الثانى إمبراطور ألمانيا (١٢١٥-١٢٥٠)(٢) . وقد يرجع البعض العلاقات الجيدة بين الألمان والمسلمين إلى ما تم من تطوير للاتصالات العثمانية مع ألمانيا وخاصة فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، وقد يردها الدارس إلى ما مثلته زيارة غليوم الثانى سنة ١٨٩٨م للأستانة ودمشق والقدس حيث عبر فى هذه الزيارة عن صداقته وتعاطفه مع المسلمين(٣) ، بحيث تولدت قناعة لدى العرب والمسلمين لصداقة ألمانيا لهم وإن كان ذلك لم يكن إلا وهماً حيث أن ألمانيا لم تكن تعمل إلا فى سبيل مصالحها وإن أبدت تعاوناً مع المسلمين فمرد ذلك لتعارض أطماعها مع

(١) نظام العباسى : العلاقات الصهيونية النازية وأثرها على فلسطين وحركة التحرر العربى ، ط١ ، الكويت ١٩٨٤ ، ص١٥ .

(٢) ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ٤، تحقيق حسنين ربيع ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص٢١٥ .

(٣) نظام العباسى : ص١٧ .

الأطماع الأوروبية الأخرى(١) ، وهى بذلك حاولت استغلال التقرب من العرب والمسلمين فى سبيل تحقيق أهدافها وضرب اعدائها الأوروبيين ولم يكن هدفها السعى لتحقيق آمال وطموحات الجانب الإسلامى .

لقد كان للألمان دوراً أخرًا فى التبشير بالديانة المسيحية بحيث تعاونت مع الإنجليز ضمن جمعية لندن التبشيرية فى عهد فريدريك فلهليم الرابع سنة ١٨٠٩م كما ساهموا فى بناء كنيسة المسيح سنة ١٨٤٩م ، كما أن جنوب ألمانيا كان نقطة انطلاق لحركة الهيكل سنة ١٨٥٤م ، كما حاولت ألمانيا تنفيذ مشاريع استيطان للألمان فى فلسطين سنة ١٨٦٨م(٢) ، وفى الحقيقة أن ذلك جميعه لم يكن شاذاً على القاعدة الأوروبية فى التعامل مع الإسلام وبلاده بل إن أوضاع ألمانيا الأوروبية وعداواتها مع الدول الأوروبية التى سبقتها فى السيطرة على أجزاء من العالم الإسلامى أجبر الألمان لتغيير أساليبهم وسياستهم ولو إلى حين .

إن التواجد الإسلامى فى ألمانيا يعتبر من منجزات القرن العشرين ، ولم يمنع ذلك من وجود أفراد مسلمين فى مختلف مناطق ألمانيا كتجار(٣) ، كما وجدت فى ألمانيا جماعات مسلمة من مختلف أقطار الأرض قبل الحرب العالمية الأولى ، وكان الجزء الأكبر منهم ممثلين لطرق صوفية ويشير إلى

---

(١) فرنرانده ، بيتر هاينة : " الوطنيون العرب ونشاطهم السياسى والصحفى فى ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى " ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢٨ سنة ١٩٨٢ ، ص٢٠٣ .

(٢) نظام العباسى : ص٢٤ – ٢٥ .

(3) Duran Khalid: Der Islam in der Diaspora, in : Der Islam in der Gegenwart, Verlag C. H. Beck, Munchen, 1984, S. 451.

ذلك شكيب أرسلان(١) ، حيث قدر عدد المسلمين فى ألمانيا ومن البهائية خاصة بحوالى ٤٠٠٠ وذلك عام ١٩١٠م وجاء تقديره لهذه الأعداد بناء على حديث له مع البروفسوريك مؤسس نادى الولاء التركى الألمانى(٢) ، كما أن ألمانيا شهدت زيارات لمجموعات قيادية من العالم العربى والإسلامى خلال فترة الحرب العالمية الأولى أو قبلها ، ومن هذه الشخصيات الإسلامية والوطنية العربية التى زارت ألمانيا شكيب أرسلان ومحمد فهمى وعبد الملك حمزة الذى استطاع أن يصدر مجلة فى ألمانيا باسم العالم الإسلامى ، وكذلك عبد العزيز جاويش الذى قدم لألمانيا سنة ١٩١٦م وكان له دوراً بارزاً فى نشر مقالات عن العروبة والإسلام فى المجلات والصحف الألمانية(٣) ، وكذلك الشيخ صالح الشريف التونسى الذى قدم لألمانيا سنة ١٩١٤م ، حيث دعا إلى إقامة جامعة إسلامية فى ألمانيا و كتب عن الجهاد فى الإسلام كتيباً ترجمه الدبلوماسى الألمانى البارون شابنغر سنة ١٩١٥م وظهرت هذه الترجمة فى برلين(٤) ، وقد عملت ألمانيا على الاستفادة من تواجد هذه الشخصيات على أرضها لخدمة أغراضها السياسية والعسكرية فى الحرب

---

(١) شكيب إرسلان : ١٨٦٩ – ١٩٤٦ .

سافر إلى ألمانيا فى مهمة رسمية سنة ١٩١٧ ، وأقام فى برلين ، ثم فى سويسرا من ١٩١٨ – ١٩٢٠ حيث عاد إلى ألمانيا ، ثم أقام فى سويسرا من ١٩٢٥ – ١٩٤٦ .

انظر : نازك سابا يارد : الرحالون العرب وحضارة الغرب ، ط١ ، مؤسسة نوفل ، بيروت ١٩٧٩ ، ص٣٠٤ – ٣٠٦ .

(٢) عبد الحميد بخيث : المجتمع العربى والإسلامى ، جـ٢ ، دار المعارف ١٩٦٦ ، ص٣٤٩ .

(٣) فرنراندة : ص٢٠٧ – ٢٠٨ .

(٤) المصدر السابق : ص٢٠٩ .

العالمية الأولى ، حيث عملت على نشر مقالات لبعض هؤلاء بهدف التأثير على الأسرى المسلمين الذى وقعوا فى قبضة الألمان كما أصدرت مجلة إسلامية باسم الجهاد وذلك فى برلين سنة ١٩١٥م حيث طبع منها ١٥٠٠٠ نسخة وبلغات مختلفة من ضمنها اللغة العربية(١) .

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى أقيم فى الأراضى الألمانية معسكر للمسلمين الأسرى وذلك فى منطقة ونسدورف قرب برلين سنة ١٩١٨م والذى أطلق عليه اسم معسكر الهلال(٢) ، وقد أقيم فى هذا المعسكر مسجداً هو الأول الذى أقيم على أرض ألمانية ، وقد أعطى فيما بعد للمجموعات القادمة من القرم وشرق روسيا(٣) ، كما قدمت ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى مجموعات من الطائفة الأحمدية(٤) ، (أنجومان-إشاعة الإسلام) حيث بنت لها مسجداً فى برلين سنة ١٩٢٧م وقد تعرض هذا المسجد للقصف أثناء الحرب العالمية الثانية ثم أعيد إصلاحه سنة ١٩٥١م(٥) .

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية تزايد توافد جماعات إسلامية إلى ألمانيا وقد كانت الجماعات التى وفدت منذ سنة ١٩٤٥م وحتى بداية

---

(١) المصدر السابق : ص٢١٢ .

(٢) المصدر السابق : ص٢١٠ .

(٣) عبد الرحمن زكى : السملمون فى العالم اليوم ، ط١ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص١١٢ – ١١٣ .

(٤) الأحمدية : حول هذه الجماعة والانقسامات التى حلت بها وموقف الدول الإسلامية منها انظر : عبد الرحمن زكى ، ص٩٧ ، ١١٤ – ١١٥ ،

Heribert Busse; Die theologischen Beziehungen des Islam zu Judentum and Christentum, Darmstadt, 1988, S. 160.

(٥) عبد الرحمن زكى : ص١١٢ – ١١٣ .

الخمسينيات فى الغالب الأعم من اليوغسلافيين(١) ، ثم كانت المجموعات الوافدة فى الخمسينيات والستينيات من مختلف مناطق العالم الإسلامى وأن كان الغالب على هذه المجموعات العنصر التركى والذى قدم بالدرجة الأولى كعمال ، أما المجموعات التى قدمت لألمانيا من والستينيات حتى يومنا هذا فهم من دول مختلفة ومزيج من الطلبة والأكاديميين والعمال الذين توزعوا فى مختلف مناطق ألمانيا وذلك بعكس المجموعات الإسلامية التى وفدت خلال وبعد الحرب العالمية الثانية من المناطق التى سيطرت عليها روسيا وضمت جماعات أخرى من بلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا حيث كان تواجدهم مركزاً فى الغالب الأعم فى مناطق ميونخ .

وفيما يتعلق بتطور أعداد المسلمين فى ألمانيا عبر هذه الموجات المتلاحقة فإن إعطاء رقم دقيق لهذه الأعداد غير ممكن ولكنها رغم كونها تقديرية إلا أنها تعطى مؤشراً لمثل هذا التزايد فى الأعداد ، ففى عام ١٩٣٩م عددهم بـ ٣٥٠ شخصاً من التتار والترك والعرب والإيرانيين(٢) ، وفى سنة ١٩٥٤م قدرت أعدادهم بـ ٥٠٠٠ تقريباً معظمهم عرب وتتار جاؤا خلال الحرب الثانية ، ثم زادت هذه الأعداد لتصل إلى ٨٠٠٠ فى برلين(٣) لوحدها، كان من بينهم ٦٠٠٠من اليوغسلاف(٤) ، وقد بلغت تقديرات الأعداد للجماعة الإسلامية فيألمانيا سنة١٩٨١م ما بين١٥٠٠٠٠٠، إلى ١٧٠٠٠٠٠

(١) عبد الله أحمد قادرى الأهدف : حوارات مع مسلمين أوروبيين ، دار القلم ، دمشق، والدار الشامية ، بيروت ، ١٩٩٠ ، ص٢٢٨ .

(٢) المصدر السابق : ص١١٣ .

(٣) المصدر السباق : ص١١٥ .

(٤) المصدر السبق : ص١١٢ - ١١٣ .

نسمة(١) ، من بينهم ١٢٠٠٠٠٠ أتراك و ١٢٠٠٠٠ يوغسلافيين و ٦٠٠٠٠ من رعايا الدول العربية ، و ٣٠٠٠٠ من بلدان أسيوية وأفريقية مختلفة ، و ٢٠٠٠٠ من الإيرانيين ، و ٦٠٠٠ من البلدان الشيوعية(٢) ، وتشير الاحصائيات الألمانية إلى أن أعداد المسلمين فى ألمانيا قد وصلت إلى ١٧٠٠٠٠٠ فى سنة ١٩٨٧م بحيث شكلوا ما نسبته ٢,٧٥٪ من السكان فى ألمانيا(٣) ، وهذه التقديرات هى التقديرات نفسها لسنة ١٩٨٣م(٤) ، ولقد بلغ تعدداً الأجانب فى ألمانيا فى نهاية سنة ١٩٨٩م ، ٤٨٥٠٠٠٠ ، شكل الأتراك من بينهم ما نسبته ٣٣٪ واليوغسلافيا ١٣٪ ، أى بمعنى أنه من بين كل ١٣ مواطن ألمانى يوجد مقيم أجنبى ، وبعد الوحدة الألمانية سيضاف إلى هذه الأرقام ما مجموعة ١٩٠٠٠٠ من الأجانب كانوا يقيمون فى ألمانيا الشرقية وغالبيتهم من الفيتناميين حيث يشكلون ما نسبته ٣١٪(٥) ، ومن هذه المعطيات الأحصائية يتبين أن أعداد المسلمين فى ألمانيا تشكل النسبة الأعلى من مجموع الأجانب المقيمين فى ألمانيا وهذا بطبيعته قد يعنى أن العداء للأجانب لأسباب مختلفة سيكون موجهاً بدرجة رئيسة للأقلية المسلمة ، وعلى الرغم من أن تقدير عدد المسلمين فى ألمانيا غير دقيق وغير ثابت تبعاً لظروف ألمانيا الاقتصادية وظروف البلدان الإسلامية التى تشكل عاملاً لزيادة

---

(١) محمود حمدى زقزوق : الإسلام ومشكلات المسلمين فى ألمانيا ، ط١ ، دار الثقافة القاهرة ١٩٨١ ، ص٣ .

M. S. Abdullah; Geschichte des Islam in Deutschland, S. 76.

(٢) محمود حمدى زقزوق : ص٣ .

(٣) مجلة العربى : عدد يناير ١٩٨٧ (هدية العدد : المسلمون فى العالم) .

(4) Zeit Magazin, Nr. 11. marz 1983, S. 98.

(5) DAAD Letter, Nr. 4, Dezember 1990, S. 8.

الهجرة إلى ألمانيا كما حصل أثناء الحرب العراقية الإيرانية ، وأثناء الحرب الأهلية فى لبنان وحرب افغانستان .

أما فيما يتعلق بمذاهب الجماعات الإسلامية فى ألمانيا فالغالبية من السنة حيث أن نسبة المسلمين الشيعة من بينهم ١٥٪ وهى أكثر من نسبة المسلمين الشيعة من بين الأقلية الإسلامية فى إنجلترا مثلاً حيث يشكلون ما نسبته ١٠٪(١) .

الألمان المسلمون :

لقد كان من تأثير الاتصال الألمانى بالعالم الإسلامى وازدياد أعداد المسلمين فى ألمانيا كما سبق وأشرنا ، أن تأثر المجتمع الألمانى ببعض العادات والتقاليد الإسلامية بنفس الوقت الذى تأثرت به الأقلية المسلمة ببعض العادات والتقاليد الألمانية ورغم أهمية هذا الموضوع إلا أنه لا يزال مغفلاً وما يمكننا رصده هو مدى تأثر الألمان بمبادىء الإسلام مما أدى إلى اعتناق مجموعات ألمانية للديانة الإسلامية .

ترد إشارات إلى أن أول مسلم ألمانى قد اعتنق الإسلام وهو فى الشرق الإسلامى كان من مدينة نورنبيرغ ويدعى يوهان فيلد ، وذلك سنة ١٦٠٧م حيث كان فى مصر ورافق قافلة الحج إلى الأراضى المقدسة وعاد لموطنه سنة ١٦١١م(٢) ، وأن كنا لا نستطيع أن نجزم بأسبقيته فى ذلك فقد يكون هناك من سبقه فى ذلك من الألمان ، ولكن أخبارهم لم تصلنا .

---

(1) Duran Khalid: S. 446.

(2) Al-Islam, Zeitschrift von Muslimen in Deutschland, isla mische Zentrum Munchen, Nr. 3/1987, S. 22 - 26.

ويمكننا أن نرصد انتشار الإسلام بين الألمان من خلال تتبع ما ورد من إحصائيات عن أعدادهم فى فترات مختلفة ، فحتى سنى ١٩٣٩م كان عدد الألمان المسلمين ١٦٨ شخصاً(١) ، وتبعهم فى الفترة ما بين سنة ١٩٤٥م إلى ١٩٤٩م ما يقارب المئة شخص(٢) . ويقدر هربرت بوسيه عددهم حالياً بـ ٦٠٠٠ مسلم ألمانى ، فى حين أن عدد المسلمين من السويسريين يبلغ ٤٠٠٠ مسلماً(٣) ، وحسب تقديرات المسلمين الألمان أنفسهم يصل العدد إلى حوالى ١٠٠٠٠ مسلماً(٤).ويشير زقزوق إلى أن ١٢٠٠امرأة ألمانية قد اعتنقت الإسلام عن طريق الزواج حتى سنة ١٩٨١م(٥) ، ويمكن أن نرى أن هذا العدد الأخير فى تزايد ، حيث بلغ عدد حالات الزواج من ألمانيات من قبل رعايا الدول العربية فى الفترة ما بين ١٩٨١ إلى ١٩٨٢م ٣٦٤٠ حالة(٦) ، ويفترض أن عدداً أكبر قد حصل بعد سنة ١٩٨٣م نظراً لتشديد إجراءات الإقامة فى ألمانيا مما دفع الأجانب للزواج من ألمانيات لتسهيل أمور إقامتهم ، ويفترض أن عدداً كبيراً من الزوجات الألمانيات قد اعتنقن الإسلام .

ويمكن القول بأن الأعداد التى ذكرت بالنسبة للمسلمين الألمان هى تقريبية حيث أن هناك مجموعات أخرى من الألمان قد اعتنقت الإسلام ولكنها

---

(١) عبد الرحمن زكى : ص١١٢ .

(٢) المصدر السابق : ص١١٢ .

(3) Heribert Busse: S. 181.

(٤) عبد الله أحمد قادرى الأهدل : ص٨٥ .

(٥) محمود حمدى زقزوق : ص٣ .

(6) Zaid Said Al-Jamal: Probleme des Parallelen Zweitsprach- en erwerbs, Berlin 1987, S. 3 - 5.

(رسالة كتوراه غير منشورة) .

لم تجهر بذلك حرصاً منها على مكانتها الاجتماعية والوظيفية فى المجتمع الألمانى .

والمسلمون الألمان ينضوون فى جمعيات ومراكز إسلامية خاصة بهم بحيث تتفاوت علاقات هذه الجمعيات والمراكز مع الأقلية الإسلامية غير الألمانية ، فهم يشكلون حلقات عمل ودعوة مشتركة مع المسلمين غير الألمان فى بعض الأحيان وفى الغالب الأعم يعملون وفق طريقتهم الخاصة . ومن هذه المجموعات والمراكز نذكر ما يلى :

١ - مجموعة زوست فى شمال ألمانيا وتعتبر نفسها أول جماعة إسلامية فى ألمانيا حيث تمثل امتداداً للجماعة الإسلامية التى وجدت فى برلين قبل الحرب العالمية الثانية(١) .

٢ - رابطة السيدات الألمانيات المسلمات والتى أسستها أمينة سوزولو فى برلين سنة ١٩٣٩م وقد كان لهذه الرابطة نشاطاً مميزاً أثناء الحرب العالمية الثانية(٢) .

٣ - رابطة المسلمين الألمان التى أسست سنة١٩٤٩م فى برلين وكان يرأسها نوفاكنسكى(٣) .

٤ - مجموعة هامبورغ وتأسست سنة ١٩٥٥م وهذه المجموعة لا تتعاون بشكل كبير مع المسلمين من غير الألمان وذلك لعدم رغبتهم بأن ينظر

(١) عبد الله أحمد قادرى الأهدل : ص٢٢٤ .

(٢) عبد الرحمن زكى : ص١١٣ .

(٣) المصدر السابق : ص١١٥ .

إليهم بأنهم مرتبطون بمسلمين أجانب مما يؤثر على مكانتهم في المجتمع الألمانى وذلك حسب قول المسلم الألمانى أحمد فون دنفر(١) .

٥ - مجموعة صوفية فى برلين وتقيم علاقات جيدة مع المسلمين الأتراك(٢).

٦ - مجموعة أصحاب دار الإسلام وهى من الجماعات النشيطة حيث يعقدون مؤتمرات سنوية للمسلمين الناطقين بالألمانية وتعقد هذه المؤتمرات بالتناوب فى مدن ميونخ وأخن وهامبورغ(٣) . وعقد أول مؤتمر لها سنة ١٩٧٦م ، وكان حضوره حوالى ٣٠ شخصاً بينما حضر لمؤتمرهم الثامن والعشرين سنة ١٩٨٦م ما يقارب ٤٠٠ شخصاً(٤) .

٧ - وهناك تجمعات أخرى للألمان المسلمين فى مناطق ألمانية مختلفة كتجمع النساء المسلمات فى كولن ، والتجمع الإسلامى الألمانى فى شتوتجارت ويقيمون علاقات جيدة مع المركز الإسلامى فى مدينة ميونخ(٥) ، وتجمع آخر للألمانيات المسلمات فى بيرن هاوزن ، حيث يعملن ضمن هدف أساسى وهو تعديل نظرة الألمان للأقلية المسلمة(٦) . كما أن هذه الجماعات تنشط للدفاع عن قضايا المسلمين . كما أنها تتفاعل مع القضايا الإسلامية بشكل عام حيث أسست لهذا الغرض

(١) عبد الله أحمد قادرى الأهدل : ص٢٢٤ .

(٢) المصدر السابق : ص٢٢٤ .

(٣) مجلة المجتمع عدد ٧٢٥ ، سنة ١٩٨٥ ، الكويت ، ص٣٤ - ٣٥ .

(4) Al- Islam, Nr. 4/1986, S. 5 - 6.

(٥)عبد الله أحمد قادرى الأهدل : ص٢٢٦ .

(6) Al-Islam, Nr. 1987, S. 5.

جمعيات لمساعدة المسلمين القادمين إلى ألمانيا من مناطق مضطربة في العالم الإسلامى ، كما تعمل على جمع التبرعات العينية والنقدية لهذه الأغراض ، فقد جمعت تبرعات لمسلمى أفغانستان وللاجئين الأوغنديين فى كينيا . إلا أنه من الملاحظ أن القضايا الإسلامية المختلفة لا تحظى بنفس درجة الاهتمام ، ففى الوقت الذى نجد فيه اهتماماً بارزاً بقضية أفغانستان لا نجد مثل ذلك للقضية الفلسطينية أو اللبنانية مما يشير إلى أن موقف هذه الجماعات لا زال متأثراً بالموقف السياسى الأوروبى من هذه القضايا .

أما عن الطرق التى تم من خلالها تعرف هذه الجماعات على الإسلام واعتناقها له كدين لها ، فقد تم ذلك من خلال نشاط رجال الدعوة الإسلامية وبخاصة الجماعات الصوفية التى تواجدت فى ألمانيا مبكراً(١) ، أو من خلال إطلاع هؤلاء الألمان على القرآن الكريم بترجمته الألمانية ، حينما أدركوا أن الإسلام ليس كما صور لهم عبر أجهزة الدعاية الكنيسة كما وجدوا فيه حلاً لمشكلات مجتمعهم الكثيرة(٢) . أو من خلال الرحلة إلى بلدان العالم الإسلامى أو عن طريق الزواج من مسلمين بما يتعلق بالنساء المسلمات الألمانيات ، كما أن هناك جزءاً من الألمان الذين اعتنقوا الإسلام قد تعرف على الحضارة الإسلامية والدين الإسلامى من خلال عملهم الأكاديمى كمستشرقين أو من طلاب أقسام الدراسات الشرقية فى الجامعات الألمانية .

---

(١) عبد الله أحمد قادرى الأهدل : ص٥٣ ، ٦٥ .

(٢) المصدر السابق : ص٥٩ .

التنظيمات الإسلامية فى ألمانيا :

إن الأقلية المسلمة فى ألمانيا من حيث أنها تعكس تمثيلاً لأقطار إسلامية مختلفة ، نجدها قد نظمت نفسها على أساس قطرى أو على أساس مذهبى ، ومن المؤسف أن هذه الأقلية لم تتحد ضمن تنظيم أو جمعية أو هيئة إسلامية واحدة ، ولقد كان لذلك أثراً سيئاً على مجموعها فى الساحة الألمانية. وإن الدارس لأوضاع الأقلية الإسلامية فى ألمانيا ليجد أن هذه قد تمحورت حول تنظيمات مختلفة ومتصارعة أحياناً أخرى ، فمنها الجماعات التى تدين بولاءات لدول إسلامية بعينها ، ولقد أدى ذلك إلى صعوبة حصول الأقلية المسلمة على اعتراف قانونى من الحكومة الألمانية ، ويمكننا أن نشير إلى بعض هذه التنظيمات :

١ - الجمعية الإسلامية لأوروبا الغربية وتضم الجماعات الإسلامية من روسيا وبلغاريا ورومانيا وبولندا ، وقد أسست بعد الحرب العالمية الثانية ، ومركزها مدينة ميونخ(١) .

٢ - تجمع للمسلمين الأتراك ويضم تنظيمات مختلفة من بينهم جماعة نجم الدين أربكان وتعرف باسم جماعة (ملى قرش) وطائفة السليمانية وجماعة بديع الزمان النورسى وجماعة ديانة ، وجمعية القوميين الأتراك ، وأغلب هذه التجمعات تأخذ من مدينة كولن مركزاً لها(٢) ، وهناك تنظيمات تركية أخرى مثل جماعة الذئاب الرمادية ، ولها نشاط فى مختلف المدن الألمانية(٣) .

---

(١) عبد الرحمن زكى : ص١١٤ .

(٢) عبد الله أحمد قادرى الأهدل : ص٨٤ .

(3) Duran Khalid: S. 457.

٣ - جماعة الإخوان المسلمون وجماعة حزب التحرير ، فالأولى لها مراكز فى ميونخ وآخن ، وتضم فى صفوفها بعض المسلمين العرب من الشرق العربى والمغرب العربى فى حين أن الجماعة الثانية لا يوجد لها تجمع بارز(١) .

٤ - جماعة المسلمين الباكستانيين ويتركز نشاطهم فى مدينة فرانكفورت(٢).

٥ - تنظيم إسلامى إيرانى ويأخذ من هامبورغ مركزاً له ، وقد بدأ نشاطه منذ عهد الشاه ، واستمر بعد الثورة الإيرانية ولكن هذا التنظيم تعرض لهزات وصراعات داخلية ما بين المؤيدين والمعارضين للثورة(٣) .

٦ - تنظيمات صوفية منتشرة فى مختلف مناطق ألمانيا ومن أشهرها جماعة القاديانية والذين يرتبطون بعلاقات جيدة مع الحكومة الألمانية ويمنحون تسهيلات أكثرمن غيرهم والبهائية ومركزهم فرانكفورت ، والبرهانية والتى تضم فى صفوفها مجموعات من الألمان المسلمين ويتبع لهم جماعة دار شنيدى والتى تقوم بحملات دعائية كبيرة ولكن أعدادهم قليلة(٤) .

٧ - اتحاد الطلاب المسلمين فى أوروبا ويتخذ من مدينة آخن مركزاً له ، ويتمركز نشاطه من مسجد بلال وكانت تصدر عنه صحيفة باسم الرائد(٥) .

---

(١) عبد الله أحمد قادرى الأهدل : ص٨٤ . ومحمود حمدى زقزوق ، ص٤٠ .

(٢) عبد الله أحمد قادرى الأهدل : ص٨٤ .

(٣) المصدر السابق : ص٨٥ .

(٤) المصدر السابق : ص٥٦ ، ٢٢٦ .

(٥) محمد السيد غلاب ، حسن عبد القادر ، محمود شاكر : البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة فى العالم المعاصر المطابع الأهلية ، الرياض ، ٧٥٥ .

٨ - اتحاد المسلمين فى برلين وكان زعيمه أمام مسجد الفتح ويدير أموره الآن أحد المسلمين الألمان والذى يدعى يحيى شولستكة(١) .

٩ - اتحاد العمال المسلمين فى أوروبا والذى سجل كرابطة سنة ١٩٨٠م ومقره كولن ومن ضمن أهداف هذا الاتحاد العمل على توثيق الصلات بين المسلمين ونشر التصور الإسلامى الصحيح ويتخذ من الوسائل والأساليب الموافقة للشرع الإسلامى طريقاً لتحقيق أهدافه(٢) .

١٠ - جماعة الأحمدية وقد كان لها نشاط فى ألمانيا منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية حيث بنت مسجداً فى برلين سنة ١٩٢٧م ومسجداً فى هامبورغ سنة ١٩٥٧م ، وعملت على ترجمة القرآن ولها نشاط مميز من مسجد النور فى فرانكفورت ، ويصدر عن هذه الجماعة مجلة ناطقة باللغة الألمانية منذ ١٩٤٨م تعرف باسم الإسلام ولهذه الجماعة ما يزيد على ٧٠ مركزاً فى مختلف أنحاء العالم ويبلغ اتباعها حوالى ٣ مليون(٣) . وقد تعرضت هذه الجماعة لخطر الانقسام بحيث أصبحت أكثر من جماعة كما أنها عانت من المواقف التى اتخذت بحقها فى البلدان الإسلامية وبخاصة فى الباكستان .

---

(١) عبد الله أحمد قادرىء الأهدل : ص٦٣ .

(٢) محمود حمدى زقزوق : ص٥٠ .

(٣) عبد الرحمن زكى : ص١١٥ ، ١٣٣ .

Heribert Busse: S. 160.

١١ – اتحاد الطلاب الأفارقة المسلمين وقد أسس فى مدينة فرانكفورت سنة ١٩٨٦م ، ومن ضمن أهدافه العمل على تعميق الاتصال مع الاتحادات والجمعيات الإسلامية الأخرى(١) .

كما أن هناك العديد من التجمعات الإسلامية والتى يزيد عددها عن ٣٥٠ جمعية فى مختلف المناطق الألمانية بحيث أنك تجد فى المدينة الواحدة أكثر من تنظيم إسلامى ، ويتبع للجماعة الإسلامية فى ألمانيا العديد من المراكز والتى تهتم بشؤون هذه الجماعة من الناحية الدينية ، ومن هذه المراكز مركز ميونخ ، فرانكفورت ، شتوتجارت وفوبرتال وأحدثها مركز نورنبيرغ والذى يهدف للتقارب بين الجماعات الإسلامية المختلفة وقد عمل على تحقيق اتفاق بين المسلمين الأتراك والعرب والأفغان واليوغسلاف والأفارقة وشكل مجلس إدارة مثلت فيه هذه الجماعات بشكل متواز والهدف من وراء ذلك إضافة إلى تعميق الصلات بين المسلمين هو العمل على الحصول على اعتراف رسمى بالإسلام فى ألمانيا(٢) . وبعض هذه المراكز مثل مركز ميونخ يقوم بنشاط مميز ضمن قسمين : قسم للدعوة بحيث يشرف على تنظيم التجمعات والمؤتمرات العامة واستقبال وفود ألمانية من طلاب المدارس والكنائس بهدف تعريفهم على الإسلام كما يصدر هذا القسم نشرات ويطبع كتب عن الإسلام باللغة الألمانية والتركية ، والقسم لآخر وهو قسم الخدمات الذى يشرف على المدارس الإسلامية فى ميونخ والمدرسة القرآنية التابعة للمركز كما يهتم باتمام عقود الزواج وإجراءات الدفن حسب تعاليم الإسلام . كما يصدر عن هذا القسم مجلة باسم الإسلام(٣) .

---

(1) Al-Islam, Nr. 6/1986, S. 25.

(٢) مجلة المجتمع ، عدد ٧٢٥ ، سنة ١٩٨٥ ، ص٣٤ .

(٣) المصدر السابق : ص٣٤ .

المساجد والمدارس :

أولاً : المساجد :

لقد جاءت الدعوة لاحتمالية إيجاد مساجد فى ألمانيا بشكل مبكر على لسان فريدرك الثانى ، حيث قال سنعمل على بناء كنائس ومساجد إذا كان الأتراك سيقيمون هنا(١) . ومع بدايات قدوم المسلمين لألمانيا فى أثناء الحرب العالمية الأولى بنى أول مسجد لهم فى منطقة ونسدورف فى المعسكر الذى خصص للأسرى المسلمين (معسكر الهلال)(٢) ، وقد تتابعت الجهود الإسلامية لإيجاد مساجد ، حيث استطاعت جماعة الأحمدية (فرقة لاهور) من بناء مسجد فى برلين سنة ١٩٢٣م ، ونشط الفرع الآخر (جماعة الربوة) ببناء مساجد فى هامبورغ وفرانكفورت(٣) .

وقد بقيت المساجد فى ألمانيا فى فترة الخمسينات والستينات عبارة عن بيوت مستأجرة بمجهودات شخصية أو جماعية ولم تكن تفى بالغرض ، وبدءاً من السبعينات ازداد الاهتمام بزيادة استئجار أبنية خاصة لاستخدامها كمساجد فى جميع المناطق التى يتواجد فيها مسلمون فى ألمانيا ، كما شهدت هذه الفترة محاولات جادة لبناء مساجد فى المدن الألمانية الكبرى وقد كان السبب وراء مثل هذا التطور هو فترة الغنى التى عاشتها بعض الدول الإسلامية وبسبب رغبة الدول الأوروبية ومن ضمنها ألمانيا لأسبب سياسية فى تشجيع

---

(1) Heribert Busse: S. 158.

(٢) محمد السيد غلاب وآخرون : ص٧٥٥ . فرنراندة ، ص٢١١ .

(٣) عبد الرحمن زكى : ص١١٤ .

Heribert Busse: S. 161.

ذلك أو على الأقل عدم معارضة بناء مثل هذه المساجد ، وقد خطط لبناء مسجد ضخم فى برلين وآخر فى هامبورغ[١] .

ومن المساجد الهامة فى ألمانيا اليوم مسجد النور فى فرانكفورت ومساجد مدينة كولن ومسجد آخن ومسجد هامبورغ ومساجد مدينة بون ومن ضمنها مسجد ممول من السعودية بتأييد من الحكومة الألمانية على الرغم من وجود معارضة شعبية ، ومنها أيضاً مسجد الفتح فى برلين ومسجد دوسلدورف ومسجد الفتح فى فرايبورغ و ٣ مساجد فى أوفن باخ وهى للأتراك ومسجد رابع للمسلمين المغاربة[٢] . وأحدث المساجد فى ألمانيا هو مسجد ماربورغ والذى يعرف بمسجد عمر بن الخطاب وقد تم افتتاحه فى سنة ١٩٨٦م ويضم أقساماً للنساء والرجال وحجراً دراسية وحديقة بمساحة ٧٠٠ متراً مربعاً ويخطط لإنشاء قسم ثان فيه بهدف توفير سكن لبعض الطلبة المسلمين الذين يواجهون مشاكل فى الحصول على سكن ، وخاصة للقادمين الجدد منهم[٣] .

وتقدم معظم هذه المساجد خدمات هامة للأقلية المسلمة ففيها يتم الاحتفال بالأعياد الدينية وفيها أيضاً يتم تعلم القرآن وخاصة للأطفال ، كما يخصص بعض منها برامج تعليم اللغة العربية ، كما تقوم هذه المساجد بالعمل على جمع التبرعات للمسلمين المحتاجين وغالباً ما يتم ذلك عقب صلاة الجمعة . وتواجه هذه المساجد بعض المشاكل من حيث أن بعضها صغير المساحة ولا يكفى للأعداد التى ترتاده ، ومنها أيضاً ما يتعلق بالجيران

(1) Duran Khalid: S. 452.

(2) Al-Islam, Nr. 3/1987, S. 10 - 11.

(3) Al-Islam, Nr. 6/1986, S. 26 - 27.

الألمان وحرية إقامة الآذان ، وصعوبة الحصول على أماكن جديدة لاستئجارها كمساجد لما يتطلبه ذلك من إجراءات رسمية معقدة . على أن أهم هذه المشاكل هى عدم تقبل الألمانى لفكرة وجود مساجد كثيرة . ومما يجدر ذكره أنه قلما توجد مدينة ألمانية يتواجد بها مسلمون وتخلو من مسجد أو أكثر، على أن غالبية هذه المساجد تتبع للمسلمين الأتراك ، حيث أنهم الغالبية من بين المسلمين فى ألمانيا .

ثانياً : المدارس :

يمكننا أن نقسم المدارس التى تتبع للأقلية المسلمة فى ألمانيا إلى الأقسام التالية :

١ - المدارس القرآنية وهى التى تتبع للمراكز الإسلامية كالمدرسة القرآنية التابعة للمركز الإسلامى فى ميونخ ، وتداوم يومى السبت والأحد وتركز على تعليم اللغة العربية والقرآن الكريم[١] . ومدرسة تعليم القرآن فى هامبورغ[٢] ، وتعانى هذه المدارس من قلة المدرسين المؤهلين ، والاختلافات بين الأقلية المسلمة حول أهداف هذه المدارس، كما حصل فى المدرسة القرآنية فى دورتموند[٣] .

٢ - مدارس تتبع لحكومات إسلامية وتشرف عليها سفارات تلك الدول كالمدرسة العربية الإسلامية فى بون والتى تشرف عليها السفارة الكويتية وقد تأسست هذه المدرسة فى السنة الدراسة ١٩٨٧/١٩٨٦م

---

(١) مجلة المجتمع ، عدد ٧٢٥ ، سنة ١٩٨٥ ، ص٣٤ .

(2) Zeit magazin, Nr. 11, Marz 1983, S. 34.

(٣) محمود حمدى زقزوق : ص٣٤ .

وتشمل مراحل ابتدائية ومتوسطة وثانوية ، وتحوى على ١٦ فصلاً منها ٦ متنقلة (كرفان) وتضم حوالى ٣٦٠ طالباً ، ويعمل بها ٣٠ مدرساً ومدرسة ، وقد خرجت فى دفعتها الأولى ١٤ طالباً وطالبة من الأقطار العربية الأردن ، العراق ، السعودية ، وفلسطين ، وخرجت فى دفعتها الثانية ١٥ طالباً وطالبة من الأردن ، العراق ، فلسطين ، السعودية ، المغرب ، وليبيا . وقد وافقت بلدية مدينة بون فى السنة الدراسية ١٩٨٨/١٩٨٩م على تخصيص قطعة أرض بمساحة ٥٠٠٠ متراً مربعاً لإقامة بناء متكامل لهذه المدرسة(١) .

٣ – مدارس تقام بمجهودات شخصية وجماعية للأقليات المختلفة بهدف تعليم القرآن واللغة القومية مثل المدرسة العربية فى مدينة أنجلو شتات سنة ١٩٨٥م والتى تدرس المنهاج الأردنى ومدرسة للباكستانيين فى فرانكفورت ومدرسة للأتراك فى أولم ومدرسة للإيرانيين فى راين فلدن ومدرسة عربية أخرى فى فرايبورغ .

٤ – المدرسة الإسلامية فى ميونخ وتجمع فى تدريسها ما بين المنهاج الألمانى والعربى وقد اعترف بهذه المدرسة من قبل الحكومة الألمانية مما أتاح لخريجيها استكمال دراستهم فى المدارس الثانوية الألمانية(٢).

---

(١) اللقاء : مجلة دورية تعرف بجمهورية ألمانيا الاتحادية ، عدد ٥ ، سنة ١٩٨٩ ، ص٣٤ – ٣٥ .

(٢) مجلة المجتمع ، عدد ٧٢٠ ، سنة ١٩٨٥ ، ص٣٤ .

مشكلات الأقلية السملمة فى ألمانيا :

تواجه الأقلية المسلمة فى ألمانيا مشكلات متعددة ومتزايدة ومن هذه المشكلات إن الأقلية المسلمة فى ألمانيا رغم كونها ثالث أكبر مجموعة دينية فى ألمانيا بشكل عام وثانى أكبر مجموعة دينية فى برلين ، رغم ذلك لم تحصل هذه الأقلية على اعتراف رسمى من قبل الحكومة الألمانية فى حين أنه قد اعترف بمثيلاتها فى فنلندا وبلجيكا وفرنسا والنمسا(١) ، ويرجع الألمان سبب عدم اعترافهم الرسمى بهذه الأقلية المسلمة لكونها موزعة بين تنظيمات وجمعيات مختلفة . ومن المشكلات الأخرى التى تعانى منها الأقلية المسلمة على الرغم من أن الحرية الدينية مكفولة بالدستور الألمانى هى الصعوبات التى تتمثل فى الإجراءات المعقدة والقاسية لشروط بشراء أو استئجار أبنية لاستخدامها لأغراض دينية ، حيث لا بد من الحصول على إذن من البلدية والتزام بمراعاة شروط أمنية قاسية ، وأصعبها على إذن من الجيران كما لا يحق لهم تعيين مدرسين للدين الإسلامى فى المدارس الألمانية ، كما يمنع الآذان فى مساجدهم كما حصل فى مدينة هامبورغ بحجة أن ذلك يعتبر مزعجاً للسكان(٢) .

كما يعانى المسلمون فى ألمانيا من قوانين الإقامة الصعبة والمختلفة من منطقة لأخرى بحيث أن بعضهم لا يسمح له بإحضار أسرته وأطفاله(٣) ، كما يعانى الجيل الثانى من أبناء الأقلية المسلمة مما يعرف بمشكلة الاغتراب، فهم

---

(1) Nr. 11, Marz 1983, S. 34. , Heribert Busse: S. 158. Zeit magazin.

(٢) مجلة المجتمع ، عدد ٧٢٥ ، سنة ١٩٨ ص٣٤ .

Zeit magazin, Nr. 11, Marz 1983, S. 49.

(3) DAAD Letter, Nr. 1, Marz 1990, S.24.

أغراب فى ألمانيا مكان ولادتهم وهم أغراب عن موطنهم الأصلى ، وبذا تجد من بينهم مجموعات كبيرة لا تتقن لغة البلد الأصلى ولا يستطيعون الإجابة على أمور دينية بسيطة ، وفى دراسة أجريت على مجموعات من الأتراك واليوغسلاف تتراوح أعمارهم ما بين سن ١٦ – ٢٥ فى برلين تبين إن إجابة ٩٠٪ منهم تدل على أنهم يرون أن أمورهم جيدة وإن برلين هى موطنهم(١) ، والمشكلة هنا أن الألمان لا يشاركونهم هذا الشعور . ولقد تفاقمت مشكلة الأقلية المسلمة مع ازدياد مشكلة البطالة فى ألمانيا ومن دراسة ألمانية لسنة ١٩٨٨م تبين أن نسبة البطالة بين العمال الأجانب تزيد بنسبة ٥٠٪ عنها بين الألمان(٢) ، وتتفاقم هذه المشكلة إذا عرفنا أن ٧٠٪ من الأطفال الأتراك لا يستطيعون اتمام الدراسة الابتدائية مما يعنى أنهم سيحرمون من الحصول على التدريب المهنى(٣) .

ومن المشكلات الأخرى أن هناك فارقاً فى التعامل بين المسلمين والألمان بل وبين المسلمين والأقليات الأخرى فى المجتمع الألمانى ، فلا يسمح للمسلمين ببناء مؤسسات خاصة بهم كالمستشفات ورياض الأطفال ، كما تعارض جهود بناء المساجد بشكل حاد من بين الألمان ، فقد صدر فى صحيفة الألمانية تصدر فى بون تعليقاً لأحد علماء الطبيعة حول بناء مسجد فى المدينة حيث يقول " أنه أحب لدى أن يبنى مفاعل ذرى أمام منزلى من أن يبنى مركز إسلامى ، ذلك أن المفاعل الذرى يمكن أن يحسب حسابه "(٤) .

---

(1) DAAD Letter, Nr. 1, Marz 1989, S. 21.

(2) DAAD Letter, Nr. 1, Marz 1989, S. 21.

(٣) محمود حمدى زقزوق : ص٢٢ .

(٤) المصدر السابق : ص٨ .

Deutsches Allgemeines Sonntagsblatt, 2/12/1979.

ومن المشكلات الأساسية هى نظـرة الألمـان للأجـانب علـى أنهـم مجرمون، حيث ورد فى إحصائيات عن الأعمال الإجرامية فى ألمانيا بأن مـا نسبته ٢٠٪ من هذه الجرائم ترتكب من قبل الأجانب فى حين أنهم يشكلون ٧,٦٪ من مجموع السكان ، وهذه النتيجة النظرية تثبت أن نسبة ارتكاب المخالفات والجرائم بين الأجانب هى ثلاثة أضعاف مثيلتها لدى الألمان ، وبطبيعة الحال أن مثل هذه الإحصائيات تؤثر علـى رجال السياسة والإعلام مما يزيد الكراهية للأجانب ويدعو لتشديد قوانين الإقامة والعمل ، وحول هذه الإحصائيات قام بعض الألمان بدراستها دراسة علميـة مثـل البروفسـور ميخائيل فالتر من جامعة كولن ، والدكتورة مونيكا تراولزن من جامعة شتو تجارت وخلصاً إلى نتيجة مفادها أن ما نسبته ٢٠٪ من هذه الجرائم لا يمكن أن يرتكبها الألمانى ، كمشكلة انتهاء صلاحية جواز سفر أو انتهاء مدة الإقامة أو مشكة العمل بدون تصريح وأمور أخرى ، وبذا يبدو أن هذه الإحصائيات السابقة غير دقيقة وخطيرة حيث أنها تنشر للرأى العام فيأخذ بها فى حين أن الدراسة التى تثبت عكسها لا تعامل بالمقياس نفسه(١) .

ومن المشكلات الأخرى ما تتعرض له الأقلية المسلمة من تشويه فى الصحافة الألمانية بتأثير يهودى وما يرد فى المناهج المدرسية الألمانية من تشويه لصورة الإسلام ، أو ما يتعرض له الشباب المسلم من عمليات التبشير التى تقودها مجموعات كنسية تقوم علاوة على ذلك بنشر نشرات عن الإسلام وبلغات مختلفة ظاهرها التعريف وباطنها تقديم الإسلام من وجهة نظر كنسية(٢) .

(1) DAAD Letter, Nr. 1, Marz 1990, S. 20.

(2) Al-Islam, Nr. 3/1987, S. 20.

كما تعانى الأقلية السلمة فى ألمانيا من مشكلة الفارق الثقافى والحضارى بينهم وبين الألمان مما يزيد فى صعوبة الاندماج فى المجتمع الألمانى علاوة على أن الألمان لا يتفهمون طبيعة الحياة الإسلامية وخصوصيتها ، ومما زاد من صعوبة هذا الأمر هو قدوم مجموعات كبيرة من اللاجئين السياسيين إلى ألمانيا ، حيث يفرض عليهم الإقامة فى مناطق محددة ولا يسمح لهم بمزاولة أية أعمال ، وقد بلغ عدد الراغبين فى الحصول على اللجوء السياسى فى سنة ١٩٨٨م ما يزيد على مئة ألف لم يقبل منهم سوى ما نسبته ٨.٦٪(١) .

وتتضح مشكلة الشباب من الأقلية المسلمة مما يواجهونه فى المدارس الألمانية وقد ظهر ذلك فى الاجتماع الثانى والثلاثين الذى عقد فى الفترة ما بين ٢- ٤ أكتوبر سنة ١٩٨٧م للمسلمين الناطقين بالألمانية فوجد أن الطلاب المسلمين يواجهون مشكلات منها ما يتعلق بحصص السباحة المختلطة ومشكلة حصص الفن والموسيقى علاوة على مشكلة اللباس وغطاء الرأس ، مما اضطر الكثير لترك المدارس أو تغييرها(٢) .

كما يعانى العمال المسلمون من مشكلة عدم اهتمام النقابات العمالية الألمانية وما يتعرض له المسلمون فى أماكن العمل حيث يمنعون من أداء الصلاة ولقد أصدرت محكمة العمل فى فور تسليمهم قراراً باعتبار أن الصلاة أثناء العمل أو طلب وقت لأداء الصلاة عملاً مخلاً بأحكام قانون العمل ، مما يتيح لرب العمل فصل العامل المسلم الذى يصر على أداء الشعائر الدينية(٣).

(1) DAAD Letter, Nr. 1, Marz 1989, S. 22.

(2) Al-Islam, Nr. 5/1986, S. 4 - 5.

(3) Duran Khlaid; S. 456.

ومما يؤكد صعوبة وضع العمال الأجانب ومن بينهم العمال المسلمين مـا ورد فى كتاب ألفه جونتر فالراف ، والذى تقمص شخصية عامل تركى وأورد معلومات مذهلة عن كيفية النظرة بين العمال الألمان وأرباب العمل للعامل المسلم وما يتعرض له من مضايقات واتهامات علاوة على تخصيص الأعمال الصعبة والقذرة وإطلاق النكات الجارحة(١) .

ومن المشكلات الأخرى التى تواجه المسلمين قضية الزواج المختلط وما ينتج عنه فيما يتعلق بتربية الأطفال تربية إسلامية ، إضافة إلى المشكلات اللغوية التى يعانون منها(٢) . وجزء من هذه المشكلة يرتبط بقضية عدم التوازن بين أعداد النساء والرجال ضمن الجماعة الإسلامية ، وذلك ناجم عن صعوبة اصطحاب الزوجات وعن حرص بعض المسلمين على إرجاع بناتهم فى سن معين إلى الوطن خوفاً عليهن من مخاطر المجتمع ، فمن بين ٤٠ ألفا من المغاربة فى ألمانيا تصل نسبة الإناث إلى أقل من ٢٥٪ وهى بين الأتراك لم تتجاوز ٣٠٪ فى سنة ١٩٧٣م والنسبة بين الأفغان والباكستانيين أقل من ذلك(٣) .

وهناك مشاكل أخرى تختلف من منطقة لأخرى مثل قضايا الذبح على الطريقة الإسلامية أو ما يرد من إشارات للمسلمين باسم المحمديين أو النظرة إليهم كإرهابيين وتزداد هذه المشاكل أو تخف بحسب تطور الأوضاع الاقتصادية فى ألمانيا وبحسب التطورات فى الدول الإسلامية . وفى استبانة

---

(1) Gunter Walleaff: Ganz unten, Verlag Kiepenbeuer & Wittsch, Koln 1985.

(2) Zaid S. Al-Jamal; S. 3 - 5.

(3) Duran Khalid. S. 462.

أجراها الباحث فى مدينة فرايبورغ ووزعت فى مناطق أخرى تبين أن أكثر المسلمين ترحيباً لدى الألمان هم الأفغان ثم الباكستانيون ، وأقلهم حظاً فى المجتمع الألمانى هم الأتراك والعرب ومن بين العرب اللبنانيون والفلسطينيون. ويبدو أن ذلك يأتى منسجماً مع الآراء الرسمية للحكومات الأوروبية ومن بينها ألمانيا .

جهود التقارب الإسلامى والمسيحى فى ألمانيا :

على الرغم من أن الصعوبات التى واجهتها الأقلية المسلمة للتعايش مع المجتمع الألمانى تعود فى جذورها إلى الصورة السلبية التى تكونت تاريخياً للإسلام فى الذهنية الأوروبية ، إضافة إلى الصورة السلبية التى تكونت لدى أفراد الأقلية المسلمة عن المجتمع الألمانى ، إلا أن هناك جهوداً تبذل من كلا الجانبين لتوضيح موقفها ولطرح قضاياهما بشكل أفضل . وفى سبيل ذلك سعت جماعات ألمانية للعمل على تخفيف مشكلة الأجانب بشكل عام ومن ضمنها الأقلية المسلمة ، كما أن ذلك استدعى أن تقوم الأقلية المسلمة بالعمل على تغيير تلك الصورة السلبية للإسلام فى المجتمع الألمانى ، ويمكننا هنا أن نشير إلى بعض المجهودات التى بذلت من قبل الطرفين .

فلقد عملت الأقلية المسلمة على عقد المؤتمرات والندوات والتى كانت تطرح من ضمن موضوعاتها موضوعات تتعلق بالتعايش السلمى والتركيز على أن الإسلام دين للمحبة والأخوة الإنسانية ، كما بدأت هذه المؤتمرات بمعالجة قضايا تشغل بال الفرد الألمانى كموضوع الحفاظ على البيئة من التلوث وبيان موقف الإسلام من ذلك . فمن ذلك المؤتمر الذى عقد فى مدينة ميونخ فى الفترة ما بين ٧ - ٩ أكتوبر سنة ١٩٨٨م ، وكان الموضوع

الرئيس هو الإسلام والبيئة. كما عملت الأقليـة المسلمة على إقامـة مـا سمى بالأسابيع الإسلامية فى مختلف المدن الألمانيـة ، فعمل أسبوع إسلامى سنة ١٩٨٧م فى مدينة ميونخ وفى منطقة أوفن باخ ، وعملت على تسيير باص أطلق عليه ، باص الدعوة (البراق) بحيث يزور مختلف المدن الألمانية ، ويقدم خلال ذلك نشرات توضيحية عن الإسلام . كما عملت العديد من المساجد الإسلامية المنتشرة فىألمانيا على إقامة ما يسمى بيوم الباب المفتوح، حيث يسمح للألمان الراغبين بالتعرف على الإسلام فى زيارة هذه المراكز ، وإجراء نقاش حول قضايا دينية وسياسية مختلفة . وتعمل المراكز الإسلامية فى المانيا على ترجمة العديد من الأحاديث النبويـة والكتب الدينية ، ويجرى بيعها بأسعار رمزية ، وفى هذا السياق تقوم بعض الدول الإسلامية بدعم هذا التوجه ، حيث قامت المملكة العربية السعودية بتوزيع منشورات عن الإسلام، والقرآن ، والسيرة النبوية باللغة الألمانية . كما يقوم الطلاب المسلمون فى الجامعات الألمانية بجهود مميزة للتعريف بالإسلام والقضايا الإسلامية وغالباً ما يكون نشاطهم مدعوماً من قبل المراكز والجمعيات الإسلامية فى ألمانيا . كما تعمل الجماعات الإسلامية على عقد ندوات للتعريف بالقضايا الإسلامية ومن ذلك ، ما خصص للقضية الأفغانية ، حيث أسست مراكز ثقافية خاصة بالأفغان ، ويقوم جمهور من المسلمين فى ألمانيا بجمع التبرعات لبعض المناطق الإسلامية ، وحقيقة الأمر أن الهدف من ذلك لا يقتصر على جمع التبرعات بل يهدف إلى تبصير الألمان بطبيعة القضايا الإسلامية المختلفة . أما على صعيد الجانب الألمانى فيسعى بعض الألمان ضمن جمعيات للدفاع والتضامن مع الأجانب إلى عقد مؤتمرات فيسعى بعض الألمان ضمن جمعيات للدفاع والتضامن مع الأجانب إلى عقد مؤتمرات تهدف إلى التقريب بين الألمان والمقيمين فى ألمانيا ، ومن ذلك أسبوع التضامن مع الأجانب

والذى عمل سنة ١٩٨٣م فى أكثر من مدينة ألمانية ، وقد شاركت الكنيسة الكاثوليكية والإنجليلية والأثوذوكسية وشارك فيها مجموعات من المسلمين ، كما عقدت ندوات أخرى لتعميق الحوار بين الإسلام والمسيحية كالذى عقد فى فرانكفورت سنة ١٩٨٧م برعاية الكنيسة الإنجيلية ، وندوة أخرى تركزت حول مفهوم الحرية الدينية فى الإسلام والمسيحية وعقدت فى ميونخ بتاريخ ١٩٨٧/١٠/٣٠م ، وحاضر فيها رجال دين مسيحيون وأفراد من المراكز الإسلامية المختلفة . كما أن المؤتمرات الكنيسة الألمانية عملت على تأسيس مجموعات تتخصص فى بحث العلاقات بين المسلمين والمسيحيين ومنها جماعة الآباء البيض فى فرانكفورت والذين أنشأوا مركزاً وثائقياً للعلاقات بين المسلمين والمسيحيين ، وافتتحوا مكتبة وقاعة مطالعة لهذا الغرض سنة ١٩٨٧م ، وجاء ذلك كتكملة لما حصل فى المؤتمر الكنائسى الأوروبى سنة ١٩٨٠م والذى دعا إلى طرح قضية الحوار والتفاهم مع المسلمين بشكل جدى. وصدرت فى بعض الأحيان مبادرات حسن نية من الألمان تجاه الأقلية المسلمة كالتى حدثت فى كولن حيث سمح للمسلمين هناك بإقامة احتفالاتهم الدينية قرب إحدى الكنائس ، ومنها أيضاً الزيارة التى قام بها أسقف المدينة للمسجد الإسلامى سنة ١٩٨٣م . كما عملت الجامعات والكليات اللاهوتية على افتتاح أقسام للدراسات الإسلامية ، وعمل بعضها على إنشاء مكتبات متخصصة تعنى بالشؤون الإسلامية كما هو فى مكتبة جامعة منستر . كما أنشىء سنة ١٩٨٤م التجمع الإسلامى المسيحى فى نورد هايم فستغالن ومؤسسة أخرى للعمل الإسلامى المسيحى المشترك ، وهناك من المؤسسات التى لعبت دوراً هاماً فى التعريف بالإسلام مثل مؤسسة هدفيج درانسفيلد فى بندورف بالقرب من كوبلنتز ، ومؤسسة أوراتيود دومينيكا ومؤسسة كنراد أدنور شتيفتونج والتى عملت محاضرات وندوات عن الإسلام والمسلمين

والأجانب منذ سنة ١٩٨١م . كما أن هناك جهوداً بذلت للتقارب مع الأتراك حيث أسس النادى التركى الألمانى سنة ١٩٨٢م كما أسست دائرة الصداقة التركية الألمانية فى منطقة هيشنج . كما أن هناك دعوات من قبل بعض الألمان للعمل على تخفيف شروط الإقامة والعمل وقانون الانتخاب ، كالدعوة التى تعمل من أجلها ليزلوته فونكه وهى عضو فى مجلس أمناء المؤسسة الألمانية للتبادل الثقافى (داد) وعضو فى الحزب الديمقراطى الحر (ف. د. ب.) ، كما أن بعض الأحزاب السياسية الألمانية تعمل على أن تتبنى الحكومة الألمانية قانوناً جديداً للأجانب بحيث يتيح امتيازات وحقوق تتناسب مع الخدمات التى يقدمونها .

وعلى الرغم من هذه المجهودات المشتركة إلا أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الجهد والذى يجب أن يدعم من قبل الحكومات الإسلامية بمختلف الوسائل حى تستطيع الأقلية المسلمة من أداء رسالتها فى ألمانيا .

دور الفقهاء والعلماء فى الجهاد

ضد الخطر المغولى على بلاد المسلمين

دكتورة / آسيا سليمان نقلى

كلية التربية للبنات بالرياض

لقد فرض الله تعالى الجهاد على المسلمين فريضة لازمة حازمة ، وجعله يتساوى مع الصلاة والزكاة فى درجة فرضيتهما(١) ، وحذر سبحانه من التخلف عنه(٢) وأوصى بإعداد العُدة له(٣) . ولم تقتصر الدعوة لإعداد العدة على القوة المادية فحسب ، بل شملت أيضاً التعبئة الروحية التى تثبت دعائمهما وتؤتى ثمارها حين يكون الهدف من الجهاد واضحاً جلياً ، وهى كفيلة بأن تجعل الأمة فى جهادها صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص ، لهذا قال تعالى : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾(٤).

ومن ثمَ فقد وجب على إمام المسلمين أو خليفتهم وسلطانهم أن يدعو إلى مجاهدة الأعداء وقتالهم ، وهو المسئول عن هذه الدعوة ، وعلى بقية

---

(١) قال تعالى : ﴿ كُتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ... ﴾ البقرة : ٢١٦ .

(٢) قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله إثاقلتم إلى الأرض ... إلا تنفروا يعذبكم عذاباً اليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ﴾ التوبة : ٣٨ - ٣٩ .

(٣) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم .. ﴾ الأنفال : ٦٠ .

(٤) الصف : ٤ .

المسلمين واجب طاعته وتلبية دعوته . والجهاد واجب مع كل أمير براً كان أم فاجراً ، وحتى وإن كان يعمل الكبائر(١) .

وأولو الأمر من الأمراء والعلماء والفقهاء هم أكثر الناس مسئوليةً عن القيام بأمر الجهاد . ولقد لعبت هذه الفئات ، دون شك ، دوراً كبيراً لا يُستهان به فى الجهاد ضد الخطرين الكبيرين اللذْين تعرض لهما العالم الإسلامى فى العصور الوسطى والشرق الإسلامى على وجه الخصوص ، وهما خطر الحروب الصليبية المتعصبة وخطر الهجمات المغولية المتبربرة المدمرة . وكان لتصدى هؤلاء الصفوة المختارة لهذين العملين الظالْمين أثره الكبير فى الانتصارات العظيمة المتلاحقة لتى حققها قادة المسلمين على القائمين بهما . وبرغم أن مصادر التاريخ الإسلامى نسبت هذه الانتصارات إلى قادة وحكام المسلمين آنذاك وفى الوقت نفسه أغفلت ذكر دور الفقهاء والعلماء فى هذا الواجب المقدس ، إلا من شذرات مبعثرة هنا وهناك . ولماً كان هدف بحثنا هو إبراز هذا الدور القيادى لأولئك الفقهاء والعلماء فى هذه الحروب المقدسة كان علينا جمع هذه الشذرات الخاصة بهذا الدور فى مواجهة الخطر المغولى وإبرازه حتى تتكون لدى القارىء صورة مكتملة عن هذا الدور المشرف فى حلقة من حلقات سلسلة الجهاد الإسلامى ضد أعداء الإسلام .

وقبل أن نخوض فى تتبع دور هؤلاء الصفوة المختارة فى الجهاد ضد المغول ، علينا أن نعرف تعريفاً مختصراً لهذه الفئة من رجال العلم والفقه .

---

(١) عن حديث رواه أبو داود فى سننه (محمد عزة دروزة : الجهاد فى سبيل الله فى القرآن والحديث ، دمشق ١٩٧٥ ، ص١٣) .

فالعالم ، هو لقب لمن اختص بالعلم ، وإن كان فى الحقيقة من الألقاب المشتركة فى الاصطلاح بين أرباب السيوف (رجال الحرب) وأرباب الأقلام (رجال الإدارة) ، وإن كان المختص به فى الحقيقة العلماء(١) .

وأما الفقيه ، فهو العالم بالشىء والفاهم له ، وقد غلُب ذلك الوصف على العالم بالدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم ، وقد جعله العُرف خاصاً بعلم الشريعة وتخصيصاً بعلم الفروع منها(٢) . ونظراً لأهمية وظيفة الفقيه فى الإسلام فقد ورد فى الحديث الشريف قول رسول الله ﷺ لابن عباس : " التفقه فى الدين حق على كل مسلم "(٣) . كذلك قوله عليه السلام : " إذا أراد الله بقوم خيراً أكثر فقهاءهم وقللّ جهالهم ... "(٤) .

وينضم القضاة إلى طائفة الفقهاء والعلماء ، ذلك لأن العلم والتفقه فى أمور الدين شرطان أساسيان لتولى القضاء ، وكل قاضٍ فقيه عالم وليس العكس .

وفى بحثنا هذا سوف نلقى الضوء على طبيعة الدور الذى قام به بعض العلماء والفقهاء والقضاة ضد الغزوة المغولية للعالم الإسلامى ، وكيف أن بعضهم قاتل كجندى مقاتل حمل السلاح وانتظم فى الصفوف الأولى للمجاهدين واستقبل بصدره سهام العدو وحرابه ومنهم من نجى من الموت

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة ١٩٨٣ ، جـ٣ ، ص١٩- ٢٠، ابن منظور : لسان العرب ، بيروت ١٩٥٥ ، جـ١٢ ، ص٤١٧ .

(٢) ابن منظور : نفس المصدر ، جـ١٣ ، ص٥٢٢ .

(٣) الخطيب البغدادى : الفقيه والمتفقه ، بيروت ١٩٨٠ ، المجلد الأول ، جـ٢ ، ص٤٤ .

(٤) الخطيب البغدادى : نفس المصدر السابق ، ص٤٢ .

ومنهم من أُستشهد . كذلك فإن بعضاً منهم وقف إلى جانب القادة فى المعارك مرشداً وموجهاً وناصحاً ، بينما جاهدت غالبيتهم بالكلمة فى مجال شحذالهمم بالوعظ والإرشاد والحث عل الجهاد ورفع الروح المعنوية للمجاهدين والمرابطين حتى يثبتوا ويثابروا فى جهادهم للعدو .

ولقد كان أول ظهور للمغول وبداية خطرهم على العالم عامةً والعالم الإسلامى خاصة ، فى أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، حول بحيرة بيكال فى جنوبى سيبيريا الروسية على يد زعيمهم " جنكير خان " (تمرجى ، تموجين)(١) ، ، الذى وحد قبائلهم تحت قيادته وجعل منهم قوة كبيرة وقنبلة موقوتة تهدد بانفجارها مساحات واسعة من العمران فى العالم . ولقد أقام جنكيز خان لنفسه دولة كبيرة تمتد من طرف ماء نهرىْ سيحون وجيحون إلى نهاية الحدود الشرقية ومن صحراء القبجاق إلى نواحى جورجيا(٢) . وكذلك أقام هذا الحاكم المغولى من رجاله جيشاً كبيراً لا حصر لعدده ، ولماً أدرك أنه صار قوياً قويت الرغبة فى نفسه فى توسيع مملكته بالإغارة على جيرانه ، فاتجه إلى بلاد الصين شرقاً وقام بفتحها وضمها إلى مملكته ، ثم اتجه بعد ذلك إلى الفتح غرباً نحو ممالك الإسلام المتواجدة غربى حدود دولته ، وكانت تعانى آنذاك من الضعف والتفكك وسوء الحال .

---

(١) كان جنكيز خان يسمى أولاً باسم " تموجين " وفى بعض المصادر باسم " تمرجى "، بمعنى الصلب المتين بلغة المغول ، ولما عظم شأنه أُطلق عليه اسم جنكيز خان أى إمبراطور البشر جميعاً وتوارى اسمه الأول . وعن مولد جنكيز خان ونسبه انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، طبعة بيروت ١٩٧٩ ، جـ١٢، ص٣٦١ ، والنويرى : نهاية الأرب ، القاهرة ١٩٨٥ ، جـ٢٧ ، ص٣٠٠ - ٣٠٢ .

(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ، بيروت ١٩٨٠ ، جـ١ ، ص٢٠ .

وكانت الدولة الخوارزمية ، أقرب الممالك الإسلامية إلى بلاد المغول ، وكان على حكمها يومئذ السلطان علاء الدين محمد بن تكش الخوارزمى (خوارزم شاه) ٥٩٦ - ٦١٧هـ/١١٩٩ - ١٢٢٠م . وقد امتدت سلطته إلى معظم بلاد العراق العجمى وسجستان وكرمان وطبرستان وجورجان وبلاد الجبال وفارس وخراسان وجزءً من الهند وجزءً من أفغانستان .

وحدث فى سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م أن قام السلطان علاء الدين خوارزمشاه بتصرف فيه تهور وعدم تقدير للعواقب ، فلقد قدم إلى بلاده بعض تجار المغول ومعهم كمية ضخمة من الفضة النقية (النقرة) والأقمشة والفراء ، فلما وصلوا إلى بلدة أترار ، على نهر سيحون ، قام نائب علاء الدين خوارزمشاه بقتلهم بأمر من علاء الدين ، وسلبهم أموالهم وسلعهم ، فاعتبر جنكيز هذا التصرف إهانة شخصية له ، فأرسل رسولاً من قبله إلى خوارزمشاه يطلب منه تسليمه أموال تجاره الذين قتلوا كما طلب بتسليمه النائب الذى قام بقتلهم ، فما كان من خوارزمشاه إلا أن صعَّد الأمر مع جنكيز خان فقام بقتل رسوله وحلق لحى من معهم وأعادهم إلى جنكيز خان(١) . وبسبب ذلك صمم جنكيز خان على غزو دولة خوارزمشاه لينتقم من السلطان علاء الدين ، وبدأ هجوم المغول على الإسلام الذى حمل معه الوبال الكبير والخراب والدمار لبلاد المسلمين . وقد كان جنكيز خان رجلاً سفاحاً سفاكاً للدماء ، يغزو البلاد بأعداد كبيرة من الجنود كالجراد ، ويقوم بتدمير البلاد

(١) علّق النويرى على ذلك بقوله : " فيالها من قتله هدرت دماء الإسلام وأجرت بكل قطرة سيلاً من الدم الحرام " (النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، ص٢٤١ - ٢٤٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص٣٧ .

التى يغزوها تدميراً كاملاً ويقتل جميع من فيها رجالاً ونساءً وأطفالاً ثم يضرم النيران فيها ويتركها خراباً وأطلالاً[١] .

ونجح جنكيز خان فى القضاء تماماً على الدولة الخوارزمية ، تلك الدولة التى كانت تقف سداً منيعاً يحول بين المغول وبين بقية البلاد الإسلامية فى إيران والعراق والشام ومصر . ولقد قُتل أعداد كبيرة من أهالى هذه الدولة ومن قُدر له البقاء هرب وتشتت إلى بلاد الشام والجزيرة ، وعاشوا هنالك كجنود مرتزقة يخدمون حكام تلك المناطق[٢] .

وبعد القضاء على الدولة الخوارزمية تطلع المغول تحت زعامة " منكو خان " ، الأخ الأكبر للقائد المغولى الكبير هولاكو ، إلى استكمال السير والزحف نحو بلاد المسلمين ، فكلف منكو خان أخاه هولاكو بقيادة جيش المغول والتوجه به لفتح بلاد غربى إيران وبلاد سلاجقة الروم وبلاد العراق والشام ومصر .

وتنفيذاً لأمر منكو خان خرج هولاكو فى ذى الحجة سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م على رأس جيش جرار من مدينة "قراقورم" ، عاصمة دولة المغول ، قاصداً ديار الإسلام حتى وصل إلى مدينة سمرقند - التى كانت عاصمة خوارزمشاه - وقد وصل إليها فى شهر شعبان سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م ، ونجح فى الاستيلاء عليها وتخريبها وقتل أعداد كبيرة من سكانها .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٣٦٨ - ٣٩٢ .

(٢) كان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل الأيوبى ، قد استعان بهؤلاء الخوارزمية فى استرداد بيت المقدس من يد الصليبيين (حافظ حمدى : الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص٢٥- ٢٧) .

وفى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م استطاعت جيوش هولاكـو أن تسـتولى علـى قلاع وحصون الإسماعيلية فى غربى إيران ، وقد قيل بأنها بلغت حوالىالمائة قلعة وحصن أمر هولاكو بتخريبها جميعها ، وبذلك أنهـى المغـول علـى حكـم الإسماعيلية فى إيران(١) .

وحتى تلك اللحظة كان حكام المسلمين فى حالة لا مبـالاة بمـا يحـدث ، ولم يستشعروا بأن الخطر لاحق ومحـدق بهـم ، فلـم يفكـروا فـى إقامـة حلـف إسلامى قوى يتصدى للمغول قبل أن يستفحل أمرهم ويـزداد خطرهـم خاصـةً بعدمـا بلغهـم مـن أسـلوب المغـول فـى التعـامل مـع أعدائهـم المنهزميـن منهـم والمصير السىء الذين ستصير إليـه البـلاد والعبـاد . وفـى هـذه الأثنـاء كـانت الدولة العباسية قـد بلغـت أسـوأ أحوالهـا ، وكـانت سـلطة الخليفـة العباسـى قـد تقلصت تماماً حتى صارت تشـمل جـزءاً صـغيراً مـن بـلاد العـراق يمتـد مـن تكريت إلى الفاو ومن حلوان إلى عانــة ، أمـا خـارج تلـك الرقعـة فـم تبـق لـه سوى السيادة الروحية الشكلية فحسب(٢) .

المغول وسقوط الخلافة العباسية :

وكان هولاكو أثناء حصاره لقلاع الإسماعيلية وحصونهم قد أرسل إلـى الخليفة العباسى المستعصم بالله(٣) رسولاً يطلب منه أن يرسـل لـه نجـدةً مـن

---

(١) الهمذانى : جامع التواريخ ، القاهرة ١٩٦٠ ، جـ١ ، ص٢٥٣ – ٢٥٩ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ٤ ، ص١٣٤ .

(٣) هو آخر خلفاء العباسيين ببغداد ، ولُـد سنة ٦٠٩هـ ، وقتلـه هولاكـو سـنة ٦٥٦هـ ، وكانت مدة خلافته خمسة عشر عاماً وثمانية أشهر وأياماً (السيوطى : تاريخ الخلفـاء، القاهرة ١٩٦٩ ، ص٤٦٤ – ٤٧٣) .

الرجال والسلاح ، لكن الخليفة لم يستجب لطلبه بسبب أن أمراءه قالوا له " أن هولاكو رجل ماكر ومخادع وهو ليس محتاجاً لنجدة منا ، ولكن غرضه وهدفه هو إخلاء بغداد من الرجال حتى يتمكن من الاستيلاء بسهولة عليها "(١) ، لهذا غضب هولاكو على الخليفة وحنق عليه .

ولذا بمجرد أن انتهى هولاكو من القضاء على طائفة الإسماعيلية أرسل من مدينة همذان رسالة تهديد ووعيد إلى الخليفة المستعصم ، وكان ذلك سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م . ولقد اتهم هولاكو الخليفة ، فى رسالته هذه ، بالتستر على العصاة الفارين من وجه هولاكو . وأمره فيها بسرعة الحضور لمقابلته طائعاً خاضعاً وأن يجرد مدينة بغداد من كل سلاحها وعتادها وجميع وسائل الدفاع عنها(٢) .

ولقد رد الخليفة العباسى برسالة تهديد ووعيد مماثلة على رسالة هولاكو ، رفض فيها مطالبه وطلب منه الكف عن غروره والعودة إلى بلاده(٣) .

وإزاء هذا الموقف الرافض من الخليفة العباسى ، أصدر هولاكو أوامره إلى جنوده فى شوال ٦٥٥هـ/١٢٥٧م بالتحرك تحت قيادته من همذان إلى بغداد . ووصلت قوات هولاكو إلى شرق بغداد ، ونصب هولاكو معسكره فى ضاحية من ضواحيها ؛ وخرج جيش الخليفة من بغداد ليمنع

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٦٩ .

(٢) الهمذانى : جامع التواريخ ، جـ١ ، ص٢٦٧ .

(٣) الصياد : المغول فى التاريخ ، جـ١ ، ص٢٥٦ ، ٢٥٧ ، الباز العرينى : المغول ، بيروت ١٩٨١ ص٢١٩ - ٢٢١ .

احتشاد القوات المغولية شرقيها ، غير أن قوات المغول كانت قد كمنت لجيش الخليفة وفاجأتها بهجوم مباغت تحطمت على أثره قوات الخليفة . فانهزم الجيش الخلافى ولقى اثنى عشر ألف مقاتل مصرعهم ، بينما لاذ الناجون الباقون بالفرار إلى الشام(١) .

وتدفق جيش المغول فى هجوم ساحق كهجوم الجراد على الأرض المزروعة ، وحاصروا أسوار بغداد من جميع جهاتها ، واستطاعوا أن ينفذوا إلى داخلها بعد أن حطموا هذه الأسوار ودخلوا إلى داخل المدينة يقتلون ويأسرون ويحرقون ويدمرون ، وسقطت المدينة صريعة تلعق جراحها . وفى الوقت الذى عانت فيه بغداد السقوط فى يد المغول ، أشار وزير الخليفة " ابن العلقمى " الشيعى ، على الخليفة بالتصالح مع المغول ، وأقنع الخليفة بأنه سيتولى بنفسه تقرير عقد هذا الصلح(٢) . وقد كانت تلك حيلة من حيل هذا الوزير الشيعى دبرها مع هولاكو . ولماً عاد ابن العلقمى من مقابلة هولاكو أخذ يحسّن للخليفة الخروج لمقابلة هولاكو ، كما أقنعه بأن هولاكو يريد أن يصاهر الخليفة بتزويج ابنته من ابن الخليفة . كذلك ذكر له أن هولاكو سوف يستبقيه خليفة للمسلمين إذا هو أطاع أمره . وانطلت الخدعة على الخليفة ، ولم يكن بيده إلا القبول لضعف موقفه وانهزام قواته واستباحة عاصمة دولته، فوافق الخليفة وخرج ومعه أولاده وحاشية كبيرة من العلماء والفقهاء والأمراء والقضاة وأعيان بغداد لكى يحضروا عقد الزواج بين ابنة هولاكو وابن الخليفة . فلما اقترب هذا الحشد من مقر هولاكو فوجئوا بهولاكو يصدر

---

(١) الهمذانى : جامع التواريخ ، جـ١ ، ص٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص٤٩ .

أوامره باحتجاز الخليفة ومعه سبعة عشر شخصاً من هذا الحشد فقط من خاصته فى خيمة خاصة قريبة من مقره ، أما الباقون فقد أمر بقتلهم جميعاً وإبادتهم عن آخرهم(١) . ثم أمر هولاكو ، بعد ذلك بقتل الخليفة فقام رجاله بقتله . ويعقب ابن كثير على هذه الواقعة بقوله : "فباءوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولى الحل والعقد ببلاده "(٢) . وأقام المغول مذبحة رهيبة فى بغداد ؛ قيل أن القتل خلالها استمر لحوالى أربعين يوماً ،وبلغ عدد القتلى خلالها أكثر من مليونىْ نفس(٣) .

ومما يجدر ذكره هنا أنه لكثرة من قتل هولاكو من العلماء والفقهاء فى هذه المذبحة ، فقد تعطلت مظاهر الحياة الدينية ببغداد لعدة شهور . ومصداقاً لذلك يورد ابن كثير قوله : " وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن ، وتعطلت بذلك المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد "(٤) .

وكان الشيخ العلامة محيى الدين يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى ، واحداً من العلماء الأجلاء الذين قتلوا فى مذبحة بغداد ، وكان يتولى آنذاك منصب أستاذ دار الخلافة ، وقد ولى قبله حسبة بغداد مع عمله بالوعظ والتدريس . وكان رسولاً للخلفاء إلى ملوك بنى أيوب ، وواقفاً للمدرسة الجوزية بدمشق(٥) .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، جـ٧ ، ص٤٩ ، ٥٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢١٥ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١،ص٤١٠، ابن تغرىبردى:النجوم الزاهرة ، جـ٧، ص٥٠.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢١٦ .

(٥) ابن كثير : نفس المصدر والجزء ، ص٢٢٣ ، ٢٢٤ .

كذلك استشهد فى هذه المذبحة الشيخ الإمام جمال الدين الصرصرى الضرير البغدادى ، أبو زكريا ، وكان علامةً بارعاً فى أنواع عديدة من العلوم .

ومما يذكر بصدد هذا الإمام العالم أنه دافع عن نفسه وعن بيته عند مداهمة جند المغول له ، فأعد فى داره كمية كبيرة من الحجارة رمى بها جند المغول وأصاب منهم جماعة ، ولماً وصلوا إليه وتمكنوا منه قتل أحدهم بعصاه فقتلوه ومات شهيداً مدافعاً عن نفسه وأهله(١) .

ولقد أصاب سقوط بغداد فى يد المغول المسلمين بحزن شديد فى جميع أرجاء العالم الإسلامى ، كما أصابهم جزع كبير على مستقبل الإسلام والمسلمين . فلقد كانت الخلافة رمزاً للأمة الإسلامية يجب أن يظل شامخاً باقياً إلى الأبد ، وأن خليفة المسلمين هو الرئيس الروحى لكل المسلمين ولا بقاء لحياة على الأرض مع فناء الخلافة والخلفاء . لهذا كانت الفاجعة والمصيبة عظيمة على كل بلاد المسلمين فى مشرق البلاد ومغربها . وأصبحت زعامة المسلمين ، بموت الخليفة ، شاغرة مما يجعل العالم الإسلامى كسفينة بلا ربان تتلاطمها الأمواج من كل مكان وتُعجل بغرقها ونهايتها .

وأصاب التوتر والاضطراب جميع حكام المسلمين فى نواحيهم بسبب ما وصل إليهم من أخبار قسوة المغول وشدة انتقامهم وضراوة تخريبهم وإبادتهم لما يقع فى أيديهم من بلاد . وكان على أمراء البلدان المجاورة أن يتصرفوا حيال هذا الخطر الواقع الذى لاح لهم أنه ليس له من مدافعة ، فعليهم إما أن يتجهزوا لحرب انتحارية غير مأمونة العواقب أو يلجأوا

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٢٤ .

لمصالحة المغول ومهادنتهم . ولقد بادر بالفعل بعض أمراء المسلمين المجاورين بالتودد للمغول وإعرابهم عن مشاعر الفرح والابتهاج لانتصارات هولاكو إتقاءً لشره . ومن هؤلاء " بدر الدين لؤلؤ " صاحب الموصل ، وكذلك " عز الدين كيكاوس الثانى "(١) سلطان سلاجقة الروم . وأيضاً الملك الناصر الأيوبى صاحب دمشق وحلب(٢) ؛ الذى سارع وأعلن ولاءه للمغول، وأرسل ابنه " العزيز " بالهدايا والتحف صحبة مجموعة من الأمراء إلى هولاكو(٣) ، وقد حمّل ابنه رسالة إلى هولاكو يطلب منه فيها معاونته فى استخلاص مصر من يد المماليك . ولكن هولاكو غضب لعدم حضور الناصر بنفسه إليه ، ورد على رسالته بتهديد ووعيد وطلب منه أن يقدم إليه بنفسه ومعه رجاله وأمواله طائعاً مختاراً ، وإلا سوف يقدم إليه هولاكو بنفسه ويكتسح بلاده(٤) .

هجوم المغول على بلاد الشام :

وعلى الرغم من تلقىالملك الناصر الأيوبى لرسالة التهديد هذه ، إلا أنها لم تثر لديه أى اهتمام ولم تحرك فيه أى تحفز ، فلم يعمل على تقوية جيشه وتحصين استحكاماته لمواجهة الهجوم الضارى المتوقع ؛ بل إنه لم

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٧٦ ، ٢٧٧ ، الصياد : المغول فى التاريخ ، جـ١ ، ص٢٧٨ ، الباز العرينى : المغول ، ص٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) هو الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب .

(٣) ابن كثير : نفس المصدر ونفس الجزء ، ص٢٢٨ ، العرينى : المغول ، ص٢٢٨ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٧٧ ، ٢٧٨ ، المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٤١٥ ، ٤١٦ .

يعلن النفير العام بين المسلمين ولم يدعوهم للجهاد والاستشهاد . وحينما ورد إليه الخبر بعبور المغول نهر الفرات وحصارهم لمدينة " بالس "(١) ، فى فرقة منهم تعدادها ثمانية آلاف ، لم يهتم ولم يدرك خطورة الموقف على بلاد الإسلام جميعها(٢) . وكل ما قام به الملك الناصر أنه خرج من دمشق إلى قرية " برزة " ، وهى قرية من غوطة دمشق ، سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، على رأس فرقة من فرق الجيش تتكون من خليط من المتطوعة والأعراب من مختلف فئات الناس ، دون تعبئة حقيقية . وظل الملك الناصر فى هذا المكان حتى دخلت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م . ولماً شعرت قواته بضعف موقفه ولين جانبه وعدم تقديره لحقيقة الخطر الواقع ، حاولوا الخلاص منه بقتله وإحلال أخيه الملك الظاهر غازى مكانه لما عرفوه عنه من شجاعة وإقدام . ولكن الملك الناصر علم بهذا التآمر عليه فأسرع هارباً إلى قلعة دمشق محتمياً بها . ولقد أعطى بذلك فرصة لتفرق الجيش الذى كان معه فهرب الكثيرون منهم إلى غزة وبصحبتهم الملك الظاهر غازى الذى بايعوه سلطاناً عليهم(٣) .

وظل الملك الناصر بدمشق دون عمل شىء حتى بلغه استيلاء المغول على حلب (فى ربيع الأول ٦٥٨هـ / فبراير ١٢٦٠م(٤) ، وما وقع على

---

(١) مدينة بين حلب والرقة تقع غربى نهر الفرات على نحو أربعة أميال (ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٣٢٨) .

(٢) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، الرياض ١٩٧٦ ، ص٦١.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٣٢ ٢٣٣ ، أبو الفدا : المختصر ، جـ٣، ص١٩٩ ، ٢٠٠، ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص٦٢ .

(٤) ذكر ابن كثير أن من الشيوخ العلماء الذين قتلهم المغول الشيخ شرف الدين بن العجمى الحلبى الشافعى (البداية والنهاية جـ١٣ ، ص٢٣٨) .

أهلها من قتل وأسر وما أصابها من نهب وتدمير ، حينئذٍ إزداد خوف الناصر وانزعاجه وسارع بالهرب بمن بقى معه من العسكر تاركاً دمشق متجهاً إلى مصر . ووصل الملك الناصر إلى غزة وأقام بها . ومن غزة أرسل لسلطان مصر المملوكى سيف الدين قطز القاضى الوزير كمال الدين عمر بن العديم رسولاً يستنجد به لقتال المغول ، فأرسل إليه السلطان قطز يعده بالمساعدة[١] .

موقف الفقهاء والعلماء فى دمشق من الغزو المغولى لمدينتهم :

وفى تلك الأثناء اشتد الخوف والهلع بأهل دمشق لتخلى سلطانهم عنهم وهروبه من دمشق ولتجردهم من السلاح ، ولتخوفهم من أن يحل ببلدهم من الدمار ما حل بسائر المدن الإسلامية الأخرى . لهذا توجه وفد من الشيوخ والأعيان للاجتماع بنائب هولاكو - كتبغا - وأعلنوا له الاستسلام والخضوع مقابل الحصول على الأمان لأهل المدينة . وقد قبل كتبغاً منهم ذلك وكتب لهم أماناً فى صفر ٦٥٨هـ / فبراير ١٢٦٠م[٢] . وبذلك حقن فقهاء وعلماء دمشق دماء أهل مدينتهم .

ودخل كتبغا دمشق فى جمادى الأولى على رأس قواته ، وبصحبته " هيثوم " ملك أرمينية المسيحى ، و" بوهيمند السادس " أمير أنطاكية وطرابلس الصليبى . وشهد سكان دمشق ، لأول مرة منذ ستة قرون ، ثلاثة أمراء مسيحيين يشقون بموكبهم شوارع دمشق .

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٣ ، ص٢٠١ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٤٧٥ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٣٢ ، أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص٢٠٣ .

وبعد سقوط دمشق فى أيدى المغول ؛ أخذت مدن الشام تسقط فى أيديهم واحدة بعد الأخرى حتى وصلوا إلى غزة وباتوا على حدود المدخل الشمالى الشرقى للبلاد المصرية ، يهددون بغزو مصر على يد جيش تركه هولاكو هناك قبل عودته إلى فارس تحت قيادة كتبغا يقدر عدده بنحو عشرين ألف مقاتل .

وكان السلطان قطز ، سلطان المماليك بمصر ، قد أعد العدة وإتخذ الاستعدادات والتجهيزات اللازمة للقاء المغول . وقد انضم إلى جيش قطز أمراء المماليك الذين سبق لهم الهروب من مصر زمن السلطان عز الدين أيبك وانحازوا إلى الناصر يوسف فى دمشق . فعادوا الآن ثانيةً إلى مصر بعد أن تم الوفاق بينهم وبين قطز من أجل وحدة صف المسلمين أمام الخطر المغولى(1) .

ولم يلبث أن وصل إلى قطز بمصر خطاب تهديد من هولاكو ، يطلب منه فيه الاستسلام(2) ، فاستهان بهذا التهديد ولم يتأثر به ، بل على العكس من ذلك فقد قام بعقد اجتماع مع كبار الأمراء والعلماء والفقهاء ، من أمثال

---

(1) كانت المماليك البحرية بمصرقد كثر ضررهم وطغيانهم وازداد نفوذهم تحت قيادة زعيمهم الفارس "أقطاى" فى عهد سلطنة الملك عز الدين أيبك ، لدرجة أنهم تطاولوا على أيبك وهموا بقتله ؛ فما كان من أيبك إلا أن قام بقتل أقطاى . فخاف البحرية على أنفسهم وهربوا إلىالشام وعلى رأسهم زعمائهم : ركن الدين بيبرس البندقدارى وسيف الدين قلاوون حيث دخلوا فىخدمة الملك الناصر يوسف صاحب دمشق (المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٣٨٤ - ٣٨٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ، ص٣٧٤) .

(2) ورد نص الخطاب عند القلقشندى (صبح الأعشى ، جـ٨ ، ص٦٣) والمقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٤٢٧ .

قاضى القضاة بدر الدين السنجارى ، وسلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام . وقد تقرر فى هذا الاجتماع الرد على تهديد هولاكو بقتل رسله إعلاناً للتحدى واستهانة بالتهديد . وقام قطز خطيبًا فى المجتمعين يحثهم على الجهاد بقوله : "يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزو كارهون .. أنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختر ذلك فليرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين "(١).

ومن الجدير بالذكر هنا أنه أثناء هذا الاجتماع الهام استشار قطز العلماء والفقهاء فى أخذ شىء من أموال العامة للاستعانة به فى تجهيز العساكر لجهاد المغول ، موضحاً لهم قلة المال فى خزانة الدولة ورغبته كذلك فى اقتراض المال من التجار . وهنا تصدر للافتاء فى هذه المسألة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وقد كان الاعتماد على ما يقوله العز(٢) .

فقال العز لقطز : " إذا لم يبق فى بيت المال شىء وانفقتم الحوائص الذهب ونحوها من الزينة وساويتم العامة فى الملابس سوى آلات الحرب ولم يبق للجندى إلا فرسه التى يركبها ، ساغ أخذ شىء من أموال الناس فى دفع الأعداء ، إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم "(٣) . فاستجاب الجميع لفتوى الشيخ ابن عبد السلام .

ولقد قام الشيخ العز بدور كبير فى رفع معنويات المجتمعين ، إذ قال لهم مطمئناً وحاثاً على الجهاد : " لا تخافوا أخرجوا وأنا أضمن لكم على الله

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٤٣٠ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ، ص٦٣ ، العينى : عقد الجمان ، جـ١ ، ص١٨٨.

(٣) السبكى : طبقات الشافعية ، جـ٨ ، ص٢١٥ ، العينى : عقد الجمان ، جـ١ ، ص٢١٨ ، ٢١٩ .

النصر "(١) وكانت عبارته هذه برداً وسلاماً على القلوب ، قوّت الروح المعنوية فيهم وزادت من ثقتهم بالله وثقتهم بأنفسهم .

وأخذ قطز يُكمل استعداداته لملاقاة المغول ، والحقيقة أن تأييد الله كان وراء الظروف التى ساعدت المماليك فى دحر الخطر المغولى . ولقد هيأ الله تعالى الظروف لهذا النصر ؛ ومن هذه الظروف وفاة منكو خان خاقان المغول سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، وقيام النزاع بين إخوته من أجل اقتسام أملاك إمبراطورية المغول الواسعة . وعندما وصلت هذه الأنباء إلى أخيه هولاكو رأى أنه من الحكمة الإسراع بالعودة إلى قراقورم ، حاضرة بلاده ؛ فعاد إليها تاركاً قيادة جيوشه بالشام لكتبغا . ودون شك أن عودة هولاكو إلى قراقورم صحبة جزء كبير من جيشه كان له أثر كبير فى إضعاف قوتهم بالشام ، ذلك فى الوقت الذى كان قطز يستكمل فيه استعدادته للقائهم بحماس زائد(٢) .

موقعة عين جالوت :

خرج قطز على رأس جيوشه قاصداً الشام لملاقاة المغول ، واستطاعت مقدمة الجيش بقيادة " بيبرس البندقدارى " ، أن تتغلب على القوات المغولية المحتشدة فى مدينة غزة ، وأن تطارد فلولها حتى نهر العاصى ، وفى أعقاب ذلك احتلت القوات المدينة سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م . وواصلت بقية القوات المملوكية زحفها تحت قيادة قطز بحذاء الساحل . ولقد تقدم الصليبيون فى عكا بطلب إلى قطز بصدد إمداده بالمساعدة الحربية ، لما عرفوه من غدر المغول مع المسلمين وغير المسلمين . لكن قطز شكرهم

---

(١) السبكى : نفس المصدر السابق ونفس الجزء ، ص٢١٥ .

(٢) الهمذانى : جامع التواريخ ، جـ١ ، ص٣٠٨ .

واستحلفهم " بألا يكونوا له أو عليه "(١) ، حتى يؤمن بذلك ظهره من ناحية الصليبيين .

واتجه قطز شرقاً - عبر الجليل - إلى الأردن عن طريق الناصرة ، لاسترداد دمشق من المغول . وقد لجأ قطز إلى خدعة حربية صائبة ، وهى أنه أخفى معظم قواته بين أشجار الغابات المحيطة بمنطقة عين جالوت ، بين بيسان ونابلس ، وواصلت مقدمة الجيش بقيادة بيبرس سيرها تجاه معسكر المغول . ووصلت من بعلبك قوات مغولية بقيادة كتبغا ، فالتقت القوات المغولية بقوات المماليك عند قرية عين جالوت ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ / سبتمبر ١٢٦٠م(٢) .

ودار قتال عنيف بين الطرفين أظهر خلاله المماليك شجاعة نادرة وبطولة كبيرة ويقال أن السلطان قطز كان يصيح بأعلى صوته بين صفوفه قائلاً : " وا إسلاماه " ، وذلك تحميساً وتشجيعاً لجنده . وأسفرت هذه الموقعة التاريخية الكبرى عن انتصار القوات الإسلامية وهزيمة المغول وقتل قائدهم كتبغا فى المعركة(٣) .

ولا شك فى أن انتصار المسلمين على المغول فى موقعة عين جالوت يُعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ العالم بصفة عامة وتاريخ الشرق الأدنى

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٤٣٠ ، العبادى : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩ ، ص١٦٢ .

(٢) الهمذانى : جامع التواريخ ،جـ١ ، ص٣١٣ ، ابن أيبك ، كنز الدرر ، جـ٨ ، ص٥٠.

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص٦٣ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ٨ ، ص٤٩ ، ٥٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ، ص٧٩ ، ٨٠ .

على وجه الخصوص ، فقد أنقذت هذه الموقعة مصر والشام من خطر المغول وحسرت المد المغولى عند حدود العراق . كذلك ثبتت هذه الموقعة دعائم دولة المماليك فى مصر والشام ، وحطمت الاعتقاد الذى ساد آنذاك من أن المغول قوم لا يهزمون ، فقد كانت عين جالوت أول مسمار دق فى نعش دولة المغول .

ودون شك فى أن النصر الذى تحقق فى عين جالوت كان توفيقاً ومساندة من الله تعالى لدينه وللمسلمين ، وهو وحده يعلم بما كان سوف يحل بدولة الإسلام وبالمسلمين لو لم يتحقق هذا النصر العظيم . لكن الله تعالى بشر المجاهدين بالنصر ووعدهم به بقوله تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ . ولا شك فى أن الحماس الدينى والإقبال على الجهاد وعدم الخوف من الموت والاستشهاد كان دور علماء المسلمين وفقهائهم فى هذه المعركة التاريخية الحاسمة . ولقد تقدم العلماء والفقهاء صفوف المقاتلين وحاربوا بالسيف وبالكلمة ، وضربوا أروع الأمثلة فى الصمود والتحدى لبقية المقاتلين الذين انساقوا وراءهم يضربون ويقتلون ملبين لنداء سلطانهم : " وا إسلاماه " .

وبعد أن قطع قطز دابر المغول بالشام ورتب الأمور بها وأراد العودة إلى مصر ، حدث نزاع بينه وبين بيبرس وجماعته ، قُتل قطز على أثره ، وبايع الأمراء بيبرس سلطاناً عليهم ، وهكذا اغتالت يد الغدر ذلك القائد العظيم الذى سجل التاريخ اسمه فى صفحاته بحروف من نور .

ولقد أعقب مصرع قطز انقسام بين صفوف المماليك ، استغله المغول للانتقام من هزيمتهم فى عين جالوت ومصرع قائدهم كتبغا . وكانت أول

مظاهر هذا الانقسام هو قيام الأمير سنجر الحلبى ، نائب السلطنة فى دمشق ، بإعلان نفسه سلطاناً ورفضه مبايعة بيبرس سلطاناً(١) .

وانتهز المغول هذه الفرصة فبادروا بشن هجوم على الشام واستولوا على حلب وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها انتقاماً لمقتل كتبغا فى معركة عين جالوت(٢) .

ولكن أميرىْ حماة وحمص تصديا للقوات المغولية ، واستطاعوا الانتصار على هذه القوات بالقرب من حمص ، وذلك بمشاركة القوات المملوكية التى أرسلها بيبرس إلى بلاد الشام سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠-١٢٦١م .

ولا شك فى أن النصر الذى تحقق فى موقعة حمص ، كان نتاجاً لنصر عين جالوت . وقد رفعت موقعة حمص من الروح المعنوية للمسلمين ، وفى المقابل كان لها أسوأ الأثر عند المغول ، حتى بلغ من شدة غيظ هولاكو حين علم بهزيمة قائده " بيدرا " فى هذه الموقعة أن أمر بقتل الملك الناصر يوسف صاحب دمشق السابق والذى كان سجيناً عنده(٣) .

وعندئذٍ جهز السلطان الظاهر بيبرس جيشاً لإخراج المغول من حلب ، فسار إليها وتمكن من دخولها منتصراً وأخرج المغول منها " على أقبح وجه " ، كما ذكر ابن تغرى بردى(٤) . ولم يرتدع المغول بعد ذلك فواصلوا هجومهم على بعض بلاد الشام حين سنحت لهم الفرصة لذلك ؛ فهاجموا

(١) ابن كثير : البداية ، جـ١٣ ، ص٢٣٦ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ٨ ، ص٦٤ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ، ص١٠٦ .
(٣) الذهبى : دول الإسلام ، جـ٢ ، ص١٦٦ .
(٤) النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص١٠٩ .

البيرة(١) سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م ، ولكنهم ابتعدوا عنها عندما أحسوا بوصول الجيوش المصرية إلى حران(٢) .

وفى سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م توفى هولاكو ، وأعقب وفاته حدوث انقسام فى صفوف المغول بسبب النزاع على السلطة بين بركة خان ، ابن عم هولاكو ، وبين أبغا خان ابن هولاكو وأسفر النزاع عن وقوع الحرب بينهما التى انتهت بانتصار بركة خان على أبغا(٣) . وعقب هذه المعركة انقسم المغول إلى معسكرين : مغول فارس تحت حكم أبغا ، ومغول القبجاق (القبيلة الذهبية) شمالى بحر قزوين والبحر الأسود . وقد حاول مغول فارس إقامة جبهة موحدة مع الصليبيين ضد المسلمين ، لكن الظاهر بيبرس نجح فى إفشال مشروع التحالف المغولى الصليبى ، بعقده تحالف مضاد مع مغول القبجاق ، وقد ساعد على إتمام هذا التحالف اعتناق الملك بركة خان لدين الإسلام . وتأكدت أواصر التحالف بين الجانبين بزواج الظاهر بيبرس من ابنة بركة خان ، وأصبح التحالف بين مصر ومغول القبجاق ، منذ ذلك الوقت ركناً تقليدياً من أركان سياسة دولة المماليك بمصر والشام ، وساعد هذا التحالف فى وقوف سلاطين المماليك موقفاً حازماً من مغول فارس .

وقد قام المغول بعدة غارات على حلب ، قام بيبرس ، على أثرها ، بإرسال قواته لإبعادهم عنها ، ولم يسع المغول إلا الفرار

---

(١) البيرة : قلعة حصينة مرتفعة على حافة نهر الفرات فى البر الشرقى (أبو الفدا : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ ، ص٢٦٨ ، ٢٦٩) .

(٢) ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ٨ ، ص١٠٧ ، المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٤٤٣ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٥٤١ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٨٥ .

خوفاً من مواجهة الظاهر وجيوشه ، وارتد المغول إلى ما وراء نهر الفرات .

وأرسل أبغا فى شوال سنة ٦٧٠هـ/١٢٧٢م يطلب الصلح مع بيبرس، وفشلت مفاوضات الصلح التى تجددت فى العام التالى وفشلت أيضاً . ولذلك أرسل المغول فرقة مغولية إلى البيرة قامت بحصارها . وكان الظاهر فى دمشق آنذاك ، فلما علم بهذا الهجوم سار بنفسه على رأس قواته ليفك الحصار عن البيرة ، وتقابل مع الفرقة المغولية على شط الفرات ، فوقعت الهزيمة بالمغول ولم يجد رجالهم أمامهم سوى إلقاء أنفسهم فى مياه النهر أملاً فى النجاة(١) ، وقد قام بيبرس بأسر عدد كبير من رجال المغول عاد بهم فى الأغلال إلى دمشق .

ومن خلال ما أورده ابن تغرى بردى عن هذه المعركة وما أورده من أشعار قيلت فيها نستنتج أن الفقهاء والعلماء قد شاركوا مشاركة فعلية بالقول والعمل فى هذه المعركة ، وكان أبرزهم فيها الشيخ ناصر الدين حسن بن النقيب الكنانى الشاعر ، الذى نظم قصيدة فى هذه الموقعة ، وذكر عنه ابن تغرى بردى أنه " كان حاضراً الوقعة "(٢) .

وفى سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٧م علم الظاهر بيبرس بأن عسكر الروم قد اجتمعوا مع عسكر المغول على نهر جيحان(٣) ، فتوجهت القوات المملوكية

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٦٠٦،٦٠٧ ، ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨ ، ص١٦٩.
(٢) النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص١٥٨ - ١٦٠ .
(٣) نهر يخرج من بلاد الروم ويصب عند مدينة إزاء المصيصة تُعرف بكفر بيا ، (ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص١٩٦) .

بقياة السلطان الظاهر بصحبة العامة والعلماء والفقهاء ، إلى صحراء الأبلستين(١) . ووقع القتال بين الطرفين ، وكادت الهزيمة تقع فى جيش المسلمين بسبب كثرة عدد جند الأعداء فوقع خلل فى صفوف المسلمين ، عندئذٍ لجأ الظاهر بيبرس إلى العلماء والفقهاء ليحمسوا الناس على الجهاد وطلب الاستشهاد(٢) ، وبالفعل قام العلماء والفقهاء بالأهلال والتكبير وتقدموا الصفوف لقتال العدو ، فأثار موقفهم بقية الجند فقاموا قومة رجل واحد وحاربوا دون مبالاة بالموت ، فحققوا بذلك نصراً كبيراً وقتلوا من العدو أعداداً هائلة وأسروا أعداداً . وقد قُتل فى هذه المعركة القائد المغولى تتاون ، بينما تمكن قائد جيوش الروم من النجاة بنفسه والفرار إلى قيسارية .

وعلى أثر هذه الهزيمة وصل أبغا بقواته إلى قيسارية ، فصب غضبه على أهلها وقام بنهبها وقتل من كان بها من المسلمين ، ويُقال أنه قد قتل من الفقهاء والقضاة ورعايا المسلمين الذين تواجدوا فيها ما يزيد على الألفى نفس(٣) .

ولقد استمرت المناوشات بين الطرفين الإسلامى والمغولى حتى وفاة السلطان الظاهر بيبرس فى المحرم سنة ٦٧٦هـ / يوليو ١٢٧٧م ، ودفنه فى مدينة دمشق .

ولقد كانت الفترة التى أعقبت وفاة الظاهر بيبرس وحتى قيام السلطان المنصور سيف الدين قلاوون بالسلطنة سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م ، فترة مليئة

(١) وهى مدينة مشهورة ببلاد الروم (ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٥٧) .
(٢) الذهبى : دول الإسلام ، جـ٢ ، ص١٧٦ .
(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٦٣٣ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ٨ ، ص٢٠٧ .

بالقلاقل والفتن الداخلية فى مصر والشام ، وذلك بسبب التنازع على العرش . وقد تولى الحكم فيها اثنان من أبناء بيبرس الصغار وهما : محمد بركة وبدر الدين سلامش ، وقد حاول المغول خلالها مهاجمة دولة المماليك والاستفادة من هذا الاضطراب ، واستغل أبغا هذه الفرصة ، بعد أن أعلن قلاوون نفسه سلطاناً فأغار بقواته من جديد على بلاد الشام وهاجم أعمال حلب ، واستولى على عينتاب وبغراس ودربساك ، ودخلوا حلب ، وعمدوا إلى همجيتهم ووحشيتهم المتأصلة فيهم ، فقتلوا ونهبوا وسبوا وأحرقوا المساجد والمدارس ودار السلطنة ، وبعد أن حققوا ما أرادوا انسحبوا عائدين بغنائمهم وارتدوا إلى ما وراء الفرات خوفاً من انتقام المسلمين منهم(١) .

وعاود المغول هجومهم على الشام فى العام التالى وقصدوا مدينة حماة، لكن جيوش قلاوون التقت بهم قرب حمص ، وكان عدد المغول ، على ما قيل مائة ألف فارس أو يزيدون وعسكر المسلمين على مقدار النصف من ذلك أو أقل(٢) . وقد انضم لجيش المغول كل من ملك قليقية ، ليو الثالث ، بقواته ورجال الإسبتارية من حصن المرقب(٣) . ولقد وقع اشتباك عظيم بين الفريقين ، ويصف الشيخ قطب الدين اليونينى ، الذى شارك فى هذه الموقعة بقوله : " وكانت وقعة عظيمة ولم يشهد مثلها فى هذه الأزمان ولا من سنين كثيرة "(٤) .

---

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، القاهرة ١٩٧٦ ، جـ١ ، ص٥٩.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص٣٠٣ .

(٣) العرينى : المغول ، ص٣٠٤ .

(٤) اليونينى : ذيل مرآة الزمان ، طبعة الهند ١٩٦١ ، جـ٤ ص٩٣ .

واستطاعت جيوش قلاوون أن تنزل هزيمة ساحقة بجيش المغول وحلفائهم ، فقتل منهم عدد كبير وفر عدد آخر مجتازاً نهر الفرات ، الذى أضحى الحد الفاصل بين الدولتين المملوكية والمغولية . ولّما علم أبغا بالهزيمة الساحقة التى مُنى بها جيشه بقيادة قائده الكبير منكوتمر رجع إلى همذان ومات هناك غماً وكمداً ، وذلك فى سنة ٦٨٠هـ/١٢٨٢م(١) .

ولقد اتضح لنا من خلال كتابات المؤرخين أن دور الفقهاء والعلماء فى الجهاد ضد المغول فى هذه المعركة كان كبيراً ، فلم يقتصر هذا الدور على الدعاء وتشجيع الناس على الجهاد فحسب ، بل تقدموا الصفوف وشاركوا فى القتال بالسلاح مشاركة فعلية ، واستشهد منهم الكثيرون وهم يقاتلون فى هذه المعركة . ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، الشيخ أبو محمد عبد الله اليونينى الذى ذكر عنه قطب الدين اليونينى " أنه حضر مصاف حمص بين المسلمين والمغول وقاتل قتالاً شديداً واستشهد فى هذا القتال ودفن بقرب مشهد خالد بن الوليد رضى الله عنه "(٢) .

كذلك قاتل فى هذه المعركة واستشهد من العلماء الشيخ العالم شمس الدين يوسف بن إبراهيم بن قريش المصرى ، أحد كتاب الدرج بالديار المصرية ، وقد استشهد وله من العمر سبعون عاماً(٣) .

وبعد وفاة أبغا تبدلت العلاقات فجأة بين مغول فارس وسلطنة المماليك، فقد تولى الحكم بعده أخوه تكودار سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م ، الذى كان قد اعتنق

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧،ص٣٤٨،اليونينى:ذيل مرآة الزمان ، جـ٤،ص١٠٠.

(٢) اليونينى : ذيل مرآة الزمان ، جـ٤ ، ص١١١ ، ١١٢ .

(٣) اليونينى : نفس المصدر ، جـ٤ ، ص١٣٣ ، ١٣٤ .

الإسلام وتسمى باسم أحمد . وأراد أحمد تكودار التصالح مع دولة المماليك ، وكان من الطبيعى أن يرحب قلاوون بذلك ، لكن قواد المغول اعترضوا على محاولة الصلح هذه وقاموا بقتل تكودار وتعيين ابن أخيه " أرجون بن بُغا " مكانه فى حكم مغول فارس .

ولقد كان أرجون يكره المسلمين ، فقام بقتل أعداد كبيرة منهم فى البلاد التى كانت تحت يده ، الأمر الذى أدى إلى معاداة دولة المماليك له . ويُعتبر أرجون مؤسس دولة المغول " الإيلخانية " المعادية لدولة المماليك وللمسلمين، وقد ظلت هذه الدولة على حرب مع عدد كبير من سلاطين دولة المماليك البحرية . وقد أدى ذلك العداء إلى اشتداد الشعور فى دولة المماليك بضرورة طرد المغول من العراق وتحريرها منهم . ولم يستطع المماليك تنفيذ ذلك إلا فى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣هـ/١٢٩٠ - ١٢٩٣م) . ولقد قام هذا السلطان بالإغارة على بلاد المغول وحاصر قلعة الروم ، معقل نشاطهم ، واستولى عليها ، وقد تم له ذلك فى عهد حكم " غازان " ، حاكم مغول فارس الذى تولى السلطة فيها بعد موت أرجون سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م .

ولم تتوقف حروب خليل بن قلاوون مع المغول ، خاصةً بعد أن تفرغ لمواجهتهم بعد تخلصه من الخطر الصليبى فى الشام نهائياً بعد اقتلاع آخر جذورهم منها باستيلائه على مدينة عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م . ولقد اعتزم السلطان خليل التوجه إلى بغداد لانتزاعها من يد المغول ، لكن عزمه لم يتحقق إذ لقى مصرعه على أثر مؤامرة دُبرت ضده فى المحرم سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م .

وعقب مقتل الأشرف خليل دخلت سلطنة المماليك فى فترة صراع داخلى وتنازع قواد المماليك على السلطنة ، كما هى العادة عقب وفاة كل سلطان ، واستمرت هذه الفترة حتى كانت سلطنة المنصور لاجين (٦٩٦ - ٦٩٨هـ/١٢٩٦ - ١٢٩٩م) ثم سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨هـ/١٢٩٩ - ١٣٠٩م)(١) .

ولقد انتهز المغول فترة الصراع هذه وتحركت لديهم الرغبة فى غزو بلاد الشام ؛ فاندفع غازان بجيوشه سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م ليعبر الفرات إلى بلاد الشام ، فتوجه السلطان الناصر محمد ، وكان يبلغ من العمر وقتها أربعة عشر عاماً ، بعساكره إليها وقصد مدينة حمص ، وعسكر بجيشه فى مكان يسمى وادى الخازندار خارج المدينة . وهناك التقى جيش الناصر بجيش المغول ، ودارت معركة عنيفة انتهت بنصر المغول وفرار السلطان المملوكى وبعض رجال دولته إلى بعلبك ومنها إلى دمشق(٢) .

ومن الجدير بالذكر أن الفقهاء والعلماء قد شاركوا فىهذه المعركة ، وقد ذكر ابن كثير أن قاضى القضاة حسام الدين أبو الفضائل الحنفى قد استشهد فى هذه المعركة وهو فى سن السبعين(٣) . كذلك يذكر ابن العماد

---

(١) تولى الناصر محمد بن قلاوون الحكم ثلاث مرات ، إلا أنه فى المرتين الأوليتين كان طفلاً صغيراً لكنه فى المرة الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١هـ) كان قد صلُب عوده ونجح فى دعم حكمه والتخلص من أعدائه وإقامة الحكم المستقر الآمن الذى لم تعرفه مصر فى عهد سابقيه من سلاطين المماليك .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٨٨٦ - ٨٨٨ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ، ص١٩٠ .

الحنبلى أن فى هذه الموقعة استشهد من شيوخ الحديث بدمشق والجبل أكثر من مائة شيخ(١) .

وكان لهذه الهزيمة التى لحقت بالجيوش المملوكية على يد المغول ، لأول مرة(٢) ، أسوأ الأثر فى نفوس أهل دمشق وغيرها من بلاد الشام ، فقد أصاب الناس الخوف والهلع مما قد يحدث لهم على يد المغول لو تقدموا إلى بلادهم .

وهنا تصدر العلماء والفقهاء والأعيان للاجتماع الذى تم عقده فى " مشهد على " بدمشق مع أهل البلد ، وتشاوروا فى أمر الخروج إلى ملك المغول غازان من أجل أخذ الأمان لأهل دمشق حقناً لدماء المسلمين . ويعدد المؤرخ ابن تغرى بردى أسماء الفقهاء والعلماء الذين حضروا هذا الاجتماع الهام قائلاً: " .. من الفقهاء قاضى القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة ، خطيب جامع دمشق آنذاك ، والشيخ زين الدين الفارقى ، والشيخ تقى الدين بن تيمية ، والقاضى نجم الدين بن الصيصرى ، والصاحب فخر الدين بن السيرجى ، والقاضى عز الدين بن الزكى ، والشيخ وجيه الدين بن المنجا ، والشيخ الصدر الرئيس عز الدين عمر بن القلانسى ، وابن عمه شرف الدين ، وأمين الدين بن شقير الحرانى ، والشريف زين الدين بن عدنان ، والصاحب شهاب الدين الحنفى ، والقاضى شمس الدين بن الحريرى ، والشيخ محمد بن قوام النابلسى .... وجماعة كثيرة من العدول والفقهاء والقراء "(٣).

---

(١) شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص٤٣٣ .

(٢) بعد عين جالوت .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٨ ، ص١٢٣ .

وقد اتفق رأى المجتمعين على المسير إلى غازان ومقابلته قبل أن يدخل دمشق ، ليأخذوا الأمان منه لأهلها . وبالفعل توجهوا يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م واجتمعوا بغازان خارج دمشق ، وفى هذا اللقاء تجلت شجاعة وقوة الشيخ الفقيه العالم تقى الدين بن تيمية ، فيذكر ابن كثير أنه فى أثناء الاجتماع بغازان " كلمه الشيخ تقى الدين كلاماً قوياً شديداً فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين ولله الحمد "(١) .

وظلت دمشق وأهلها فى قلق وخوف حتى وصلهم رسول من غازان يحمل لهم أماناً يطمئن فيه الناس على أرواحهم ، فسكنت قلوب الأهلين واطمأنت . ولكن سرعان ما نقض غازان العهد ، إذ دخلت قواته دمشق يوم الاثنين ١٠ من ربيع الآخر سنة ٦٩٩هـ/١٣٠٠م وقامت بنهبها والإفساد فيها، ثم فرضوا على أهلها أموالاً طائلة وضاعفوها عليهم أكثر من مرة . فلاقى منهم أهل دمشق من جراء ذلك ويلات وشدائد كثيرة .

وإزاء تلك التصرفات اللا إنسانية ، لم يقف العلماء ساكنين ، بل تجمعوا تحت قيادة الشيخ ابن تيمية واتفقوا على ان يتوجهوا لمقابلة غازان وتذكيره بوعد أمانه لأهل دمشق ، لكن هذا الوفد لم ينجح فى مقابلة غازان (٢) .

وفى تلك الأثناء حاول غازان ملك مغول فارس أن يستولى على قلعة دمشق ، التى استعصت عليه ، وكان يلى أمرها الأمير أرجواش المنصورى(٣) .

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ، جـ١٤ ، ص٨ .

(٢) ابن كثير : البداية ، جـ١٤ ، ص١٠ .

(٣) هو الأمير علم الدين سنجر المنصورى ، المعروف بأرجواش ، والمتوفى سنة ٧٠١هـ (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٨ ، ص١٢٥ ، ص١٩٨) .

وقد ثبت هذا الأمير فى الاحتفاظ بالقلعة ولم يضعف أمام التهديد المغولى ، ويتضح لنا من خلال ما ذكره ابن كثير أنه كان للشيخ ابن تيمية دور كبير وبارز فى وقفة الشجاعة العظيمة التى أبداها أرجواش ، يقول ابن كثير : " .. وصمم (أراجواش) على ترك تسليمها إليهم وبها عين تطرف ، فإن الشيخ تقى الدين بن تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك ؛ لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت ، وكان فى ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذى جعله الله حرزًا لأهل الشام التى لا تزال دار إيمان وسُنة "(١) .

ولقد استمر الشيخ ابن تيمية يجاهد المغول من موقعه داخل دمشق ، من ذلك أنه خرج فى ثامن رجب من السنة نفسها (٦٩٩هـ/١٣٠٠م) إلى معسكر " بولاى " ، قائد العسكر المغولى ، فاجتمع به وتفاوض معه فى فك أسر المسلمين الذين عنده ، ونجحت مساعى الشيخ واستطاع أن يستنقذ كثيراً من أسارى المسلمين بعد مفاوضات استمرت مدة ثلاثة أيام(٢) .

وفى الشهر نفسه ، أمر أرجواش نائب قلعة دمشق بالنداء من الجامع الأموى ، بعد الصلاة ، بإعلام الناس بأن العساكر المصرية قادمة وهى فى طريقها إلى الشام ؛ فلماً سمع المغول ذلك أصابهم الرعب وارتحلوا عن دمشق . وعندئذ خرج أعيان دمشق وعلمائها وفقهائها ، وفى مقدمتهم الشيخ عز الدين بن القلانسى ، لمقابلة القوات المصرية . ولماً خرج هؤلاء جميعاً ولم يبق فى البلد أحد ، خاف أرجواش أن ينتهز المغول الفرصة ويعاودوا

(١) ابن كثير : البداية ، جـ١٤ ، ص٩ .

(٢) ابن كثير : نفس المصدر والجزء ، ص١١ ، ١٢ .

مهاجمة دمشق ؛ لذلك طلب أرجواش من المقاتلين أن يخرجوا أسلحتهم ويحافظوا بها على أسوار وأبواب المدينة . ولقد شارك الشيخ ابن تيمية الناس فى هذا الأمر ولم يبت فى داره ، " وكان يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط "(١) .

وبدأ الجميع فى الاستعداد وعمل التحصينات اللازمة تحسباً لعودة المغول مرة أخرى لدمشق ، ونودى فى المدينة بأن يعلق الناس الأسلحة بالدكاكين ، وصدرت الأوامر بأن يتعلم الناس الرمى ، وذلك حتى يشترك الجميع فى قتال العدو إذا ما وصل إلى البلاد . فعُملت أماكن للتدريب على ذلك فى أماكن كثيرة بالمدينة . ومما يذكر هنا أن قاضى القضاة بدمشق أصدر أوامره بفتح المدارس للتدريب فيها على الرمى ، كما أصدر أوامره بأن يتعلم الفقهاء الرمى وأن يستعدوا لقتال العدو إذا هو حضر(٢) .

وفى بداية سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م وصلت الأخبار إلى مصر بتحرك المغول إلى الشام وعزمهم على غزو مصر ، فأثار ذلك ذعر الناس وخوفهم. ولما تنامت هذه الأخبار إلى علم أهل دمشق سارع الشيخ ابن تيمية بعقد مجلس وعظه بالجامع الأموى وتحريض الناس على الصمود فى وجه العدو وقتاله ونهاهم عن التخاذل والفرار من وجه العدو ، ورغبهم فى الجهاد بالنفس والمال . وفى أول ربيع الآخر من نفس العام اشتد خوف أهل دمشق بعد أن وصلهم خبر وصول المغول إلى البيرة ، فقام جماعة الفقهاء والعلماء بتطييب قلوب الناس والتخفيف عنهم وطمأنتهم بقرب وصول قوات السلطان من مصر . ولكن جاءت الأخبار بأن السلطان بعد أن خرج مع العساكر من

(١) ابن كثير : البداية ، جـ١٤ ، ص١٢ .

(٢) ابن كثير : نفس المصدر والجزء ، ص١٣ ، ١٤ .

مصر قاصداً الشام منعته الأمطار والسيول والبرد الشديد عن مواصلة السير مما اضطره للعودة إلىمصر حتى تخف حدة هذه الحالة فيرجع إلى الشام(١). ونتيجة لتأخر وصول السلطان واقتراب العدو من دمشق ، زاد وجل الناس وذعرهم ، فخرج إليهم الشيخ ابن تيمية والتقى بهم مع نائب الشام (مستهل جمادى الأولى) فثبتهم وقوى جأشهم ووعدهم بالنصر والظفر على الأعداء . وأثناء هذا الاجتماع طلب النائب والأمراء من الشيخ التوجه إلى مصر ليستحث السلطان محمد بن قلاوون على سرعة القدوم إلى الشام ، ولم يتأخر الشيخ عن القيام بهذه المهمة ولم يعبأ بخطورة الطريق . وكان هذا الدور من الشيخ ابن تيمية أكبر دليل على أهمية دور الفقهاء والعلماء فى مواجهة الخطر المغولى .

وفى القاهرة اجتمع الشيخ ابن تيمية مع السلطان والوزراء والأمراء والأعيان واستحثهم على تجهيز العسكر والتوجه به إلى الشام ، وقد قال لهم ضمن ما قال : " إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله فى زمن الأمن .... ولو قُدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنه "(٢) ثم تلا الشيخ قوله تعالى : ﴿ وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾(٣) ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً ﴾(٤) .

---

(١) ابن تغرى بردى / النجوم ، جـ٨ ، ص١٣١ .

(٢) ابن كثير : البداية ، جـ١٤ ، ص١٧ .

(٣) محمد : ٣٨

(٤) التوبة : ٣٩

ومما يذكر هنا أن الشيخ القاضى تقى الدين بن دقيق العيد ، عندما بلغه موقف الشيخ ابن تيمية ، استحسنه وأعجب به ، وتعجب من جرأة ابن تيمية ومقدرته على مواجهة السلطان بمثل هذا القول الشديد وبكل هذه القوة . وعلى ذلك أخذ الشيخ ابن تيمية فى تقوية جأش الأمراء والمجتمعين مع السلطان ، وضمن لهم النصر هذه الكرة . فخرجوا من مصر قاصدين الشام ، وعاد ابن تيمية إلى الشام فى ٢٧ جمادى الأولى . ولمّا علم أهل دمشق ذلك فرحوا واطمأنوا ، ونودى فى الناس بالاستعداد لمجابهة المغول الذين كانوا قد وصلوا إلى سرمين ، جنوبى حلب . فخرج جماعة من الفقهاء من بينهم : الشيخ زين الدين الفارقى ، والشيخ إبراهيم الرقى ، وابن قوام ، وابن خبارة، واجتمعوا بنائب السلطنة فى دمشق وقووا عزمه على ملاقاة العدو . ثم توجهوا ، بعد ذلك ، واجتمعوا بالأمير مهنا ، أمير العربان ، وحرضوه على قتال العدو ، فأجابهم بالسمع والطاعة(١) .

وهكذا استعد الجميع للقتال وأعدوا له عدته بفضل تشجيع العلماء والفقهاء لهم ، لكن الأخبار جاءت لأهل دمشق ، بعد ذلك ، بأن ملك المغول غازان قد عبر الفرات بنية العودة إلى بلاده بعدما شعر بقوة استعداد المسلمين وقلة عدد جنوده . ففرح أهل دمشق بذلك واستبشروا(٢) .

ولماً رجع غازان إلى بلاده حاول الحصول على مساعدات من الدول الأوربية الصليبية ولكن محاولته باءت بالفشل ، فلم يكن أمامه إلا طلب

---

(١) ابن كثير : نفس المصدر والجزء ، ص١٧ ، ١٨ .

(٢) الذهبى : دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨، ص١٣٢ .

الصلح والهدنة مع سلطان المماليك وذلك لكسب الوقت لتجهيز قوته من جديد ليستأنف نشاطه مرة أخرى(١) ، لذلك أرسل سفارة من عنده إلى الملك الناصر يطلب فيها الصلح . وفى الوقت نفسه وردت أخبار للملك الناصر بأن غازان أرسل جيشاً من عنده بقيادة قائده قطلوشاه ، وأن هذا الجيش قد وصل إلى قرب الفرات . فسارع الناصر بإصدار أوامره بخروج جيوشه للقاء العدو، وذلك فى شهر رجب سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م ، ووصلت هذه القوات إلى الشام فى منتصف شعبان تحت قيادة الأمير بيبرس الجاشنكير ، وكان عددها حوالى الثلاثة آلاف جندى(٢) . واتخذت الجيوش الإسلامية مدينة حماه مركزاً لتجمعها . ووصلت العساكر المصرية واجتمعت مع الشامية يوم الخميس ٢٩شعبان سنة ٧٠٢هـ / مايو١٣٠٣م ، وفى يوم السبت ثانى رمضان اتفق الجميع على قتال المغول عند مرج الصفر(٣) . ولقد شهد الخليفة العباسى المستكفى بالله هذه المعركة وكان واقفاً إلى جانب السلطان فى قلب الجيش ، وكان هدف اصطحاب الخليفة فى هذه المعركة هو تقوية الروح المعنوية عند المحاربين . وبعد قتال عنيف أبلى فيه المسلمون بلاءً عظيماً ، انكسر جيش المغول وانهزم هزيمة ساحقة فى هذه المعركة التى تُعد أقسى على المغول من معركة عين جالوت . ولقد قتل من المغول فى هذه المعركة أعداد هائلة ، حتى أنهم بعدها جنحوا إلى السلم ولم يفكروا ثانيةً فى محاربة المسلمين .

---

(1) Howorth: History of the Mongols, Part 3, p. 457.

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٩٣١ .

(٣) تُطلق بعض المصادر على هذه المعركة بمعركة شقحب ، وهى مرج الصُفر وهى قرية من أول عمل حوران من نواحى دمشق ، وتُعرف هذه القرية أيضًا بغباغب (ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص١٨٤) .

وكان لهذه المعركة من الفرحة والبهجة فى نفوس المسلمين فى سائر العالم الإسلامى ، ما كان لمعركة عين جالوت من صدى فى نفوسهم .

ولقد كان للشيخ ابن تيمية دور كبير فى هذه المعركة وفى النصر الذى تحقق للمسلمين فيها ، فلقد وقف يقاتل إلى جوار الخليفة والسلطان ، وكان يحرض المسلمين على القتال ويبشرهم بالنصر . ولقد أفتى ابن تيمية المقاتلين بالفطر مدة قتالهم فى شهر رمضان وأفطر هو أيضاً حتى يقتدى المقاتلون به " وكان يدور على الأجناد فيأكل من شيء معه فى يده ليعلمهم أن إفطارهم ليقووا على القتال أفضل من صومهم وضعفهم "(١) .

وتعد معركة مرج الصفر (شقحب) هذه من المواقع التاريخية الحاسمة، فبعد الهزيمة الساحقة التى منى بها المغول لم تقم لغازان بعدها قائمة ، فعندما وقع الخبر عليه بالهزيمة " اغتم غماً عظيماً وخرج من منخريه دم كثير حتى أشرف على الموت ، واحتجب عن حواشيه ، فإنه لم يصل إليه من عساكره من كل عشرة واحد ممن كان انتخبهم من خيار جيشه ... وفى الجملة فإنه حصل على غازان - بهذه الكسرة - من القهر والهم مالا مزيد عليه "(٢) . وظل غازان يقاسى مرارة هذه الهزيمة حتى مات كمداً فى ١٣ذى الحجة سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م(٣) .

وتولى حكم مغول فارس بعد موت غازان أخوه خربندا بن أرجون ، الذى تلقب باسم " أولجاتيو محمد " عند توليه السلطنة ، وكان مسلماً على

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ، ص٢٨٨ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ، ص١٦٤ ، ١٦٥ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ، ص٥٠ ، العينى: عقد الجمان، جـ٤ ، ص٣١٦ ، ٣١٧.

المذهب الشيعى . وقد طلب أولجاتيو من الملك الناصر الصلح ووقف الحرب بين المغول وسلطنة المماليك . ولكن أولجاتيو لم يكن جاداً فى هذا الصلح فسرعان ما ظهرت خبايا نفسه لمخالفته مذهب المماليك السُنى . وظهرت نوايا أولجاتيو العدوانية فى سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٦م حين كمنت قواته لجيش حلب وقتلت وأسرت منهم عدداً كبيراً حملوهم إلى بلادهم . وكان صاحب سيس قد ساعد المغول على هذا النصر . وإزاء هذا التعدى أمر السلطان الناصر محمد بخروج تجريدة من مصر إلى صاحب سيس لتأديبه على مساعدته للمغول فى هجومهم هذا . لكن صاحب سيس قدم اعتذاره للسلطان ووعده بإعادة الأسارى المسلمين له ، وبالفعل نجح صاحب سيس فى إطلاق سراح أسارى المسلمين من يد المغول فرجعت التجريدة المصرية من غزة بعد أن كانت قد وصلت إليها(١) .

وأعقب ذلك اضطراب الأمور فى مصر وتنازل السلطان الناصر محمد عن السلطنة ولجوئه إلى الكرك ، واعتلاء الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير السلطنة فى شوال ٧٠٨هـ/١٣٠٩م ، ثم عودة الناصر محمد للسلطنة للمرة الثالثة فى شوال ٧٠٩هـ/١٣١٠م . وكان نتيجة هذه الاضطرابات أن هرب بعض أمراء المماليك إلى أولجاتيو يستنصرونه على الناصر محمد ، وكان على رأس هؤلاء الأمراء الأمير قراسنقر ، نائب الشام، والأمير أقوش الأشرم ، وقد زينوا لأولجاتيو أخذ الشام . وكان أن استجاب أولجاتيو لذلك وعزم على غزو الشام وتوجهت بالفعل قواته إلى الشام سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م ووصلت الرحبة ، التى دافع عنها نائبها وأهلها دفاعاً شديداً حتى ردوهم عنها مما جعله يرتد عنها . وفى شهر شوال من نفس العام

(١) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ص١٧ ، العينى : عقد الجمان ، جـ٤ ، ص٣٨٣ .

وصل السلطان الناصر محمد إلى دمشق على رأس جيشه لرد المغول ، ويذكر ابن كثير أن الشيخ ابن تيمية حضر من مصر صحبة السلطان بنية مقاتلة العدو(١) . ولماً وجدت قوات السلطان أن قوات المغول قد عادت إلى بلادها لم يقع بين الطرفين قتال ، فعاد السلطان وقواته إلى القاهرة في صفر ٧١٣هـ/١٣١٣م .

ولقد ظلت العلاقات سيئة بين أولجاتيو والناصر محمد ، حتى وفاة أولجاتيو فى شهر رمضان ٧١٦هـ/١٣١٦م(٢) . وقد تولى حكم مغول فارس بعد موت أولجاتيو ابنه " بوسعيد " (٧١٧هـ - ٧٣٦هـ/١٣١٧ - ١٣٣٦م)، وفى عهده تحسنت العلاقات بين المغول وسلطنة المماليك . وجنح بوسعيد إلى التقرب من الملك الناصر والصلح معه ، وقد استمر هذا الصلح وتلك العلاقات الطيبة بين الطرفين طوال عهد بوسعيد حتى وفاته سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م .

وكان من أكبر الدلائل على ما حدث من تقارب ين سلطنة المماليك والمغول تلك المصاهرة التى تمت بين الناصر محمد وأبى سعيد ، فقد تزوج الناصر محمد من الأميرة المغولية طلنباى حفيدة جنكيز خان سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م(٣) .

وبوفاة بوسعيد دب الاضمحلال فى دولة مغول فارس والعراق ، فاضطربت أحوالها وانقسمت فيما بينها وسادها التمزق والانحلال ؛ ورغم

---

(١) ابن كثير : البداية ، جـ١٤ ، ص٦٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص٢٣٩ .

(٣) عن تفاصيل هذا الزواج ، انظر : المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ص٢٠٣-٢٠٥ .

هذه الحالة السيئة التى عاشتها الدولة احترمت حكومة الملك الناصر تعهداتها مع المغول ولم تقم بمحاربتها وانصرفت عن الحرب إلى إصلاح أحوال البلاد. وفى نفس الوقت استمرت علاقة دولة الناصر محمد الطيبة مع مغول القبجاق (القبيلة الذهبية) ، استمراراً للعلاقة الطيبة التقليدية بين هذه الدولة ودولة المماليك . وقد لقيت دولة مغول القبجاق نهايتها على يد تيمورلنك فى أواخر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

جهاد سلاطين المماليك الجراكسة ضد المغول ودور العلماء والفقهاء فيه :

شهدت الدولة المملوكية البرجية (المماليك الجراكسة) هجمات المغول التتار بقيادة زعيمهم تيمورلنك(١) وتصدت لها ، كما تصدى المماليك البحرية للموجة الأولى للمغول التى قادها ضد بلاد العالم الإسلامى هولاكو قائد مليكهم جنكيز خان . وقد داهم المغول دولة المماليك الجراكسة منذ قيامها ، فى عهد أول سلاطينها " برقوق " ، كما داهم خطرهم دولة البحرية عند قيامها فى عهد أول سلاطينها عز الدين أيبك .

وكان تيمور لنك (٧١٦ - ٨٠٧هـ) حاكماً لسمرقند فى إقليم ما وراء النهر ، واستطاع أن يضم إليه أقاليم : خوارزم وشمال فارس وأذربيجان وجورجيا ، كذلك استطاع أن يقض على دولة المغول القبجاق(القبيلة الذهبية)، ووصلت هجماته إلى بلاد العراق والشام . ولقد صحب حملات هولاكو الدمار والخراب والقتل والإبادة والإحراق ؛ الأمر الذى أفزع الناس وأصابهم بالهلع والخوف وجعلهم يهربون من أمام قواته خوف الوقوع فى يديه .

---

(١) عن تيمورلنك انظر : ابن عربشاه : عجائب المقدور فى غرائب تيمور ، مصر ١٢٨٥ ، ص٤٩ ، المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، ص٥٤٢ .

واستولت قوات تيمورلنك على الرها من بلاد الشام(٧٨٩هـ/١٣٨٧م) وقامت بتخريبها(١) ، وهاجمت تلك القوات مدينة ملطية . ولم يلبث حكام ماردين وبغداد وغيرها أن كتبوا إلى السلطان برقوق يستنجدون به لينقذهم من الخطر المغولى الجديد . فأرسل برقوق حملة فى نفس العام قصدت حلب وديار بكر والتقت هنالك بجزء من قوات تيمورلنك وهزمتها ، وكان مرد هذا النصر إلى انشغال تيمورلنك آنذاك بحربه مع مغول القبجاق فى حوض نهر الفولجا وانشغاله بفتوحه فى الهند .

وبعد أن أنهى تيمورلنك حربه فى تلك المناطق توجه لمحاربة مصر المملوكية ؛ فأرسل سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٥م رسالة إلى برقوق تحمل نفس التهديد الذى حملته رسالة هولاكو إلى قطز من قبل(٢) ، فرد عليه برقوق برسالة تحمل التحدى وتعلن الاستعداد للحرب والنزال(٣) .

ولقد ترجم برقوق كلامه بالعمل إذ جهز جيشه فى العام التالى وخرج على رأسه إلى بلاد الشام متوجهاً إلى حلب لملاقاة التتار ، غير أن برقوق اكتشف أن تيمورلنك قد عاد إلى بلاده بسبب بعض المشاكل التى حدثت هناك وتطلبت عودته ، فرجع برقوق بقواته إلى مصر دون قتال ، وتأجل بذلك اللقاء والنزال(٤) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١١ ، ٢٤٧ .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، ص٧٩١ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ١٥٩ .

(٣) نص الرسالة فى (المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، ص٨٠٥ - ٨٠٧) .

(٤) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص١٥٩ .

توفى السلطان برقوق سنة ٨٠١هـ/١٣٩٩م(١) ، وخلفـه مـن بعده ابنـه النـاصر نـاصر الديـن فـرج (٨٠١ - ٨٠٨هـ/١٣٩٩ - ١٤١٢م) ، الـذى واجه الغزو التترى ؛ ففى السنة التالية لتوليه أمر السلطنة قاد تيمورلنك حملـة كبرى من رجال التتار واتجه بها نحو العراق فهزم قواتها وغزى بلادها . ثـم تابع تيمورلنك زحفه على بـلاد الشـام واستولى علـى مرعـش ، وتقدم ، بعد ذلك، إلى حلب ، وأباد الحامية المصرية التى كانت ترابط فيها(٢) ، ثم استولى على المدينة ونهبتها قواته واستباحتها لمدة شهر كامل(٣) .

ووصلـت أخبـار هجمـات تيمورلنـك إلـى مصـر ونجـاح هـذه الهجمـات ووصـف أعمال العنف والدمار التى صاحبتها ، ففـزع النـاس وخـافوا وهـرب الكثير منهم إلـى الصعيـد ولجـأ العامـة إلـى العلمـاء والفقهـاء يطلبـون الدعـاء والشفاعة عند الله حتى يمنع عنهم هذا البلاء ويزيحه عن البلاد .

وبعد أن استولى تيمورلنك على حلب تقدم منهـا إلـى حمـص فاسـتولى عليها ، ثم استولى على بعلبك ، واتجه شاقاً طريقه سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م إلى دمشق . ومما يجـدر ذكـره هنـا ، أن تيمورلنـك ، قبـل مغادرتـه حلـب ، عقد مجلساً جمع فيه علماء وفقهاء حلب الذيـن أسـرهم وسـألهم عـن قتالـه بقولـه : "بالأمس قُتل مناومنكم ، فمن الشهيد قتيلنا أم قتيلكم ؟ " وطلب منهم أن يجيب

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٢ ، ص١٠٤ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٢ ، ص٢٢٣ - ٢٢٥ .

(٣) " وعمل تيمور من رؤوس المسلمين منائر عدة مرتفعة عن الأرض نحو عشرة أذرع فى دور عشرين ذراعاً حُسب ما فيها مـن رؤوس بنـى آدم فكـان زيـادة علـى عشـرين ألف رأس " (ابن تغرى بردى ، ص٢٢٥) .

أفضلهم وأعلمهم علــى سؤاله ، فرشـحوا لـه محب الدين محمد بن الشحنة القاضى الحنفى للرد على سؤاله قـائلين لـه : " هذا شيخنا ومعلم هذه البلاد ومفتيها " فأجابه ابن الشحنة إجابة تدل على علمــه وذكائـه إذ قـال لـه : "سئل رسول الله ﷺ عن هذا فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو الشـهيد" فأعجبت هذه الإجابة تيمورلنك وتابع حديثه معهم " فطلبـوا منـه أن يعفو عن أهل حلب وأن يوقف القتل فيهم ، فأمنهم وحلف لهم فحصل بذلك بعض رفق بالنسبة إلى غيرهم "(١) .

ولماً علم الناس فى مصر بما حل بـأهل البـلاد الشـامية علـى يد قوات تيمورلنك ، أمر الناصر فرج بأن يُنادى فى البلاد للجهـاد ، لـذا خـرج الفقهـاء والعلماء ، وعلى رأسهم شيخ الإسـلام سـراج الديـن عمـر البلقينـى ، وقضـاة القضاة وبعض الأمراء ونودى فــى شـوارع القـاهرة للجهـاد بـالقول " الجهـاد الجهاد فى سبيل الله لعدوكم الأكبر تيمورلنك فإنه أخذ البلاد ووصل إلى حلب وقتل الأطفـال علـى صـدور الأمهـات ، وأخـرب الـدور والجوامـع والمسـاجد وجعلها إسطبلات للدواب وإنه قاصدكم يخرب بلادكم ويقتل رجالكم "(٢) .

ولماً اكتمل تجهيز الجيش خرج السلطان الناصر فرج مـن مصـر علـى رأس هذا الجيش فى ربيع الآخر ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ، واصطحـب معـه الخليفـة العباسى محمد المتوكل والقضاة والعلماء وسـائر الأمـراء . ووصـل السـلطان

---

(١) ابن عربشاه : عجائب المقدور ، ص٩٦ – ٩٨ .

(٢) ابن تغرى بردى :النجوم ، جـ١٢ ، ص٢٢٨ ، ٢٢٩ ، المقريزى : السـلوك ، جـ٣ ، ١٠٣٦ .

وجيشه إلى دمشق وعسكر خارجها ، والتقت هنالك بقوات التتار ولقت هزيمة كبيرة ، فما كان من السلطان فرج إلا أن طلب الصلح وعاد بفلول جيشه المنهزمة إلى مصر .

وكانت هذه الهزيمة التى وقعت بجيش السلطان صدمة قوية لأهل دمشق وللعساكر الشامية المتجمعة بها ، ولكنهم ، رغم ذلك ، تصرفوا بشجاعة فائقة وقاموا بإغلاق أبواب مدينتهم إغلاقاً جيداً ، واعتلوا أسوارها وأصروا على رد العدو . ولماً زحف عليهم تيمورلنك بقواته قاتلوه من داخل حصونهم قتالاً شديداً واستطاعوا رده عنها ، ونجحوا فى أسر عدد من رجاله وقتل عدد كبير منهم(١) .

وإزاء هذه المقاومة الشديدة لجأ تيمورلنك إلى الخديعة فى فتح المدينة بعد أن امتنعت عليه فأعطى لأهلها الأمان إذا هم لم يقاتلوه وتصالحوا معه . لهذا اجتمع أهل دمشق للتشاور فى أمر الصلح ، ووقع اختيارهم على إرسال قاضى القضاة تقى الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلى(٢) ، للتحدث مع تيمورلنك فى هذا الخصوص . وصحب ابن مفلح جماعة من علماء دمشق وفقهائها ، واجتمعوا بتيمورلنك الذى نجح بدهائه أن يقنعهم بحسن نيته وذلك حين قال لهم : " هذه بلدة الأنبياء ، وقد اعتقتها لرسول الله ﷺ صدقة عن أولادى " . فانخدع ابن مفلح والعلماء والفقهاء بهذا القول ، ووافقوا على الصلح . ولماً تم له ذلك وفتحت له المدينة أبوابها ، نقض تيمورلنك أمانه

---

(١) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص٢٣٨ ، المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، ص١٠٤٦ .

(٢) ابن تغرى بردى / ص٢٣٨ ، ٢٣٩ ، المقريزى ، ص١٠٤٦ .

للعلماء والفقهاء وقبض على ابن مفلح وأصحابه وأقام مذبحة فى دمشق قتل فيها نحو عشرة آلاف من أطفال المسلمين ، كذلك قام بسبى نساء المدينة ، وقام بتجميع صناعها وأرباب الحرف فيها وقام بترحيلهم إلى سمرقند ليسخرهم هنالك فى مشروعاته . وفرض تيمورلنك على أهل دمشق الأموال الطائلة جزاء مقاومة أهلها له واستبسالهم فى الدفاع عن مدينتهم و استباح جنوده المدينة مدة تسعة عشر يوماً ، ثم اضرموا النار فيها ، لمدة ثلاثة أيام ظلت مشتعلة حتى أتت عليها كلها(١) .

ومن الجدير بالذكر أن الفقهاء والعلماء الذين وقعوا فى أسر تيمورلنك تعرضوا لأشد ألوان العذاب ، بسبب قيادتهم للناس فى الجهاد ضد المغول . ويؤكد ذلك ما ذكره المقريزى عن هذا التعذيب الذى وقع على العلماء والفقهاء ومن بينهم قاضى القضاة صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوى الشافعى ، الذى مات من أثر تعذيبه فى الأسر ، أثناء حديثه عن وفيات عام ٨٠٣هـ(٢) .

ولقد ترك تيمورلنك الشام ، بعد أن أقام فيها غازياً ومخرباً ، مدة ثمانين يوماً ، عائداً إلى بلاده لإقرار الأمور فيها . وفى طريق عودته تعرض لجيش " بايزيد العثمانى " فهزمه بالقرب من أنقرة ٨٠٤هـ/١٤٠١م ، ثم قفل عائداً إلى سمرقند حيث وافاه الأجل هناك سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م(٣) .

وبوفاة تيمورلنك تنفست بلاد المسلمين الصعداء من خطر التتار ، وذلك لأن التقسيم والتمزق أصاب دولته من بعده ، الأمر الذى أدى إلى ضعف قوة

(١) المقريزى :السلوك ، جـ٣ ، ص١٠٥١ .

(٢) السلوك ، جـ٣ ، ص١٠٧٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١٣ ، ص١٦٠ - ١٦٣ .

التتار بسبب النزاع الذى وقع بين أبنائه وأحفاده والصراع بينهم على تولى السلطة ، فلم يقوموا بعد ذلك بأى هجوم على بلاد الإسلام ، وتفرغ المغول لمواجهة مشاكلهم الداخلية والاستقرار فى البلاد التى خلصت لهم والتعايش مع أهلها وسكانها .

وفى ختام بحثنا هذا نستطيع أن نجمل الدور الذى قام به الفقهاء والعلماء فى الجهاد الإسلامى ضد الخطر المغولى فى النقاط التالية :

أولاً : أنهم حَملوا على أكتافهم عبء مسئولية تعبئة المسلمين للجهاد ، وذلك بدعوة الناس إلى الجهاد فى سبيل الله وترغيبهم فيه وفى الإنفاق لتجهيز الجيوش .

ثانياً : قاموا برفع الروح المعنوية للجنود والأهالى المرابطين وشجعوهم على الصمود والتصدى دفاعاً عن أعراضهم وأوطانهم .

ثالثاً : تقديمهم الفتوى الشرعية الصحيحة للسلاطين والحكام فى بعض الأمور الهامة التى تتعلق بالجهاد والإنفاق على القوات .

رابعاً : حملهم السلاح والمشاركة الفعلية فى القتال والتزامهم بالتواجد فى الصفوف الأمامية واستشهاد بعضهم بعد إبداء الشجاعة الفائقة فى القتال.

خامساً : القيام بالوعظ والإرشاد والتدريب على السلاح فى المدارس لعامة الشعب بهدف تكوين فرق شعبية تحمى الجبهة الداخلية من خطر أى هجوم مباغت على مدن المسلمين .

سادساً : مواجهة السلاطين بقوة وحزم وحثهم على الخروج لملاقاة المغول حين وجدوا تقاعساً من بعض هؤلاء السلاطين وخوفاً على عروشهم ،

فكان لمواجهتهم التأثير الفعال فى إسراع هؤلاء السلاطين فى قيادة جيوشهم للتصدى لخطر المغول .

وهكذا شاركت هذه الصفوة المختارة فى الجهاد ضد الخطر المغولى على البلاد الإسلامية ولم يتوقف عطاؤها فى كافة المجالات خلال فترة الصراع الطويلة بين المسلمين والمغول ، وبين الحق والباطل .

المصادر والمراجع

(أ) المصادر :

- **ابن الأثير** : الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٩ .
- **ابن أيبك الدوادار** : كنز الدرر وجامع الغرر ، القاهرة ١٩٧١ .
- **بيبرس الدوادار** : زبدة الفكرة فى تاريخ لهجرة ، جـ٩ ، مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨ .
- **ابن تغرى بردى** (أبو المحاسن) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٧٢ .
- **ابن حبيب** : تذكرة النبيه فى أيام المنصورة وبنيه ، القاهرة ١٩٧٦ . ١٩٨٦ .
- **ابن خلكان** : وفيات الأعيان ، بيروت ١٩٧٢ - ١٩٧٧ .
- **الذهبى** : دول الإسلام ، القاهرة (د . ت) .
- **السبكى** : طبقات الشافعية الكبرى ، القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٧١ .
- **السيوطى** : تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٩٦٩ .
- **أبو شامة** : الذيل على الروضتين ، بيروت ١٩٧٤ .
- **ابن عبد الظاهر** : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، القاهرة ١٩٦١ .
- **ابن العبرى** (جريجوريوس الملطى) : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٥٨.
- **ابن عربشاه** : عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، مصر ١٢٨٥هـ .
- **ابن العماد الحنبلى** : شذرات الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، القاهرة ١٣٥١هـ .
- **العينى** : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، القاهرة ١٩٨٧ - ١٩٩٢.

- **أبو الفدا** : المختصر فى أخبار البشر ، بيروت (د . ت) .
- **القلقشندى** : صبح الأعشى ، القاهرة ١٩١٠ - ١٩٢٠ .
- **ابن كثير** : البداية والنهاية ، بيروت ١٩٨٧ .
- **المقريزى** : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ ، ١٩٧٠ - ١٩٧٢ .
- **الهمذانى** : جامع التواريخ ، ترجمة عبد المعطى الصياد ، القاهرة ١٩٦٠ .
- **ابن واصل** : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٧ ، ١٩٧٢ - ١٩٧٧ .
- **يا قوت الحموى** : معجم البلدان ، بيروت ١٩٨٦ .
- **اليونينى** : ذيل مرآة الزمان ، الهند ١٩٦١ .

(ب) المراجع :

- **إبراهيم طرخان** : عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠ .
- **أحمد مختار العبادى** : قيام دولة المماليك فى مصر والشام، بيروت ١٩٦٩.
- **حافظ حمدى** : الدولة الخوارزمية والمغول ، القاهرة (د . ت) .
- **رنسيمان** : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٧ .
- **سعيد عبد الفتاح عاشور** : العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ .
- **السيد الباز العرينى** : المغول ، بيروت ١٩٨١ .
- **فؤاد عبد المعطى الصياد** : المغول فى التاريخ ، بيروت ١٩٨٠ .
- **محمد يوسف موسى** : ابن تيمية ، سلسلة أعلام العرب (العدد الخامس) .

(جـ) المراجع الأجنبية :

- Ahmed Derrag: L'Egypte sous le régne de Barsbay.

- Cambridge Medieval History, (Mongols).

- Howorth, Sir Henry:

History of the Mongols, London 1876-1888.

- King, G:

The Knights Hospitallers in the Holy Land, London 1931.

- Lane Poole, Stanely:

History of Egypt in the Middle Ages, London 1912.

- Wiet, G:

L'Egypte Arabe, t. IV, Paris 1937.

إضافات حول كتاب البستان
الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان
ونسبته للعماد الأصفهانى
(٥١٩ - ٥٩٧هـ/١١٢٣ - ١٢٠٠م)

د. نعمان محمود جبران   محمد على طعانى

لم يصل إلينا من هذا الكتاب فيما علم إلا نسختين ، إحداهما محفوظة بمكتبة طوب قابى سراى أحمد الثالث فى إستنبول تحت رقم ٢٩٥٩ وتقع فى ١٤٠ ورقة ، يتراوح عدد الأسطر فى الصفحة ما بين ١٣ - ١٤ سطراً ، مقاس ١٧,٥ × ٢٥سم وفى هذه النسخة ذيل على الكتاب للأمير علم الدين سنجر المسرورى الصالحى(١) ، وصل به لنهاية أخبار سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م، يقع فى ٧٤ ورقة جمعت فى مجلد واحد مكتوبة بخط نسخ جيد ، انتهى من نسخه على بن أبى القاسم بن خليل(٢) فى ٢٥ رمضان سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م ، إذ جاء فى آخر الكتاب " تم التاريخ والذيل على يد العبد الفقير إلى الله على ابن أبى القاسم بن خليل الناسخ ، خامس عشرين المعظم سنة أربع وأربعين وسبع مائة للهجرة النبوية "(٣) .

---

(١) الأمير علم الدين سنجر الصالحى من أعيان الأمراء المصريين(ت ٦٨٦هـ/١٢٨٧م)
انظر : الوافى بالوفيات : جـ١٥ ، ص٤٧٣ ؛ تاريخ ابن الفرات : جـ٨ ، ص٥٨ .

(٢) لم أقف له على ترجمة .

(٣) نسخة طوب قابى سارى : ورقة ٢١٤ ظ .

وعن هذه النسخة أخرج الأستاذ كلود كاهن قسماً من الكتاب في نشرة المعهد الفرنسى بدمشق سنة ١٩٣٨(١) يبدأ بحوادث سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م وحتى نهاية الكتاب إلى حوادث سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م .

أما النسخة الثانية فهى المحفوظة فى مكتبة جامعة إكسفورد برقم Hun ١٧٢ . وتقع فى ٩٦ ورقة ، عدد أسطر الصفحة ١٥ سطر ، وفى هذه النسخة أيضاً ذيل على الكتاب وصل به صاحبه(٢) إلى سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م ، ويقع فى ١٢٨ ورقة جمعت هى والكتاب فى مجلد واحد مكتوبة بخط نسخ جيد . ومن مقدمة الكتاب يظهر أن المؤلف انتهى من صياغة مؤلفه سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م حيث جاء بها " ثم أشرع فى الهجرة سنة بعد سنة ... إلى أنم وصلت سيرة الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاون الألفى الصالحى إلى آخر سنة اثنتين وسبع مئة "(٣) هذا ولم يرد في أى من أوراق الكتاب ما يرمز إلى تاريخ الانتهاء من نسخة ولا ما يشير إلى اسم الناسخ إذا كان هناك من نسخة غير المؤلف .

---

(1) B. E. D. Damas, 1938.

(٢) أخذت هذه النسخة اسم " الروض الناظر في أخبار الأوائل والأواخر " ونسبت مع الذيل إلى العماد الأصفهانى وذلك حسب رأينا لأن صاحب كتاب " الروض الناظر " هذا لما أراد أن يؤلف تاريخه وقع على كتاب البستان فضمنه لتاريخه وأكمل التاريخ من حيث انتهى البستان إلى سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م وسماه " الروض الناظر فى تاريخ الأوائل والأواخر " فيكون بهذه الطريقة تجنب عناء الجمع والصياغة لتاريخ الفترة التى شملها البستان .

(٣) نسخة إكسفورد : ورقة ٢ و ٦ ظ .

والكتاب على العموم من التواريخ المختصرة العامة والعالمية ، صنّف وفق أسلوب الحوليات التى تعنى بتسجيل الحوادث والوفيات معاً وهو الأسلوب الذى ظهر ابتداءً من القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى(١) ، ابتدأه مؤلفه من أول الخلق فى ذكر الأنبياء من آدم إلى محمد – عليهم السلام – وذكر مولده ، ومبعثه ، وشىء من سيرته ، ووفاته ، ثم ساق الأحداث على السنين الهجرية من سنة ١هـ/٦٢٢م وحتى سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م .

وقد بين المصنف منهجه وخطة الكتاب – والتى التزم بها على العموم فى جميع فقرات الكتاب – فى مقدمته إذن يقول : " فكان أول ما ابتدأت فيه ذكر الأنبياء – عليهم السلام – من آدم إلى مولد النبى – ﷺ – وذكر مبعثه والخلفاء من بعده ، ثم شرعت فى هجرته سنة بعد سنة إلى عامنا هذا ، وضمنت كل سنةٍ ما جرى فيها من الحوادث والأمور ، وذكر الخلفاء ، والسلاطين والوزراء ، والقضاة ، والفقهاء ، وأهل الأدب ، والأطباء، والمنجمين ، وأهل الحكم ، وأصحاب البدع ، وجميع ذوى العلوم ، وغلاء ، ورخص ، ووباء ، واختلاف ، وحوادث سماوية وأرضية ، وجميع ما جرى فى جميع الأقاليم السبع من أمور خُلفائها ، وولاتها وغير ذلك إلى أن وصلت إلى سيرة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قدس الله روحه ونور ضريحه " .

ومن ذلك يتبين أن القاضى عماد الدين أراد أن يكون كتابه تاريخاً عاماً عالمياً لا يقتصره على عصر أو مكان معينين ، فالمساحة الجغرافية التى

(١) حول ظهور هذا الأسلوب فى الكتابة التاريخية . انظر : التاريخ العربى والمؤرخين : جـ٣ ، ص٤١١ وما يليها ، علم التاريخ عند المسلمين : ص١٦٨ .

يغطيها البستان امتدت من بلاد المغرب الأقصى حتى الهند ، لتشمل بلاد الأندلس ، وبلاد المغرب ، وإفريقية ، ومصر ، وبلاد النوبة ، وبلاد الشام ، والجزيرة العربية ، والعراق ، وآسية الصغرى ، وأرمينية ، وبلاد الكرج ، وبلاد الروم ، والهند ، وجزر البحر المتوسط : صقلية ، وإقريطش (كريت) ، وقبرص .

وأراد أن يكون شاملاً لجميع جوانب ونواحى الحياة المختلفة : السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والعمرانية ، والعلمية ، فأتى فى تاريخه على ذكر بعض أخبار الدول الإسلامية المتعاقبة ابتداءً من مبعث الرسول – عليه السلام – ومروراً بالخلافة الراشدية ، ثم الأموية ، فالعباسية ، والأموية فى الأندلس ، والفاطمية ، وعلى أخبار الدول والإمارات والممالك والسلطنات التى نشأت فى ظل الخلافة العباسية كالدولة الصفارية فى سجستان ، والسامانية فى بلاد بخارى وما وراء النهر ، والدولة البويهية فى العراق ، والسلجوقية فى خراسان وإيران والعراق والشام وبلاد الروم ، والدولة الغورية ، وآل سبكتكين فى غزنة ، والدولة الخوارزمية فى بلاد ما وراء النهر . والإمارة الحمدانية فى الموصل وحلب ، والأرتقية فى ماردين وديار بكر ، والدولة الطولونية ، والأخشيدية فى مصر والشام ، وعلى أخبار الدولة البورية والزنكية والأيوبية فى بلاد الشام ومصر . وعلى بعض أخبار دولة الأغالبة ودولة بنى زيرى بن مناد ، ودولة المرابطين والموحدين فى إفريقية والمغرب والأندلس ، كما أتى على بعض أخبار الإمبراطورية الرومانية والبيزنطية ، وأخبار الإمارات الصليبية فى بلاد الشام .

وقد تناول أخبار قيام هذه الدول والممالك والإمارات وزوالها ، وأخبار خلفائها ، وأمرائها ، وملوكها ، وسلاطينها ، وأباطرتها ، وولاتها ، ووزرائها ، والمؤامرات والدسائس التى كانت تحاك ضدهم ، وعمليات الاغتيال التى طالت بعضهم ، وأخبار الصراع بين المسلمين والفرنجة ، وأخبار الصراع بين الدول والممالك والإمارات الإسلامية ، والعلاقات بين المسلمين والنصارى واليهود ، وعلاقات المسلمين ببعضهم من سنة وشيعة وأتراك وعرب ، وأتى على أخبار ظهور الدعوة الدرزية ، والإسماعيلية الباطنية ، وحركة الزنج ، والقرامطة ، وتتبع أخبار الأئمة الاثنى عشرية ، ووفياتهم ، وحركات الثائرين على الدولة فى المشرق والمغرب الإسلامى ، وأخبار المتنبئين والكذابين .

كما أتى على ذكر أخبار الحوادث السماوية والأرضية من زلازل ، وسيول وفيضانات ، ورياح ، وكسوف الشمس ، وخسوف القمر ، وظهور الكواكب ، واقترانها ، وتساقط الشهب ، وقحط ، ووباء ، ورخص ، وغلاء ، وحرائق ، وأكل الفأر والجراد الزروع ، وأخبار حركة العمران من تمصير المدن ، وبنائها ، وبناء الأسوار ، والقلاع ، والمساجد ، والمدارس ، والبيمارستانات ، والقصور ، وحفر الأنهر ، وعمل المراصد الفلكية ومقاييس زيادة الماء أو نقصانها .

هذا فضلاً عن اهتمامه بمواليد العلماء ووفياتهم وذكر أشهر مؤلفاتهم ، وبعض خلافاتهم الفكرية والفقهية ، واهتمامه بالاكتشافات الأثرية ووصف موجوداتها ، وغير ذلك الكم الهائل من الأخبار والمعلومات التى حشدها المؤلف بإيجاز فى هذا المختصر . الأمر الذى ينم عن إحاطة كبيرة بأحداث التاريخ الإسلامى ، بل العالمى ومجريات الأمور فيه ، وعن سعة اطلاع المؤلف وثقافته العالية .

وجهد المؤلف فى عرض المادة التاريخية فى البستان أن تكـون أخبـاره متتابعة زمنياً ، وعلى نهج طريقة التاريخ الحولى تناول التـاريخ للعـالم بحيـث يرصد أحداث كل سنة من هنا وهناك على امتداد الرقعة الجغرافية الواسـعة ، بتنقل من أخبار دولة إلى أخرى ، ومن ولاية إلى أخبار إمارة أخـرى ، ومـن أخبار الصراع السياسى إلى أخبار النكبات الطبيعيـة إلـى الأخبـار الاجتماعيـة من زواج ، وهدايا ، ووصف أسمطة الخلفاء والأمراء ، وما كانت تحويه مـن طعام وشراب ، ومن الأخبار الفلكية إلى أخبار العلماء ومواليدهـم ووفيـاتهم . وبهذا يحشد فى السنة الواحدة أحداثاً جرت فى عدة أماكن من العالم فينتقل من الأندلس إلى العراق ، ومـن المغـرب إلـى بـلاد فـارس ومـن بـلاد الشـام إلـى مصر، وبلاد النوبة . منتخباً الروايات الصحيحة حسب رأيه والمتعلقة بأحداث الفترات السابقة لعصره ، مـن المصـادر التاريخيـة المبكـرة ، ودون التعـرض لاختلاف الروايات أو ترجيـح روايـة علـى أخـرى إلا فـى مواضـع قليلـة مـن الكتاب .

والكتاب يعتبر بحق كتاباً جامعاً لأبرز أحداث التاريخ عـبر سـتة قـرون من الزمان وما فيها من مآثر حضارية . وربما تظهر أهمية الكتاب فـوق أنـه من المصادر الأساسية لفترة الحروب الفرنجية فى آسيا الصغـرى ، وأرمينيـة وبلاد التى عاصرها المؤلف ، كونه أتى على أخبار قرن اندثر أدبه التـاريخى تقريباً . فمن أجل دراسة التاريخ الشامى فى الفترة الزمنية مـن الفتـح الـتركى السلجوقى وحتى بدايـة الحكـم الأيوبـى لا نجـد مـن المصـادر التاريخيـة التـى وصلتنا وكمؤلفات لمعاصرين لهذه الفترة غير تاريخ دمشق (لابن القلانسى) ، وبالدرجة الثانية تاريخ حلب للعظيمى ، ورغم أن القاضـى عمـاد الديـن يعتـبر

من فترة لاحقة لهم إلا أن كتابه البستان يبقى سابقاً للمؤلفات التاريخية المتأخرة(١) والتى تعد – حتى الآن – المصادر الأساسية لدراسة التاريخ الشامى فى هذا القرن . ومن جهة ثانية تبدو مصادر البستان لهذه الفترة أكثر أصالة من مصادر هذه المؤلفات . بل يمكن أن نعود بأهميته من هذا الباب الأخير إلى فترة أبكر من ذلك ، إذ بدا لنا من خلال مقارنة نصوص البستان بالمصادر التاريخية أنه استقى مادته وخاصة عن فترة الحكم الطولونى والأخشيدى فى مصر وبلاد الشام ، عن ابن زولاق ، أبو محمد الحسن بن إبراهيم لليثى المصرى (ت٣٨٧هـ/٩٩٧م) وهو من معاصرى هذه الفترة ومؤلفاته بحكم المفقودة لم يصلنا منها شىء .

أما عن المصادر التى اعتمد عليها المؤلف ، فيبدو وحسب مادة الكتاب إنها كثيرة ومتنوعة ، ربما شملت فضلاً عن الكتب التاريخية والدينية التى أشار إلى بعضها المؤلف مباشر وبطريق غير مباشر فى متن كتابة ، الكتب الأدبية وكتب التراجم والطبقات ، ولأن المؤلف قلما أشار إلى مصادره وذلك حسب رأينا لأن البستان تاريخاً مختصراً لا تسمح معلوماته بذكر المصادر المستقاة منها ، ومن جهة ثانية لأن القاضى عماد الدين لم يؤلف الكتاب ليتداوله الناس ، وإنما صنفه لشخص وصفه ممن يعز عليه(٢) ، صار من الصعب تحديد مصادر الكتاب غير أن الإشارات المباشرة وغير المباشرة تفيد

---

(١) مثل الكامل فى التاريخ (لابن الأثير) ؛ نهاية الأرب (للنويرى) ؛ تاريخ الإسلام (للذهبى) ؛ المختصر فى أخبار البشر (لأبى الفداء) ؛ البداية والنهاية (لابن كثير) ؛ تاريخ ، تاريخ ابن الوردى ؛ تاريخ الزمان (لابن العبرى) ؛ تاريخ مختصر الدول (لابن العبرى) ؛ مرأة الزمان (لسبط ابن الجوزى) وغيرهم .

(٢) مقدمة المؤلف مخطوطة طوب قابى سراى : ورقة ٢ و .

أن العماد اعتمد على عدد من المصادر الدينية والتاريخية ، يمكن تقسيمها حسب طبيعة الإشارات إليها إلى قسمين :

الأول : المصادر التى أشار إليها مباشرة : وهى حسب ورودها فى الكتاب :

- **التوراة** : وقد أشار إليها بقوله : " قرأت فى التوراة "(١) وبقوله : " زعم أهل التوراة "(٢) .
- **عن وهب بن منبه اليمانى (ت ١١٥هـ/٧٢٩م)** : ولا أدرى أى كتب وهب اعتمد فربما كتابه " المبتدأ " وخاصة أنه أخذ عنه صفة حام بن نوح(٣) .
- **القرآن الكريم** : أشار إليه فى أكثر من موضع ، واستشهد بعدد من آياته وخاصة فى حديثه عن قصص الأنبياء(٤) .
- **تاريخ الأمم الملوك** : لمحمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) وقد صرح باستخدامه فى موضعين بقوله : " قال الطبرى " . الأول عند حديثه عن بعث الله بشر بن أيوب – عليه السلام(٥) – والثانى عند حديثه عن القائم بأمر بنى إسرائيل بعد يوشع(٦) .

---

(١) نسخة طوب قابى سراى : ورقة ٣ و ١٦٦ و .

(٢) نسخة طوب قابى سراى : ورقة ٥ ظ .

(٣) نسخة طوب قابى سراى : ورقة ٥ ظ .

(٤) نسخة طوب قابى سراى : ورقة ٦ظ ، ٧ظ ، ٩ظ ، ١٠و ، ١١ظ ، ١٣و ، ١٤و .

(٥) نسخة طوب قابى سراى : ورقة ٩و .

(٦) نسخة طوب قابى سراى : ورقة ١٠و .

- **قول قتادة بن دعامة السدُوسى الراوى (ت ١١٧هـ/٧٣٥م)** أشار إليه بعد حديثه عن رسل أصحاب القرية ، بقوله : " هذا قول قتادة " ولعل المؤلف انتقى رواية قتادة من المصادر التاريخية وبالتحديد من تاريخ الطبرى لأنها قريبة الشبه من رواية قتادة التى يوردها البطرى عن رسل أصحاب القرية(١) .

- **الروايات الشفهية** : وقد أشار إلى ذلك فى موضع واحد بقوله : " حكى عن ابن العميد عمن سمعه "(٢) .

- **الكتب الديوانية** : ولا نجد فى البستان من هذه الكتب - ربما لأنه تاريخ مختصر - غير كتاب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب سنة ٢٢هـ/٦٤٣م . وكتاب التعزية الذى بعثه القاضى الفاضل سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م من دمشق إلى الملك الطاهر غازى صاحب حلب يخبره فيه عن وفاة والده صلاح الدين(٣) .

ثانياً : المصارد التى أشار إليها المؤلف بطرق غير مباشر :

وذلك بقوله " آخر تاريخ ... " أو " آخر كتاب ... " ، وهذه الطريقة ربما استخدمها المؤلف لأن الكتاب تاريخ مختصر لا تسمح معلوماته الكثيرة والمختلفة بذكر المصادر المستقاة منها ، ومن جهة ثانية لأن المؤلف لم يؤلف البستان ليتداوله الناس وإنما صنفه لشخص ممن يعز عليه ، وقد يكون هذا الشخص يهمه بالدرجة الأولى ذكر المعلومات ولا يهمه من أين هى

(١) نسخة طوب قابى سراى : ورقة ١٤ ظ .
(٢) نسخة طوب قابى سراى :ورقة ١٣٣.٠ .
(٣) نسخة طوب قابى سراى : ورقة ٢٠ ، ١٣٣ .

مصادرها ، ومهما يكن السبب فالقاضى عماد الدين أهمل ذكر مصادره على العموم بالطريقة التقليدية إلا أنه رأى ربما من باب الأمانة العلمية أن ينوه بأهم المصادر التى استخدمها ، فصار كلما أتى على نهاية تاريخ من التواريخ التى استخدمها يذكر فى السنة التى انتهى بها " وفيها آخر تاريخ ... " وبمقارنة نصوص البستان مع هذه التواريخ وجد بينهما تقارب إلى حد ليس بقليل ، وهذه التورايخ هى .

- **تاريخ الواقدى** : محمد بن عمر الواقدى (ت ٢٠٧هـ/٨٢٣م) ، وقد أشار إلى نهاية تاريخه خطأ فى سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م فإذا كان الواقدى توفى سنة ٢٠٧هـ/٨٢٣م فليس من المعقول أن يصل بتاريخه إلى سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م ، إلا إذا كان أحدهم ذيل على التاريخ وأن القاضى عماد الدين استخدم التاريخ والذيل دون أن ينتبه إلى ذلك . أو ربما حدث تصحيف لسنة ٢٠٥هـ التى من الممكن أن يكون تاريخ الواقدى انتهى بها، فسجلت سنة ٢٥٠ بدلاً منها ولم ينتبه إلى ذلك الناسخ .
- **كتاب المعارف** : لابن قتيبة ، أبى محمد بن عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) وأشار إلى نهايته فى سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م . ومن المعروف أن كتاب المعارف ليس تاريخ على السنين ، وإنما هو تاريخ حسب الموضوعات ، غير أن ابن قتيبة انتهى وهو يؤرخ للخلفاء إلى خلافة المعتمد سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩م ، فربما هذا ما عناه المؤلف .
- **تاريخ سعيد ابن البطريق:** التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق للبطريرك أفنيشوس المعروف بسعيد بن البطريق (ت٣٢٨هـ/٩٣٩م) وقد أشار إلى نهايته فى سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م .

- **تاريخ ابن مسكويه** : تجارب الأمم وتعاقب الهمم لابن مسكويه أبى على أحمد بن محمد بن يعقوب (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م) وسماه القاضى عماد الدين " تجربة الأمم " وأشار إلى انتهائه سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م .

- **تاريخ الصابى** : لثابت بن سنان الصابى (ت ٣٦٥هـ/٩٧٥م) وأشار إلى انتهائه سنة ٣٧٠هـ/٩٨٠م .

- **تاريخ الأنطاكى** : المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ، ليحيى بن سعيد الأنطاكى ، (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٧م) وأشار إلى انتهائه سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٧م .

تلك هى المصادر التى أشار إليها القاضى عماد الدين بقوله : " آخر تاريخ ... " غير أن ثمة مصادر أخرى بدا لنا من خلال مقارنة نصوص البستان بها أنه استخدمها لتقارب نصوصها من نصوص البستان ولم يشر إليها القاضى عماد الدين وهى :

- **تاريخ حلب** : للعظيمى ، محمد بن على الحلبى (ت ٥٥٦هـ/١١٦١م) .
- **تاريخ دمشق** : لابن القلانسى ، الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد الدين بن محمد التميمى (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م) .

- **مؤلفات ابن زولاق** أبو محمد الحسن بن إبراهيم المصرى (ت٣٨٧هـ/٩٩٧م) فإذا تسنى لنا فيما يتعلق بتاريخ دمشق وتاريخ حلب أن نقارن نصوص البستان بنصوصهما مباشر لأنهما بين يدينا ، فالأمر يختلف فيما يتعلق بمؤلفات ابن زولاق ؛ لأن أى من مؤلفاته لم تصلنا غير أن نصان أوردهما العماد فى البستان ، الأول يحكى قصة خصومه جرت بين ابن

الحداد وبين القاضى الخصيبى بمصر سنة ٣٤٣هـ/٩٥٤م(١) ، والثانى يحكى قصة رجل من أهل الجزيرة الخضراء من أعمال الأندلس اصطاد جارية من البحر فى سنة ٤١٤هـ/٩٧٤م(٢) ، وقد وجدنا القصة الأولى فى كتاب المقفى للمقريزى(٣) عن " كتاب الذيل على كتاب الأمراء بمصر للكندى " كما يسميه المقريزى لابن زولاق ، والقصة قريبة الشبه معنى ونصاً بما ورد بالبستان ، أما قصة الجارية فأوردها ابن أيبك الدوادارى فى الدر المطلوب(٤) عن " تاريخ ابن زولاق " كما سماه . فإن لم يكن القاضى عماد الدين أخذ هاتين القصتين عن مصدر آخر أخذ هو بدوره عن ابن زولاق سيكون حتماً اعتمد على مؤلفات ابن زولاق أو على الأقل على هذين المؤلفين لابن زولاق .

هذا مجمل ما يمكن قوله عن مصادر القاضى عماد الدين فى حدود ما توفر من معلومات أو إشارات دلت بصوره أو بأخرى على مصادره ، غير أن هذه المصادر مجتمعه لا تغطى فى الحقيقة مادة البستان كلها ، فعدد ليس بقليل من أخباره لم نجده فى هذه المصادر وخاصة الأخبار المتعلقة بأحداث القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادى عشر الميلاديين ، مما يؤكد ما سقته فى بداية حديثى عن مصادر الكتاب أنها كانت كثيرة ومتنوعة ، فربما شملت كما ذكرت كتب التراجم والطبقات وكتب أدبية وغير ما ذكرته من كتب تاريخية .

---

(١) نسخة طوب قابى سراى : ورقة ٧٢و .

(٢) نسخة طوب قابى سراى : ورقة ٨٤ظ ، ٨٥و .

(٣) المقفى : جـ٥ ، ص٢٥٦ .

(٤) الدر المطلوب : ص٣١٧ .

وفى ضوء الحديث عن المصادر لابد من الإشارة إلى أن كتاب البستان قد استفاد منه عدد من المؤرخين المتأخرين واعتمدوه كمصدر من مصادرهم التاريخية وأشاروا إلى ذلك فى كتبهم. وهم : ابن خلكان(١) ، وابن ميسر(٢) وابن ظهيرة(٣) والنويرى(٤) والقرمانى(٥) وهؤلاء جميعاً لم يذكروا اسم المؤلف ، أما الجزرى فهو الوحيد الذى نقل عنه وذكر أن مؤلفه هو الشيخ العلامة عماد الدين الأصفهانى(٦) .

أما نسبة الكتاب فقد جاء على صفحة عنوان كتاب البستان أنه من تأليف القاضى الأجلّ العالم العامل عماد الدين أبو حَامِد مُحَمَّد بن محمد بن حَامِد الأصْفَهَانِى(٧) . ولاعتبارات منها ما يتعلق بلقب المصنف ، ومنها ما يتعلق بالكتاب ذاته ، رأى بعض المؤرخين المحدثين أن نسبة الكتاب للعماد الكاتب المعروف غير دقيقة ، وأنه من المحتمل أن يكون مصنف كتاب البستان يحمل نفس اسم العِمَاد ،ولقبه أو أنّ مؤرخاً مجهولاً انتحل اسم العِماد .

وأول هؤلاء المؤرخين ممن قال بهذا الرأى المستشرق الفرنسى كلود كاهين واستند فى رأيه هذا على أربع ملاحظات(٨) :

---

(١) وفيات الأعيان : جـ١ ، ص٩٤ ، ج٦ ، ص٢٦٨ .

(٢) المنتقى من أخبر مصر : ص١٠٥ .

(٣) الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة : ص١٤ .

(٤) نهاية الأرب : جـ٢٨ ، ص٢٩٢ .

(٥) أخبار الدول وآثار الأول : جـ٢ ، ص٤٣٤ .

(٦) جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك : مخطوطة باريس : ورقة ٤٤و .

(٧) مخطوطة طوب قابى سراى ورقة ٢و ؛ مخطوطة إكسفورد : ورقة ١ظ .

(٨) انظر : مقدمة البستان : ص١٣ - ١٤ ؛
Quelques Charniques anlennes relatives aux clerniers Fatimilies, pp. 8 - 9.

الأولى : أن أسلوب البستان الخشن – على حد تعبيره – يتعارض تماماً مع الأسلوب المزخرف الذى امتاز به العماد الكاتب مساعد صَلاح الدِّين.

الثانية : أن أياً ممن كتب سيرة العماد الكاتب لا يشير من بين أعماله التاريخية إلى البستان أو إلى أى كتاب آخر يمكن أن يحوى نفس المضمون .

الثالثة : أن معلومات البستان فيما يتعلق بفترة حكم صَلاح الدِّين أوسع بكثير من معلومات البرق الشامى لنفس الفترة .

الرابعة : وهى المتعلقة بلقب القاضى الذى يسبق اسم العماد المدوّن على صفحة العنوان فى المخطوط ، يقول كاهين بشأنها : يبدو لنا فى النهاية أن عماد الدِّين الشهير هذا لم يكن قاضياً أصلاً .

تلك هى الملاحظات التى أبداها كلود كاهين حول الكتاب ليخلص فى النهاية إلى أن مُصنف كتاب البستان هو مؤرخ آخر غير عماد الدين الكاتب المعروف ، وإن المسألة لا تعدو كونها تشابهاً فى الأسماء أو خلطاً باسم المؤلف الشهير الذى لا علاقة له بكتاب البستان .

واستناداً على ما خلص إليه كلود كاهين أفرد بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى لمؤلف البستان فقرة خاصة به على اعتباره وغير العماد الكاتب المشهور(١) .

وقد أخذ بهذا الرأى أيضاً البروفيسور أولرخ هارمن ، وأشار فى دراسته(٢) عن مصادر الفترة المملوكية الأولى على أن كتاب البستان ليس للكاتب عماد الدين الأصفهانى صاحب البرق الشامى ، والفتح القسى ، وأن

(١) انظر : تاريخ الأدب العربى : جـ٦ ، ص١٣٢ .

(2) Quellenstudien zur fruhen Mamluken zeit, Freiburg 1969 p. 23 - 24.

البستان هو للشيخ عماد الأصفهاني الذى لا نعرف عنه سوى أنه عاش فى حلب فى نهاية القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى .

وعلى هذا النحو مجاراة لما رآه كاهين يذهب كل من الدكتور شاكر مصطفى فى كتابه التاريخ العربى والمؤرخون[١] والدكتور أيمن فؤاد سيد فى مقدمة تحقيق كتاب المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر[٢] إلى ما ذهب إليه كلود كاهين من عدم صحة نسبة الكتاب لعماد الدين الكاتب . إذ يقول الدكتور أيمن فؤاد السيد فى معرض حديثه عن موارد ابن ميسر . " والمصدر الثالث هو كتاب البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان نقل عنه ابن ميسر فى موضع واحد ، وجاء على صفحة عنوان الكتاب أنه من تصنيف القاضى الأجل العالم العامل عماد الدين أبى حَامِد مُحمد بن مُحمد بن حَامِد الأصفهانى وهو ليس العماد الأصفهانى الكاتب المعروف رغم تشابههما فى الاسم ، فلم ينسب أحد للعماد الكاتب كتاباً بهذا العنوان ، كما أن أسلوب هذا الكتاب الذى يميل إلى الإيجاز ، وعدم العناية باختيار الألفاظ يختلف تماماً عن أسلوب العماد المعروف ... " .

أما الدكتور شاكر مصطفى فقد نحى منحى بروكلمان إذ أفراد لمؤلف البستان فقرة خاصة فى طيات كتابه[٣] معتبراً إياه غير العماد الكاتب المعروف . وبعد أن نوه إلى صعوبة معرفة أى شىء عن الأصفهانى عماد الدين القاضى المتوفى بعد سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م وإلى تطابق اسمه مع اسم

(١) جـ٢ ، ص٢٩١ .
(٢) ص ع .
(٣) التاريخ العربى والمؤرخون : جـ٢ ،ص٢٩١ .

الكاتب المعروف ، وفى نفس العصر ، وبعد أن عدد مخطوطات الكتاب استطرد قائلاً : " وكان من الممكن بسهولة أن يضاف هذا المؤلف إلى تراث العماد الواسع لولا خمسة أمور " :

الأول : أنه ما من مصدر من المصادر التاريخية ذكر للعماد كتاباً بهذا العنوان .

الثانى : إن أسلوبه الكتابى مخالف لأسلوب العماد المسجع دوماً حتى عنوان الكتاب لا يتبع السجع مع أن عناوين العماد مسجعة حتماً ومعظم الكتب فى عهده على النهج نفسه من السجع .

الثالث : إن فيه رغم اختصاره الشديد بعض الأمور المتعلقة بأخبار صلاح الدين ، والتى لا نجدها لدى العماد فى كتبه المطولة ، وبعضها يخالف رواية العماد نفسه .

الرابع : إن العماد يُعرف دوماً بالكاتب وبالرغم من أنه كان يحمل لقب القاضى الأجل فى الوقت نفسه إلاّ أنه لم يكن أبداً يلقب بالقاضى فقط ، ولم يكن لقب القاضى الأجل يلصق باسمه إلاّ فى المكاتبات الرسمية .

الخامس : إن رواية الأحداث فى خاتمة الكتاب تكشف أن صاحبه عاش فى حلب ثم فى مصر ، ولا يبدو أنه يعرف دمشق وأحوالها بينما عاش العماد خاصة فى دمشق . فلا يبقى إلا أن يكون المؤلف شخصاً آخر غير العماد المشهور يحمل لقبه نفسه ، أو أن يكون مؤرخاً مجهولاً انتحل الاسم لينفق الكتاب على الناس .

وإلى جانب هذا الرأى فهناك من أخذ بالرأى النقيض لرأى هؤلاء المؤرخين وعد كتَاب البستان من مؤلفات العماد الكاتب المشهور ، وعلى رأس هؤلاء الدكتور رمضان ششن محقق كتاب سنا البرق الشامى . وقد بين رأيه هذا فى مقدمة التحقيق(١) ، وهو يعرض لمؤلفات عماد الدين الكاتب بقوله : إن الاعتراض على وجود كلمة القاضى فى اسم المؤلف اعتراض لا يلتفت إليه لأنا وجدنا نصوصاً تسمى فيها العماد قاضياً الأول منها فى البرق الشامى ، وهو : " توجهت حضرة سيدنا القاضى الأجل عماد الدين فخر الإسلام مجد العراق صفوة الإمام ذى البلاغتين .... "(٢) أما كون أسلوب العماد فى البستان ليس كمثل أسلوبه فى الخريدة ، والبرق الشامى ، وغيرها فهو أمر طبيعى ، لاختلاف الموضوع . وقال فى مناسبة ثانية فى المقدمة(٣) : هناك قيدان صريحان فى العنوان ، وفى آخر الكتاب ينصان على أنه تأليف العماد الكاتب لكنه اتبع أسلوباً غير أسلوبه فى البرق الشامى وغيره ، ونرى أن ما ذهب إليه كلود كاهين فى نسبة الكتاب إلى رجل ظن أنه عاش بحلب فى عهد العماد ، ليس صحيحاً لأن اسم الرجل هو نفس اسم عماد الدين الكاتب الأصفهانى .

وساق الدكتور حُسين عاصى ما استدل به الدكتور رمضان ششن فى إثبات نسبة الكتاب لعماد الدين الكاتب دون تعقيب أو إضافة(٤) . كما يعده

(١) ص٢٢ .
(٢) البرق : جـ٣ ، ص٥٩ و ص١١٣ ؛ وانظر : الوافى بالوفيات : جـ١ ، ص١٣٦ .
(٣) ص٣٤ .
(٤) انظر كتابه : العماد الأصفهانى فى حياته وعصره : ص٤٩ .

خير الدين الزركلى واحداً من مؤلفات العماد إذ يقول فى ترجمته للعماد : " وله البستان فى التاريخ " .

ويمكن أن نضيف فريقاً ثالثاً إلى جانب هؤلاء المؤرخين – والحديث عن المؤرخين المحدثين الذين تعرضوا بالبحث لجوانب حياة العماد الكاتب المختلفة – وهو فريق المؤرخين الذين سكتوا عن ذكر الكتاب ، ولم يتعرضوا لنسبته للعماد فى بحثهم لا نفياً ولا إثباتاً فمن هؤلاء المؤرخين :

محمد بهجت الأثرى : فى مقدمة التحقيق لخريدة القصر ، قسم شعراء العراق .

شوقى ضيف : فى مقدمة التحقيق لخريدة القصر ، قسم شعراء مصر .

شكرى فيصل : فى مقدمة التحقيق لخريدة القصر ، قسم شعراء الشام .

مصطفى الحيارى : فى مقدمة التحقيق للجزء الثالث من البرق الشامى .

الدكتور محمد محمود صبح : فى مقدمة التحقيق لكتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى .

الدكتور فالح حسين : فى مقدمة التحقيق للجزء الخامس من كتاب البرق الشامى .

ناظم رشيد : فى مقدمة التحقيق لديوان العماد الأصفهانى .

الدكتورة نهلة عبد الكريم : فى كتاب " العماد الأصفهانى حياته وآثاره " .

الدكتورة فتحية النبراوى : فى مقدمة التحقيق لسنا البرق الشامى .

تلك هى مجمل الملاحظات التى أبداها هؤلاء المؤرخون حول كتاب البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، وما يساق تالياً من ملاحظات جديدة أو تساؤلات وتعقيب حول الملاحظات السابقة ، نأمل أن تلقى أضواءً جديدةً على الكتاب ومصنفه ، وهى ملاحظات أمدنا ببعضها نص كتاب البستان نفسه ، وأخرى كانت المصادر التاريخية موردنا لها .

وأول هذه الملاحظات ما يتعلق بلقب القاضى الذى يسبق اسم العماد على ما جاء فى صفحة عنوان مخطوط البستان . فمع أن العماد لم يكن يوماً قاضياً إلاّ أن لقب القاضى أطلق عليه ، وعرف به رغم شهرته بالكاتب ، وفضلاً عما ساقه الدكتور رمضان ششن وأشار إليه(١) من نصوص نعت بها العماد بالقاضى ، والتى منها نصان وردا فى البرق الشامى على لسان القاضى الفاضل فى كتابين بعثهما للعماد يقول فى الأول : " توجهت حضرة سيدنا القاضى الأجل الإمام الصدر العالم عماد الدين فخر الإسلام مجد العراق صفوة الإمام ذى البلاغتين ... "(٢) وفى الثانى " كما ظننت أدام الله نعمةَ حضرة سيدنا القاضى الأجل الإمام العالم الصدر عماد الدين ... "(٣) ونصاً ثالثاً يرد فى الوافى بالوفيات(٤) هو " .. قال القاضى الأجل عماد الدين أبو حَامِد مُحمد الأصفهانى كاتب الملك الناصر – نوّر الله ضريحة – .. " ، فضلاً عن ذلك ، جاء فى الورقة الأولى من مخطوطة البرق الشامى الجزء الثالث كما أوردها الدكتور مصطفى الحيارى محقق الكتاب " البرق الشامى تصنيف القاضى الفقيه الإمام عماد الدّين الأصفهانى الكاتب برسم الخزانة

---

(١) فى مقدمة تحقيق لسنا البرق الشامى : ص٢٢ .
(٢) البرق الشامى : جـ٣ ، ص٥٩ .
(٣) البرق الشامى : جـ٣ ، ص١١٣ .
(٤) جـ١ ، ص١٣٦ .

المعزية بالرباط المعمورة بالموصل وكتبه أقوش الدوادار المغربى بتاريخ جمادى الأخرى سنة إحدى وثمانين وست مائة " كما نعته كل من النويرى فى نهاية الأرب(١) ، والدوادارى فى الدر المطلوب(٢) عند ذكر وفاته بالقاضى عماد الدين ... الكاتب ، فمن غير المحتمل أن يكون البستان لغير العماد لكونه نعت بالقاضى الأجل على اعتبار أن العماد لم يكن قاضياً أو لأن العماد لم يكن يعرف بالقاضى فقط أو لأن لقب القاضى الأجل يلصق باسمه إلا فى المكاتبات الرسمية .

فأما ما يبرر به الدكتور رمضان ششن اختلاف أسلوب الكتابة فى البستان عن أسلوب الكتابة فى مؤلفات العماد كالخريدة ، والبرق الشامى ، والفتح القسى ، وغيرها إذ يقول : وهذا طبيعى لاختلاف الموضوع "(٣) ، محتملاً جداً لأن العماد فى البرق الشامى ، والفتح القسى مثلاً ، يؤرخ لأحداث عاصرها بأدق تفصيلاتها بل كان مشاركاً فيها ، وربما كانت له يد فى صنع بعضها فهما بالتالى مذكرات أكثر منهما تاريخاً أو قل مذكرات مهنية تعطى فكرة عن شخصية الكاتب ، فهو يبدأ كتابه البرق الشامى بذكر نفسه ونشأته ورحلته من العراق إلى الشام ، ثم أخباره مع الملك العادل نور الدين ، والسلطان صلاح الدين ، وما جرى له فى خدمتهما(٤) . فى حين نجده فى البستان يكتب تاريخاً عالميًا من بدء الخليقة إلى سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م ، فيذكر قصص الأنبياء من آدم إلى محمد - عليهما السلام - ، ثم

(١) جـ٢٩ ، ص٣١ .

(٢) ص١٥٣ .

(٣) مقدمة تحقيق سنا البرق الشامى : ص٢٣ .

(٤) انظر : وصف كتاب البرق الشامى فى مقدمة تحقيق الجزء الثالث والجزء الخامس منه ومقدمة تحقيق سنا البرق الشامى لرمضان ششن .

يأتى بعد ذلك على ذكر الأحداث سنة بعد سنة على السنين الهجرية مختصراً إلى حد كبير على العكسر تماماً لما جاء فى البرق الشامى ، والفتح القاسى والذان يكادان أن يكونا سجلاً يوماً لأحداث عاصرها العماد يوماً بعد يوم ، واصفاً أدق تفاصيلها استناداً على مشاهداته(١) أو ما يصل الديوان من تقارير رسمية(٢) عن هذه الأحداث والتى كان العماد بحكم عمله بالديوان ككاتب الإنشاء فيه يطلع عليها أولاً بأول ، وهذا ينسحب أيضاً على باقى مؤلفات العماد بدرجات مختلفة .

ومن زاوية ثانية ربما كانت هذه الطرق التى استمدّ منها العماد مادته وهو يؤرخ للفترة التى تمتد من سنة ٥٦٢ - ٥٩٧هـ/١١٦٦ - ١٢٠٠م ، كانت أحد الأسباب التى جعلت العماد يتخذ أسلوب الكتابة الذى يعنى بالزخرفة ، والتنميق أو ما عرف بمذهب التصنيع(٣) ، وهو المذهب الذى كان يعتمد على السجع ، والمحسنات البديعية فى الكتابة ، فالرسائل الديوانية ،

---

(١) انظر مثلاً وصفه لحملة السلطان صلاح الدين على بلاد الجزيرة الفراتية سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م وكان عماد الدين مرافقاً للسلطان فى هذه الحملة وهو يصف ما شاهده وعاينه بنفسه ، فى البرق الشامى جـ٥ ، ص٢٤ فما بعد ؛ وانظر : وصفه لحملة السلطان صلاح الدين على الإمارات الصليبية فى فلسطين والتى توجهت باسترداد بين المقدس وكان العماد ملازماً للسلطان فى معظم الوقت بهذه الحملة وهو يصف كل دقائقها استناداً على مشاهداته الشخصية ، فى كتاب الفتح القسى .

(٢) انظر : مثلاً وصفه لحملة أرناط صاحب الكرك سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م وهى من تقرير أنشأه القاضى الفاضل فى كتاب إلى الديوان عن السلطان وقف عليه العماد فى البرق الشامى : جـ٥ ، ص٧١ .

(٣) انظر : حول نشأة مذهب التصنيع وتطوره : الفن ومذاهبه فىالنثر العربى : ص١٩١ فما بعد .

والمكاتبات الرسمية ، التى كانت أهم هذه الطرق التى استمد منها العماد مادته التاريخية والتى لا يكاد العماد أن يأتى على ذكر حادثة إلا وأورد واحدة أو اثنتين أو أكثر من هذه الرسائل كتب بشأنها ، صيغت بأسلوب التصنيع هذا(١) .

كما أن العماد وهو يؤرخ لأعلام عصره من أدباء ، وشعراء ، وأمراء ، وسلاطين ، وملوك ، أو يؤرخ لأحداثه كان يراعى ذوق عصره الذى كان يرى السجع وألوان البديع المختلفة من أهم مقاييس الجودة والإبداع . ولأنه أراد أن يخلد ذكر هؤلاء الأعلام ويحفظه من الضياع ، ويعلى مجد أمته(٢) ، رأى أن يكتب بأسلوب عصره مستخدماً ألوان البديع من سجع ، وجناس ،

---

(١) نجد هذه الرسائل فى البرق الشامى : جـ٣ و جـ٥ ؛ وفى الفتح القسى فى مواضع كثيرة من الكتابين .

(٢) يمكن أن نخلص لهذه الأغراض التى من أجلها ألف العماد كتابه من مقدمات العماد فى كتبه التى وصلت إلينا ، وبالتحديد خريدة القصر ، والفتح القسى ، ومختصر البرق الشامى المعروف بسنا البرق الشامى . فهو يقول مثلاً فى مقدمة خريدة القصر قسم العراق : جـ١ ، ص٣ : "لما رأيت الفضل فى عصرنا هذا ، وإن ضاع عرفه ، قد ضاع عرفه .. آثرت أن أثر من مآثر أهل العصر ما يخلد آثارهم ، ويجدد منارهم". ويقول فى مقدمة الفتح القسى : ص٤٣ : " فلا أمة من الأمم ذوات الملل ، وذوات الدول ، إلاّ ولهم تاريخ يرجعون إليه ويعولون عليه . وينقله خلفها عن سلفها ، وحاضرها عن غابرها ، تقيد به شوارد الأيام وتنصب به معالم الأعلام " ويقول فى مقدمة البرق الشامى وهو يذكر غرضه من تأليف الكتاب ولإظهار مفاخر صلاح الدين وتمجيد أعماله يقول : " فلما انقضى عصره ، وانقرض عمره ، خشيت أن ينقضى ذكره ، فأنشأت هذا الكتاب ... " (سنا البرق الشامى : ص١٤) .

وطباق ، وغيرها(١) حتى يكون لهذه الأعمال حظاً عند قراء عصره ، وخاصة أن هذا الأسلوب هو المعتمد عند جل الكتّاب آنذاك ويرى الدكتور عمر موسى أن أى كتابة كانت تخلو من ألوان البديع وخاصة السجع تكون خارج فى عرف نقاد هذا العصر عن أساليب البلاغة الصحيحة(٢) إذاً طبيعى جداً أن يصيغ العماد مؤلفاته بأسلوب عَصره وخاصة وأنه يكتب للأدباء ، والمهتمين بالأخبار وهم فئة النقاد الذين يعدون استخدام ألوان البديع من أهم مقاييس أساليب البلاغة الصحيحة ، وفى هذا المعنى يقول العماد فى مقدمة الفتح القسى(٣) : " هذا كتاب أسهمتُ فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الغرر المتجلية ، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية ، يأخذ الفريقين منه على قدر القرائح والعقول ، ويكون حظ المستخبر أن يسمع ، والأديب أن يقول ، فإنه فيه من الألفاظ ما صار معدناً من معادن الجواهر التى نولدها ، ومن غرائب الوقائع ما صار لساناً من ألسنة العجائب التى نوردها " .

ولأنه أراد أن يخلد سيرة هؤلاء الأعلام وفاء منه لإحسانهم وشكراً لهم على أفضالهم ، إذ يقول فى مقدمة خريدة القصر(٤) : " والذى بعثنى أولاً على جمع هذا الكتاب أننى وجدت المعاصرين لعمى الصدر الشهيد عزيز الدين أبى نَصْر أحْمَد بن حَامِد من الشعراء ما فيهم إلاّ من أمّ قصده ، ووفد

(١) انظر : عن الخصائص الفنية للنثر العماد / العماد الأصفهانى حياته وآثاره : ص٨٤ فما بعد .

(٢) أدب الدول المتتابعة : ص٨٥٠ .

(٣) ص٤٣ .

(٤) قسم العراق : جـ١ ، ص٧ – ٨ .

عليه بمدحه ... فأحببت أن أحيى ذكرّهم ، وأقابل بمجازاة شكرى شكرهم " . ويقول فى مقدمة البرق الشامى(١) : " وبعد ، فإن الكريم من عرف حق المنعم عليه وشكر فضل المحسن إليه ، وإذا خدم مخدوماً ما أوجد كرمه بذكره ، وإن صار معدوماً وعرف من بين ما عرفه ما كان مكتوماً ، ومن استكفانى بالإنشاء لتنفيذ أوامره فى حياته كافية بالإحياء فى إنشاء مفاخرِه فى مماته ، وهو الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ... " . وهو الوفاء الذى رأى العماد أن إتمامه لا يكون إلاّ بتسيير محاسنهم ، وإظهار مزاياهم ، وتخليد أعمالهم ، بأجمل أسلوب ، وإن يعطيها – على حد تعبير – من البلاغة حظاً، ويعيرها من الفصاحة لحظاً ، ويفتكر ، ويبتكر صياغتها معناً ، ولفظاً . فإذا كانت البلاغة ، والفصاحة تقاس عند متأدبى هذا العصر – والعماد أحد أعلام هؤلاء المتأدبين – بكثرة استخدام ألوان البديع من سجع ، وجناس ، وطباق ، وغيرها ، فمن الطبيعى أن يكتب العماد مؤلفاته التى تعالج قضايا عصره بهذا الأسلوب .

تلك الضرورات – إذا صح التعبير – التى حدت بالعماد إلى استخدام ألوان البديع – كأسلوب كتابى لمؤلفاته التى عالجت قضايا عصره ، لم تكن ماثلة أمامه وهو يؤلف كتاب البستان ، فالعماد فى البستان كان جل اعتماده على المصادر التاريخية وحتى وهو يؤرخ لأحداث عصره ، وإن اعتمد فى بعض الأحيان على الرسائل الديوانية أو المكاتبات الرسمية ، فهو لم يستشهد بها إلا فى موضعين الأول رسالة عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب(٢) ،

---

(١) سنا البرق الشامى : ص١٣ .

(٢) نسخة طوب قابى سراى : ورقة ٢٠ .

والثانى نص كتاب التعزية الذى بعثه القاضى الفاضل من دمشق إلى الملك الظاهر غازى صاحب حلب يعزيه بوفاة والده الملك الناصر صلاح الدين(١) .

كما أنه لم يكن الغرض من تأليف البستان تخليد ذكر أعلام عصره أو حفظاً لأعمالهم من الضياع أو ليعلى مجد الأمة فالبستان . تاريخ عام لم يعن بعصر دون الآخر ، وكذلك لم يكتب البستان ليكون عملاً أدبياً أو تاريخياً يتطلع الأدباء إلى غرره المتجلية ، ويستمع المستخبرون إلى سيره المتحلية ، إنما كتب لشخص وصفه العماد بأنه ممن يعز عليه ، إذ يقول فى مقدمة الكتاب : " فإنه سألنى من يعز علىّ أن أنظم له تاريخاً مختصراً ليستريح إليه فى خلوته ، وينشرح صدره بمطالعته . فأجبته إلى ذلك "(٢) . إذاً هو تاريخ خاص كتبه العماد لشخص يبجله لا ليتداول بين الناس ، وبالتالى سيراعى بأن يكون أسلوبه ما يستمرؤه ذوق الشخص لا ذوق عصره .

الأمر الذى يتيح لنا من ناحية ثانية ، وعلى ضوء هذه النتيجة السابقة أن نتصور بأن الشخص الذى صنّف من أجله الكتاب قد يكون من الأمراء الأتراك أو الأكراد الذين لا تسمح لهم ثقافتهم اللغوية بأن يجيدوا فهم المصنفات التى تصاغ بأسلوب التصنيع السائد آنذاك . فإن صح هذا التصور وهو محتمل إلى حدٍ ليس بقليل وخاصة وان العماد كان بحكم عمله بالديوان كثير الاتصال بهؤلاء الأمراء وبالضرورة أن تنشأ بينهم وبينه علاقات ودية ، وصداقة ربما دامت وحتى بعد أن استعفى من عمله بالديوان . فإن صح هذا التصور ، فإنه يعطينا سبباً آخر حدى بالعماد بأن يحيد عن أسلوب التصنيع – الذى اعتمد عليه بجميع مصنفاته – وهو يصنف بالبستان .

(١) نسخة طوب قابى سراى : ورقة ١٣٢ ظ .

(٢) نسخة طوب قابى سراى : ورقة ٢ ظ .

ثم أن ما شرطه الشخص الذى من أجله صنف البستان بأن يكون تاريخاً مختصراً ، وهو ما التزم به المصنف فى معظم تاريخه لا يتوافق وأسلوب التصنيع الذى يحتاج إلى جمل أكثر وأطول نسبياً من الجمل التى تستخدم فى التواريخ المختصرة . إذ أن التواريخ التى تكتب بأسلوب التصنيع لا يكتفى أصحابها عند ذكر الحادثة فقط ، بل غالباً ما يتحدثوا عن جوانبها المختلفة من أسباب ، ومجريات ، ونتائج ، واصفين ، هذه الجوانب بأدق تفصيلاتها . مما يتيح مجالاً أكثر لإبراز المهارات والقدرات اللغوية ، واستخدام ألوان البديع المختلفة ، فى حين يكتفى أصحاب التواريخ المختصرة بذكر الحادثة ، مجردة ، وربما لا يحتاج إلى أكثر من كلمتين أو التواريخ المختصرة بذكر الحادثة ، مجردة ، وربما لا يحتاج إلى أكثر من كلمتين أو ثلاث ليخبر عن حادثة ما ثم ينتقل إلى أخرى قد تكون مختلفة عنها فى المعنى والغرض والموضوع . الأمر الذى يتعذر معه استعمال أى لون من ألوان البديع المختلفة فى صياغة هذه التواريخ(١) . ولأن كتاب البستان على نهج التواريخ المختصرة ، فمن الضرورى أن يَسلُك مُصنفه فى صياغته طريقاً غير طريق أصحاب مذهب التصنيع وإن كان من أعلام هذا المذهب ، وهذا مما يعلل أيضاً تغير أسلوب العماد فى البستان .

وقد يكون احتمال أن شخص إنتحل اسم العماد لينفق الكتاب على الناس احتمالاً غير وارد فى ضوء أن الكتاب ألف لشخص بعينه لا أن يتداول بين الناس كما هو مبين فى مقدمة المؤلف ، فليس إذا من داعٍ أن ينتحل المؤلف

(١) يمكن إدراك هذه الحقيقة من خلال عقد مقارنة بين مادة البستان فى الفترة الأخيرة ومادة البرق الشامى : جـ٣ ، و جـ٥ ؛ والفتح القسى لنفس الفترة ، وقد جاء البستان على ذكر معظم مادة الكتابين .

اسم غيره ولماذا يؤلف كتاباً لشخص ، ويقدمه له باسم آخر ؟ وهل يكون الأمر مقبولاً لدى الشخص الذى أُلف من أجله الكتاب ، أن يقدمه مؤلفه له باسم مؤلف آخر ؟ فليس هناك من داعى - حسب رأيى على الأقل - يجعله يقبل أن يقدم له كتاباً باسم مُؤَلِّف غير مُؤَلِّفه ، وبالتالى فالأرجح أن مُؤَلِّف الكتاب هو القاضى عماد الدين . إلا إذا كان تغير الاسم تم من شخص آخر غير المؤلف ، وغير الشخص الذى من أجله أُلف الكتاب كأنه يكون مثلاً الناسخ لكى ينفقه على الناس ، غير أن هذا الاحتمال غير وارد أيضاً إلاَّ إذا كانت النسختان اللتين اعتمدت عليهما فى تحقيق الكتاب قد نسختا عن نسخة هذا الناسخ الذى قام بتغيير اسم المُؤَلِّف إذ أن كلا النسختين تحمل اسم القاضى عماد الدين الكاتب مؤلفاً للكتاب من جهة ، وأن يكون المصنفان اللذان ذيلاً على الكتاب كلاً على حده استخدما هذه النسخة ولم ينتبه أى واحد منهما أن تغيراً طرأ على اسم المُؤَلِّف من جهة ثانية ولأنه ليس هناك أى دليل يشير بصورة أو بأخرى إلى حصول مثل هذا الأمر أو عدم حصوله يبقى الأمر محتملاً ويبقى أن تغيراً طرأ على الاسم من هذا الباب أيضاً محتملاً .

كما أن سكوت المؤرخين الذين ترجموا للعماد الكاتب وأن أحداً منهم لم يذكر من بين مؤلفاته المتعددة مؤلفاً باسم البُستان لغير العماد الكاتب لا يعد دليلاً قاطعاً على أن البستان لغير العماد الكاتب . فكتاب " المنمق فى أخبار قريش " - على سبيل المثال - الذى ثبت أنه لمحمد بن حبيب البغدادى ، (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م) لم يذكره أحد ممن ترجم لابن حبيب فى حين ذكر له نحواً من أربعين مؤلفاً(١) ، فلسبب أو لآخر قد يغفل المؤرخون ذكر مؤلف

(١) انظر : مقدمة الناشر لكتاب المنمق فى أخبار قريش : ص٩ - ١١ .

أو أكثر من مؤلفات مؤرخ مشهور من جهة ولأن الكتاب ألف لشخص بعينه لا لأن يتداوله الناس ، فمن الطبيعى أن لا يعرف الكتاب فى حياة هذا الشخص بعينه وإن عرف لا تكون معرفته إلا على نطاق ضيق لا تتعدى أسرته ومعارفه وبالتالى خفى هذا الكتاب عن الذين ترجموا للعماد الأصفهانى فى البداية فلم يذكروه من بين مؤلفاته من جهة ثانية .

أما أن معلومات البستان فيما يخصّ فترة صلاح الدّين أوسع من معلومات البرق الشامى ، فذلك لأن القاضى عماد الدين وإن أتى فى البرق الشامى على ذكر أخبار بعض ما كان من حوادث بارزة فى بلاد الشام ، ومصر ، والعراق ، واليمن إلاّ أن جُل اهتمامه إنصب لتدوين أخبار الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، والسلطان صلاح الدين الأيوبى وأعمالهما، ودور العماد الشخصى فى هذه الأحداث ومن جهة ثانية لأن العماد قصر اعتماده فى تدوين هذه الأخبار على مشاهداته الخاصة ، وعلى ما استمده من الرسائل الديوانية(١) فى حين نجده جعل البستان تاريخاً عالمياً ، وجهد لأن يدون كل أخبار العالم آنذاك وكيفما توفرت له المعلومات سواء من مشاهداته أو من الرسائل الديوانية أو من الروايات الشفهية أو المصادر التاريخية . لذلك كانت معلومات البستان أوسع من معلومات البرق الشامى . وفى ضوء هذا الفرق من حيث غرض التأليف بين البستان والبرق الشامى يصبح احتمال أن البستان لغير العماد لأن معلوماته أوسع من معلومات البرق الشامى احتمالاً ضعيفاً أو غير وارد البتة .

---

(١) انظر : عن طبيعة مادة العماد ومصادره فى البرق الشامى فى مقدمة التحقيق لكتاب: جـ٣ و جـ٥ .

ويبقى فى النهاية أن نشير إلى اسم المؤلف الذى جاء على صفحة العنوان لمخطوط طوب قابى سراى هو " القاضى الأجل العالم العامل عماد الدّين مُحمد بن مُحمد بن حَامد الأصفهانى " وفى الصفحة الأخيرة من المخطوط " الشيخ الإمام العالم عماد الدّين مُحمد بن مُحمد بن حَامد الأصفهانى المعروف بالكاتب " وعلى صفحة العنوان لنسخ إكسفورد " تأليف القاضى عماد الدين أبو حَامد مُحمد بن مُحمد بن حَامد الأصفهانى " وكذلك فى مقدمتها " قال القاضى عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الأصفهانى - رحمه الله - " اسم المؤلف فى كل هذه النصوص هو نفسه اسم العماد الكاتب المعروف ونفس ألقابه وشهرته .

هذا فضلاً عن نص ابن الجزرى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبى بكر الجزرى القرشى (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ، فى كتابه جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك . وقد كان وهو فى صدد حديثه عن صور اقتبس ما ورد فى كتاب البستان عنها فى سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م وأشار إلى الكتاب وأنه للعماد الأصفهانى بقوله : " قلت وقد نقل الشيخ العلامة عماد الدين الأصفهانى فى تاريخ المسمى بالبستان الجامع لتواريخ الأزمان أن فى سنة ثمان عشرة وخمس مائة ملك البرسقى حلب وهبت ريح حملت من رمل الرصافة إلى قلعة جعبر ، وفيها فتحت الفرنج صور ، وكان واليها عز الملك عم المأمون وزير مصر باعها بمال جزيل للفرنج بأمر الوزير وخاف من خليفة مصر فهرب إلى دمشق "(١) . وابن الجزرى هذا واحد من أعلام

(١) مخطوط باريس : ورقة ٤٤و . ويلاحظ أن كتاب ابن الجزرى هذا اشتهر باسم حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه ، أما جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك ، هو اسم الكتاب كما يرد فى مخطوطة باريس التى استخدمتها .

المؤرخين البارزين والثقات(١) فى عصره فهل يعقل أنه لم ينتبه إلى أن البستان لغير العماد الأصفهانى المعروف ؟ وإذا انتبه فهل من المعقول أن لا يشير إلى ذلك ؟ وإذا كان تغير أسلوب الكتابة يثير الشكوك حول نسبة الكتاب كما رأى كاهين ومن جاراه فى رأيه ؛ فلماذا لم يثر شكوك ابن الجزرى ؟ أم أن ابن الجزرى ليس عنده فكرة عن أسلوب العماد الكاتب ؟ وإذ يتعذر علينا الإجابة على هذه الأسئلة تبقى للبحث لنقف عند معطيات النص الظاهر دون الخوض فيه لنؤكد مرة ثانية أن اسم الكتاب الذى ورد فيه هو نفس اسم كتاب البستان وأن الاقتباس الذى أخذه ابن الجزرى عنه ورد فى الكتاب بنصه ، وإن اسم المؤلف هو نفسه اسم العماد الأصفهانى فى النصوص السابقة ، كما أنه لا يعرف مؤرخاً آخر بهذا الاسم مما لا يدع مجالاً لأى احتمال قد يجعل هذا الاسم لغير العماد الكاتب المشهور .

وهكذا يؤكد نص ابن الجزرى والنصوص فى النسختين وما سقناه كدليل بأن العماد لقب بالقاضى وكرد على من قال أن العماد لم يكن قاضياً ولم يعرف بالقاضى إلا فى المكاتبات الرسمية وما سقناه كمبررات حدت بالعماد بأن يغير أسلوبه الكتابى يؤكد بأن كتاب البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان من تصنيف القاضى عماد الدين الصفهانى المعروف .

وهو أبو عبد الله عماد الدين محمد بن صفى الدين أبى الفرج محمد بن نفيس الدين أبى الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمد بن هبة الله بن أله الأصفهانى (٥١٩ – ٥٩٧هـ/١١٢٥ – ١٢٠٠م) الكاتب شيخ

(١) انظر : ترجمته فى الوافى بالوفيات : جـ٢ ، ص٢٢ ؛ البداية ولنهاية : جـ١٤ ، ص١٨٦ ؛ السلوك : جـ٢ ، ق٢ ، ص٤٧١ .

المدرسة العمادية فى دمشق وكاتب نور الدين زنكى ثم صلاح الدين الأيوبى ووزيره صاحب خريدة القصر وجريدة العصر ، ونصرة الفطرة وعصرة القطرة والفتح القسى فى الفتح القدسى ، وكتاب البرق الشامى وغيرها(١) .

(١) انظر : عن حياة العماد الأصفهانى ومؤلفاته معجم الأدباء : جـ١٩ ، ص١١ ؛ مرآة الزمان : جـ٨ ، ص٥٠٤ ؛ التكملة لوفيات النقلة : جـ١ ، ص٣٩٢ ؛ الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير : جـ٩، ص٦١ ؛ وفيات الأعيان : جـ٥ ص١٤٦ ؛ تلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب : جـ٤ ، ق٢ ، ص٨٤٥؛ سير أعلام النبلاء : جـ٢١ ، ص٣٤٥ ؛ العبر فى خبر من غبر : جـ٣ ، ص١٢٠ ؛ الوافى بالوفيات : جـ١ ص١٣٢ ؛ طبقات الشافعية : جـ٦ ، ص١٧٨ ؛ المقفى : جـ٧ ، ص٢٠٤ ؛ الدارس فى تاريخ المدارس : جـ١ ، ص٤٠٨ ومن الدراسات الحديثة انظر مثلاً : معجم المؤرخين الدمشقيين : ص٥٩ ؛ التاريخ العربى والمؤرخين : جـ٢ ، ص٢٤٦ ؛ كتاب العماد الأصفهانى : " حياته وآثاره لنهلة الحرتانى ؛ كتاب العماد الأصفهانى حياته وعصره لحسين العاصى مقدمات التحقيق لكتبه مثل : الخريدة : ق العراق ، ق الشام ، والبرق الشامى : جـ٣ و ٥ ؛ الفتح القسى ؛ ومقدمة تحقيق سنا البرق الشامى .

ملحمة ديجينس أكريتاس

مصدرًا من مصادر التاريخ الاجتماعى

لمنطقة الحدود الشرقية البيزنطى

الدكتور : عبد الرحمن محمد العبد الغنى

كلية الآداب - جامعة الكويت

مقـــدمة :

كانت منطقة الحدود الإسلامية البيزنطيـة هـى المسـرح الأساسـى الـذى جرت عليه أحداث المواجهة الطويلة بين الدولـة البيزنطيـة ، والدولـة العربيـة الإسلامية طوال الفترة الممتدة بين القرنين السابع والعاشر الميلاديين (الأول والرابع الهجريين) . ويلاحـظ أن الصـورة التـى يخـرج منهـا البـاحث قـراءة المصادر والحوليات البيزنطية والعربيـة هـى صـورة صـراع طويـل يتضمـن حروبًا عسكرية ومواجهة حضارية بين حضارتين مختلفتيـن همـا : الحضـارة العربية الإسلامية من ناحية ، والحضارة البيزنطية من جهـة أخـرى . بيد أن البحث التاريخى لم يقدم بشكل واضح صورة صحيحة لطبيعة الحياة والتـاريخ الاجتماعى لسكان منطقة الحدود .

والمعروف أن الظـاهرة التاريخيـة ولاسيما الاجتماعيـة منهـا لا تصلنـا كاملة عبر شهادات المؤرخين ، والوثائق والتسجيلات التاريخية . فالمؤرخون وكتاب الوثائق يسجلون جوانب جزئيـة مـن الظـاهرة التاريخيـة يعتقـدون أنهـا الجوانب الهامة ويغضون النظر عن الجوانب الأخرى باعتبارها غير هامـة(١) .

---

(١) قاسم عبــده قاســم : بين الأدب والتاريخ ، دار الفكر للدراســات والنشــر والتوزيـع (القاهرة ، ١٩٨٦) ، ص ١٤١ .

فالمصادر التاريخية التقليدية اهتمت بالحديث عن تاريخ الملوك والاباطرة والسلاطين سواء فى الشرق أو فى الغرب . وأهملت فى أغلب الأحوال تفاصيل الحياة اليومية ، وصور الحياة الاجتماعية . ولما كانت الآثار الناجمة عن أية ظاهرة تاريخية تتخذ شكل تيار اجتماعى ثقافى ، غير مباشر ولكنه مستمر بين الأجيال ، فإنه سرعان ما يجد التيار لنفسه التعبير فى فنون وآداب المجتمع ، ومن بينها الأدب الشعبى الذى غالبًا ما يتخذ لنفسه قالب المأثورات الشفهية مثل الملاحم والسير والقصص التاريخى والأشعار الغنائية(١) .

وتعد الملاحم والروايات التاريخية والأشعار الغنائية ، الخاصة بالعصور الوسطى ، مصدرًا على درجة بالغة من الأهمية ، لأنها تساعدنا فى التعرف على طباع وعادات وتقاليد مجتمعات عصور اختفت وحلت محلها عصور أخرى مختلفة . لقد كان من الطبيعى أن تصور هذه الروايات والملاحم أبطالها وشخصياتها فى إطار يتفق وخيال المجتمع من ناحية ، وتفاعل أبنائه مع بيئتهم فى إطار زمانهم من ناحية أخرى . وهكذا صورت تلك الملاحم والروايات أبطالها وكأنهم أفراد عاشوا وتعايشوا بصورة طبيعية فأضفت عليهم المشاعر والأفكار والإنفعالات والأهواء التى كانت مألوفة وسائدة فى مجتمعهم .

ولا شك فى أن ملحمة ديجينس أكريتاس DIGENIS AKRITAS(٢) تمثل صورة من صور الأدب الشعبى الملحمى . فهذه الملحمة تتمحور حول بطل

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤١ .

(٢) تحمل الملحمة اسم بطلها ديجينس أكريتاس ، ويلخص الاسم شكل وطبيعة الحضارة التى قامت فى منطقة الحدود البيزنطية الإسلامية ، فهو يدعى أكريتاس Akritas أى حارس الحدود (الأكرا Akra) ، ويدعى ديجينس Digenis لأنه ينتمى فى الوقت نفسه إلى العنصرين اللذين عاشا فى تلك المنطقة ، فهو . بيزنطى عن طريق أمه ، وعربى من ناحية أبيه . انظر :

Rambaud, A., Etudes SUR I, hi. istoir byzantine (paris, 1912), p. 73 ..

من سكان منطقة الحدود الإسلامية البيزنطية يقوم بالدفاع عن الحدود البيزنطية مع أقرانه فى شجاعة نادرة . وربما كانت بعض الأحداث الواردة فيها أحداث تاريخية حقيقية . وتعبر بعض أبياتها بطريقتها الواقعية عن فكرة أن التعايش السلمى بين المسيحيين والمسلمين أمر ممكن ومألوف(١) . ولكن الملحمة مثل غيرها من المأثورات الشعبية تبقى مجهولة المؤلف دائمًا ويتم تناقلها شفاهيًا على ألسنة الرواة الذين يضيفون إليها ويعدلون فى أحداثها وبناء شخصياتها . بحيث تلبى حاجة المستمعين الاجتماعية والثقافية .

إن المشكلة التى تواجه الباحث فى دراسته للأدب الشعبى بمعناها الواسع الذى يشمل الأساطير والقصص الشعبى والسير والملاحم وما إليها هى مشكلة الحدود الفاصلة بين الأحداث الواقعية وإبداعات الخيال ونوع التفاعل القائم بينهما ، وتداخلهما معًا فى بناء السيرة أو الملحمة . فالمشكلة التى تشغل بال الكثيرين من المفكرين هى تحديد ذلك القدر من الواقع التاريخى ، ومن الخيال القصصى على السواء فى كل من السرد التاريخى والقصصى ، ومعرفة أين ينتهى التاريخ ويبدأ القصص الخيالى . ومن الواضح أنه كثيرًا ما يمتزج الواقع التاريخى بالخيال القصصى فى هذه الأعمال الأدبية الشعبية ويرتبطان معًا فى وحدة عضوية يصعب التمييز فيها بشكل قاطع بين مختلف المكونات الواقعية والخيالية أو حتى الأسطورية(٢) .

---

(1) Gregoire, H., " Le probleme de la viersion 'Originale ' de l'Epopee Byzantine de Digenis Akritas", Revue des Etudes Byzantines, 6 (1948), p. 33 .

(٢) أحمد أبو زيد : " الواقع والأسطورة فى القص الشعبى " ، عالم الفكر ، مجلد ٧ ، عدد ١ (١٩٨٦) ، ص٣ وحول تعريف الملحمة وعلاقاتها بالتاريخ ، انظر : محمد رجب النجار : التراث القصصى فى الأدب العربى (مقاربات سوسيو - سردية) (الكويت ، ١٩٩٥) ، جـ١ ، ص١٧٣ وما بعدها .

الطابع الخاص لمنطقة الحدود اليزنطية - الإسلامية :

على أية حال ، تميزت منطقة الحدود البيزنطية الإسلامية - التى تمتد فى إتجاه متعرج من إقليم بونطس PANTUS المطل على البحر الأسود شمالاً حتى إقليم قليقية جنوبى شرق آسيا الصغرى جنوبًا - بوجود مجتمعات متناثرة فى سهول وأودية الأنهار وسفوح الجبال . وكان سكان هذه المنطقة الحدودية يتمركزون فى حصون وقلاع كانت تمثل الثغور الإسلامية المتقدمة من ناحية ، والتحصينات البيزنطية المقابلة لها من ناحية أخرى . ولما كانت منطقة الحدود هذه تفصل بين عالمين متباعدين عقيديًا وحضاريًا ، فإنها شهدت صراعًا حتميًا بين الجانبين . بيد أن العلاقات بين سكان هذه المنطقة الحدودية لم يقتصر على الاحتكاك الحربى بل عرفت صورًا من الاتصال الحضارى .

وتجدر الاشارة إلى أن منطقة الحدود هذه كانت مختلفة عن بقية أقاليم كل من الدولة العربية الإسلامية والدولة البيزنطية الواقعة خلفها لأن تلك الأقاليم كانت غير معرضة للخطر المباشر مثلها . وكان الجزء الرئيسى من الاحتكاك الحربى فى تلك المنطقة الحدودية عبارة عن إغارات قد تتطور وتأخذ شكل حملات كبرى ، ولكن فى أغلب الأحوال كانت هذه الإغارات يتولى قيادتها قادة محليون من نفس تلك المناطق سعيًا وراء تحقيق أهداف محلية(١).

---

(١) عبد الرحمن محمد العبد الغنى : " الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغرية (٤٠ - ٣٣٩ هـ/٦٦٠ - ٩٥٠ م) ، " حوليات كلية الآداب " جامعة الكويت ،وحولية ١١ (١٩٨٩) ، ص٥٨ - ٥٩ ؛ فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ، دار الكتاب العربى . (القاهرة ، ١٩٦٦) ، جـ٢ ، ص١٨ وما بعدها .

ولم يكن قادة منطقة الحدود البيزنطية الإسلامية يفخرون بطاعتهم العمياء للأوامر الصادرة من بغداد أو من القسطنطينية . فعندما كانت الحكومة المركزية فى الدولة البيزنطية يدب فها الوهن فإنهم كانوا يعتمدون على أنفسهم . أما الأمراء المسلمون فقد استغلوا ضعف الخلافة وعاشوا كأمراء مستقلين وراحوا يعقدون الأحلاف مع من يشاءون وحذا الأتباع حذو سادتهم فى التمرد والعصيان . وفى غمار الفوضى التى عمت المنطقة استطاع بعض المغامرين من المسلمين أو المسيحيين أن يجدوا الوسيلة لإنشاء إمارات صغيرة بين الجانبين . وتكونت جماعات من المنفيين وقطاع الطرق استوطنت المنطقة وكانت مصدر قلق لسكانها . وترددت فى المناطق المتاخمة للحدود على الجانبين أصداء الضرب بالسلاح والإغارة وذاعت فيها شهرة الأعمال الخارقة التى يقوم بها الأفراد(١) .

ويلاحظ أن منطقة الحدود الإسلامية البيزنطية تعايشت فيها عناصر عرقية متباينة منهم الأرمن ، وهم سكان الإقليم الجغرافى الذى تقع فيه منطقة الحدود بأكملها . وإذا كان معظم الأرمن قد عاشوا فى الجانب البيزنطى من الحدود فإن هناك بعض الأرمن الذين قاتلوا تحت قيادة أمراء الثغور الإسلامية . وبالإضافة إلى الأرمن كان هناك العرب والفرس وغيرهم ممن جاءوا متطوعين من مختلف الأمصار الإسلامية لحماية الثغور والجهاد فى سبيل الله . كما كان هناك البيزنطيون ومن انضوى تحت لوائهم من الإيبيريين والأرمن ومتنصرة العرب فضلاً عن العديد من المغامرين الذين جاءوا لتلك المنطقة بحثًا عن الكسب ، وبالإضافة إلى التباين العرقى كان

(1) Rambaud., op: Cit., P. 73.

هناك تباين فى الإنتماء العقيدى لتلك العناصر التى عاشت فى منطقة الحدود . كما وجدت بجانب العقيدة الإسلامية المسيحية الأرثوذكسية . وانتشرت هاتان العقيدتان بين معظم سكان المنطقة ، وإن كان للأرمن مذهب مخالف لمذهب الكنيسة البيزنطية . أما البيالصة PAULICIANS وهم من العناصر التى امتلكت عددًا من القلاع فى منطقة الحدود ، وتحالفوا مع المسلمين فإنهم كانوا فى نظر البيزنطيين خارجين على الكنيسة .

ولما كانت منطقة الحدود الإسلامية البيزنطية تتداخل وتتقابل ثغورها وبنودها بتحصيناتها وقلاعها كما كانت تقوم الأبراج وفتحات رمى السهام والجسور المعلقة فى كل مكان . ويعيش فيها خليط عرقى ومذهبى متنوع من السكان ، فإن تلك المنطقة احتضنت بالتالى تراثًا ثقافيًا متنوعًا، وكان لها فلكلورًا خاص بها ، أفرز عددًا من الملاحم البطولية والسير الشعبية ، مثل ملحمة ديجينس أكريتاس ، وسيرة سيد غازى البطال (التركية) ، وسيرة الأميرة ذات الهمة العربية(١) . وتعد ملحمة ديجينس أكريتاس واحدة من أهم

(١) الأميرة ذات الهمة هى فاطمة العامرية التى ينتهى نسبها إلى بنى كلاب من عامر بن صعصعة وتقع السيرة الخاصة بها فى حوالى خمسة ألاف صفحة ، انظر الطبعة المصرية للسيرة . (القاهرة ، بدون تاريخ) سبعة مجلدات .

للمزيد عن سيرة الأميرة ذات الهمة انظر :

نبيلة إبراهيم : سيرة الأميرة ذات الهمة مقارنة ، دار النهضة العربية (بيروت ، بدون تاريخ) ، ص٣٣ - ١٣٧ .

شوقى عبد الحكيم : السيرة والملاحم الشعبية العربية ، دار الحداثة (بيروت ، ١٩٨٤) ، ص٢٠٥ - ٢١١ ؛ هانى العمد : ملامح الشخصية العربية فى سيرة الأميرة ذات الهمة ، دراسة فى الدلالات الشعرية ، منشورات الجامعة الأردنية (عمان ، ١٩٨٨) ، ص٤٨ -٨٧ .

وانظر أيضًا : النجار التراث القصصى ، جـ١ ، ص٢٧٠ وما بعدها .

الملاحم التى أفرزها الفلكور من الجانب البيزنطى فى منطقة الحدود الإسلامية البيزنطية . واستمر البيزنطيون ومن بعدهم اليونانيون فى العصر الحديث يتغنون بمآثر بطل هذه الملحمة مع مآثر غيره من أبطال الحدود الشرقية البيزنطية الذين أبلوا بلاء حسناً فى قتال المسلمين .ويطلق على هذه القصائد التاريخية التى تناقلتها الأجيال اليونانية واستلهمت منها البطولة على مر العصور اسم " القصائد الأكريتية " بمعنى قصائد البطولة فى مناطق الحدود(١) .

ويجسد اسم بطل الملحمة " ديجينس أكريتاس" طبيعة الحضارة التى قامت فى منطقة الحدود الشرقية البيزنطية فهو يدعى أكريتاس أى حارس الأكرا (أى الأطراف أوالحدود) ويدعى ديجينس لأنه ينتمى فى وقت واحد إلى العنصرين اللذين تواجدوا هناك : فهو بيزنطى عن طريق أمه التى كانت من أسرة دوقاس DUCAS وعربى عن طريق الأب وهو الأمير موسور MOUSOUR ربما (الأمير منصور) أمير الرها(٢) .

المخطوطات التى سجلت الملحمة :

وتقدم هذه الملحمة معلومات على جانب كبير من الأهمية لدارسى الأدب والعادات والتقاليد البيزنطية ، كما أنها مفيدة للباحث فى مجال التاريخ والحضارة البيزنطية(٣) . ولهذه الملحمة ست نسخ شعرية باللغة اليونانية ،

---

(1) Oikonomides, N., " L'Epopee de Digenis et la Frontiere Orientale de Byzance Aux Xe et Xie siecles" , Travaux et Memoires. 7 (1979), p. 375.

(2) Rambaud, Op: Cit., p. 73.

(3) Jeffreys, M., " Digenis Akritas and Commagene", Svenska Forskningsinstinstitutet i Istanbul Meddelanden 3. Stokholm (1978, p. 5.)

ونسخة نثرية[١] وتستند جميع النسخ الشعرية اليونانية على قصة واحدة فى الأساس ، ومع ذلك فإن هناك اختلافات كبيرة فيما بينهما من حيث تفاصيل المحتوى وطبيعة اللغة . فهناك إضافة لبعض الحكايات ، أو حذف ، أو إسهاب ، أو إختصار فى الرواية ، وهذه هى طبيعة الإبداع الشعبى . ومن الواضح أننا أمام سلسلة من التحولات عن القصيدة الأصلية ، وترجع هذه الإضافات والتحولات إلى الرواة المختلفين الذين تعاقبوا على نسخ هذه الملحمة الشعرية على مدى العصور[٢] .

وأثبت المؤرخون الذين عكفوا على دراسة تلك المخطوطات واخضعوها للدراسة والنقد ، أن ثلاثًا من هذه النسخ الشعرية الست لها أهميتها[٣] والنسخ الثلاث هى :

(أ) المخطوط الذى عثر عليه فى مكتبة جروتافيراتا GROTTAFERRATA ويرمز له بالمخطوط "G" .

(ب) المخطوط الذى عثر عليه فى مكتبة الاسكوريال ESCORIAL ويرمزله بالرمز "E" .

(جـ) أما المخطوط الثالث فمفقود ويرمز له بالمخطوط " Z " . وقد اعتمدت علية عدة مخطوطات مثل المخطوط الذى عثر عليه فى طرابيزون ويرمز له بالرمز " T " . وأخر يحمل اسم أندروس ANDROS وهو

(1) Hesseling, D.C., " Une novelle version du Romman de Digenis Akritas", Byzantion, 4 (1927 1928), p. 177.

(2) Oikonomides, Op : Cit., p. 376.

(3) Ibid., p. 376.

محفوظ الآن فى المكتبة الوطنية فى أثينا ويرمز له بالرمز " A " ويعتقد بعض الباحثين أن النسخة النثرية التى يرمز لها بالرمز " P " ونشرها الأستاذ باسكالس PASCHALIS كانت إختصارًا مبتورًا لمضمون المخطوط الشعرى الأصلى المفقود وهو (المخطوط Z)(١) .

ويعد المخطوط " G " أقدم هذه المخطوطات ، ويرجع للنصف الثانى للقرن الثالث عشر أو بداية القرن الرابع عشر الميلادى (النصف الثانى للقرن السادس أو أو بداية القرن السابع الهجرى) ، وقد عثر عليه فى مكتبة دير يونانى فى " جروتافيرتا " بالقرب من " فرسكانى " سنة ١٨٧٩(٢) . ويثير هذا المخطوط الذى - تبلغ عدد أبياته ثلاثة آلاف وثمان مائة وخمسون بيتًا - جدلاً بين الدارسين حيث تشكك البعض فى مصداقية بعض أجزائه ، بينما تقبله البعض الآخر . ويرى بعض العلماء أن هذا المخطوط يمثل صورة جيدة لأصل يتسم بدرجة من العلمية ، بينما يهاجمه البعض الآخر باعتباره بناء زائف لنص شعبى(٣) .

أما ثانى أقدم المخطوطات ، ونعنى به المخطوط " E " فمن المحتمل أن نسخه تم فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى (النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى) وهو يقدم لنا نصًا يتكون من ألف

---

(1) JeffReys, M. " Digenis AkriTas Manuscript Z", Dodone 4, Ioannina (1975), p. 163.

(2) Oikonomides, Op : Cit., p. 376: Jeffreys, Manuscript Z, p. 165.

وانظر أيضًا : نبيلة إبراهيم : سيرة الأميرة ذات الهمة ، ص١٦٢ .

(3) Jeffreys, Manuscript Z, p. 165 ; Beck, H. G., Geschicht Der byzantinischen Volksliteratur (Munchen, 1971), pp. 166-167.

وثمانمائة وخمس وخمسين بيتًا يتميز برداءة اللغة ، ويحفل بالأخطاء والثغرات فى المعانى والسطور ذات التفعيلات الزائدة(١) ويبدو أن هذا النص قد انتقل مباشرة عن تراث شفهى ، وهو ما يفسر المشاكل العديدة التى تطرحها لغة النص . أما المخطوطات : اليونانية (P, A, T) التى اعتمدت ، على المخطوط المفقود "Z" فترجع كلها إلى القرن السابع عشر الميلادى ، (الحادى عشر الهجرى) ، وتمثل بالتالى أهمية أقل فى إعادة تركيب وترتيب الأحداث فى المواضع التى تتضمن أخطاء فى المخطوطين الأول والثانى(٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن كل مخطوط من مخطوطات ملحمة ديجينس أكريتاس يمثل تسجيلاً منفصلاً لتراث شفهى . كما أن الرابطة بين هذه المخطوطات ليست رابطة نصية ، وإنما هى رابطة تنطوى على الذاكرة الشفاهية والملكات الخلاقة للرواة الشفاهيين(٣) .

ويوجد فضلاً عن المخطوطات اليونانية نسختان من الملحمة باللغة الروسية وهما نسختان مأخوذتان عن أصل يونانى مفقود . ولكن يبدو أنه جرى حشوهما بالعديد من العناصر الأسطورية ، كما أن مضمون هاتين النسختين يتعارض فى عدة مواضع مع مضمون نسخ المخطوطات اليونانية(٤) .

والحقيقة أن مسألة الصلة بين المخطوطات المختلفة ومسألة تحديد المخطوط الذى يجب إعتباره أقرب النسخ إلى المخطوط الأصلى كانت مثار

---

(1) Jeffreys, Manuscript Z, p. 165.

(2) Jeffreys, Commagene, p. 7.

(3) JeffrEys, Manuscript Z, p. 167.

(4) Oikonomides, op : Cit., p. 376.

جدل طويل . ولن نخوض هنا فى هذه المسائل اللغوية الدقيقة التى تستند بالضرورة إلى الاختلافات القائمة بين نسخ المخطوطات ، ومن الأفضل أن نعتمد على الفقرات المختلفة فى المخطوطين اليونانيين الأكثر قدمًا واضعين فى إعتبارنا أن ما هو مشترك فى هذين المخطوطين يحمل إحتمالات أكثر بأن يكون مأخوذًا عن النموذج الأصلى لملحمة ديجينس أكريتاس(١) .

ويلاحظ أن الأغانى الشعبية اليونانية قد تضمنت بعض عناصر ملحمة ديجينس أكريتاس مما يؤكد وجود صلة ما بين تلك الأغانى الشعبية والنص الملحمى ، بيد أن هناك مشاكل خطيرة تكتنف حلقة الربط بينهما . فهناك من يفترض أن الملحمة المكتوبة قد تطورت عن الأغانى الشعبية ، بينما ينظر البعض الآخر إلى هذه الأغانى ويتصور - دون دليل واضح - أنها قد نشأت عن الملحمة . وفى غيبة الإشارات الواضحة إلى طبيعة الأغانى الشعبية لذلك العصر يصعب على الباحث أن يدلى بدلوه فى هذه المسألة(٢) أما عن لغة الملحمة كما وردت فى المخطوط " G " فإنها سجلت بلغة يونانية بسيطة أقرب إلى العامية منها إلى اليونانية القديمة يمكن إعتبارها شكلاً متطورًا نسبيًا عن اليونانية التى كُتب بها العهد الجديد (الأنجيل) . ويرى بعض الدارسين أن

---

(1) Ibid, p.377.

(٢) بانسبة لانصار الرأى القائل بأن الملحمة الشعرية قد تطورت من الأغانى الشعبية انظر :

Gregoire,H., " Autour de Digenis Akritas Les cantilenes et la data de la recension d' Andros - TrebizOnde", Byzantion, 7 (1932), pp. 387-302 .

وبالنسبة للرأى القائل بأن الأغانى الشعبية نشأت من الملحمة انظر :

Huxley, G., " ANTECEDENT and context of Digenis Akritas", Greak Roman and Byzantine studies, 15 (1974), pp. 326-327 .

وانظر : نبيلة إبراهيم : المرجع السابق ، ص١٦٤ - ١٦٥ .

هذه النسخة يمكن أن تكون نموذجًا جيدًا عن الشكل الأصلى ، ويؤيدون دعواهم بالإشارة إلى عمر المخطوط وحالته الجيدة(١) .

أما عن المخطوط " E " فإن النكهة الشعبية تغلب على لغته التى تفتقر إلى الكمال ، وتتعد فيه الأخطاء فى صياغة العبارات ، ويعد هذا المخطوط فى نظر البعض إبداعًا شعبيًا ويؤكدون على أنه ربما كان تسجيلاً لأداء شفهى . وفى ضوء ما سبق ، يمكن القول إن ملحمة ديجينس أكريتاس لا تعد من أعمال الأدب العظيمة وعلى الرغم من ذلك فهى وثيقة أدبية وتاريخية واجتماعية لها أهمتها وسحرها(٢) .

محتوى الملحمة :

تتألف الملحمة من جزأين : أولهما يتناول أخبار والد بطل الملحمة ووالدته فضلاً عن غرامياته ، بينما يخصص الجزء الثانى لمآثر ديجينس أكريتاس نفسه(٣) .

وقد أطلق على الجزء الأول من الملحمة ، والذى يتناول تاريخ والد البطل اسم " أنشودة الأمير " وفيها نرى أميرًا من أصول ترجع إلى طائفة البيالصة PAULICIANS(٤) فهو ابن زعيم البيالصة خريزوشير CHRYSOCHEIRUS

(1) Jeffreys, Commagene, p. 6.

(2) Ibid., p.6.

(3) Rambaud, Op : Cit., p. 74.

(٤) البيالصة Paulicians ، هم طائفة دينية مشرقية لها جذور مانوية ، وقد تأسست على يد بولس من سميساط فى القرن الثالث الميلادى ، وكان أتباع هذه الطائفة يعيشون فى آسيا الصغرى على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، كما أشتهروا =

كما أنه من ناحيــة أخـرى حفيـد الأمـير عمـر بـن عبيـد اللـه الأقطـع صـاحب ملطية(١) . الذى يقوم فى إحدى إغارته علـى ثيـم (ثغـر) قبدوقيـة بأسـر ابنـة أحـد القـادة البـيزنطيين وهـو اسـتراتيجوس STRATEGUS سـابق كـان منفيًـا هناك(٢) وما أن علم أخوة الفتاة حتى أخذوا يطاردون الأمـير لتخليـص أختهـم

= بالتعصب الدينى ، والبأس فى القتال . وقد لجأت السلطات البيزنطية فىأكثر من مناسبه إلى ترحيل اعداد منهم إلى إقليم تراقيه ، خاصة بعد نجاح الامبراطور ، باسيل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦ م) فى كسر شوكتهم والاستيلاء على قلاعهـم علىالحـدود الشـرقية . وأصبحـت قاعدتهم فىالبلقان هى مدينـة فيلبوبولـس Philipopolis ، ومنهـا إنتقلـت تعـاليمهم إلـى بلغاريا ثم إلى الصرب والبوسنة وصـولاً إلـى جنـوب فرنسـا . ويتخـذ البيالصـة موقفًا معاديًا من الصور والايقونات ، والطقوس والأسرار الكنسية .للمزيد عنهم انظر :

Gregoire, H., "Lcs Sources de L'histoire des Pauliciens ", Bulletin de L' Academie de Belgique, 22 (1936), pp. 95-115; Ostrogorsky, G., A History of the Byzantine state, tr . J. M. Hussey (Oxford, 1968), p. 211.

(1) Gregoire, " Notes sur le Digenis Slave" . Byzantion, 10 (1935), p. 336.

(٢) الاستراتيجوس Strategus ، وهو لقـب كـان يحملـه قـادة الثيمـات (الثغـور) ، وكـان صاحب هذا اللقب يجمع بين السلطتين العسكرية والمدنية . للمزيد انظر :

وسام عبد العزيز فرج : دراسـات فـى تـاريخ وحضـارة الإمبراطوريـة البيزنطيـة مـن ٣٢٤ - ١٠٢٥ م ، دار المعرفـة الجامعيـة (الإسـكندرية ، ١٩٨٢) ، ص١٩٩ - ٢٠٢ ، وعن الثيمات البيزنطية انظر :

Constantine Porphyrogenitus, De Administrando Imperio ed Gy Moravcsik, tr., R.J.H., Jenkins (Washington D. C., 1967) , P. 60; Diehl, C., "L'Origine du Regime des themes dans Empire Byzantine", Etudes Byzantines (1905), p. 279; GeraEd, W., La Vie qoutidienne a Byzance (paris, 1966), pp. (267-268).

وانظر :

فايز نجيب إسكندر : أسرة برينيوس ودورها فىتاريخ الإمبراطورية البيزنطيـة ، دار الفكر الجامعى (الأسكندرية ، ١٩٨٧) ، ص١٧ ، حاشية ٤٦ ؛ الباز العرينـى : الدولـة البيزنطية ٣٢٣ - ١٠٨١ م ، دار النهضة العربية (بيروت ، ١٩٨٢) ، ص٣٥٨ .

منه . وتصف " أنشودة الأمير " مبارزة الأمير لأحد أخوة الفتاة الذى ينجح فى هزيمة الأمير الخاطف ويخلص أختـه مـن أسـره . بيـد أن الأمـير تعلـق قلبـه بالفتاة ، ولم يعد يصبر على فراقها ، فانطلق وراءهـا إلـى الأراضـى البيزنطيـة ، واعتنق فى سبيل الزواج منها المسيحية. وتصور الملحمة الأمـير فـى صـورة المتحمس للمسيحية بعد اعتناقه لها ، بل والداعى لها وذلـك حيـن أوردت علـى لسانه النص التالى :

" لقد طفت ببلدان عديدة ، ومررت بعديد من المدن ،
ورأيت وقرأت كتبًا عديدة ، إلا أننى أحب من أعماق
قلبى ممارسات المسيحيين لشعائرهم الدينية ، وعلى هذا .
فالجنة توجد فى الإمبراطورية البيزنطية ، لأن المسيحيين
دون غيرهم هم معتنقو العقيدة الصحيحة(١) " .

وتتوسل أم الأمير التى كانت تعيش فـى الرهـا إليـه أن يعـود ، وتـروى الملحمة أن هذا الأمير حمل على عاتقـه نشـر العقيـدة المسـيحية الأرثوذكسـية التى اعتنقها بمجرد أن تم تعميده بالماء المقدس(٢) وبعد أن يتغلب الأمير على عدة عقبات يعود إلى والدته ، وينجح فى تحويلها إلى المسيحية وترك عقيدتها الأولى ، كما ينجح أيضـًا فـى تحويـل بقيـة أسـرته وبعـض أقاربـه ، ويرتحـل الجميع إلى قبدوقية ، وهناك ينجب الأمير مـن فتاتـه طفـلاً هـو بطـل الملحمـة ديجنيس أكريتاس(٣) .

(1) Diehl,C., Figures Byzantines, Deuxieme series (paris, 1906), II PP. 311-312 .

(2) Ibid., II, P. 312 .

(3) Oikonomides, op: cit., p. 377.

وتسمى الملحمة والد ديجينس بالأمير موسور MOUSOUR (الذى هو فى الغالب منصور) وكان هذا الأمير أميرًا للرها . أما الفتاة فهى أبنة القائد البيزنطى الشهير الاستراتيجوس أندرنيق دوقاس ANDRONIC DOUCAS والمعروف أن أندرونيق هذا حاول القيام بثورة ضد الإمبراطور ليو السادس LEO VI (٨٨٦ - ٩١٢ م) ، وعندما فشلت ثورته فقد منصبه العسكرى ، وكانت أسرته تعيش فى إقليم قبدوقية(١) .

وكان أكبر أشقاء الفتاة هو قسطنطين دوقاس (CONSTANTINE DOUCAS) قد لعب دورًا هامًا فى أحداث الفترة التى أعقبت وفاة الإمبراطور أسكندر ALEXANDER (٩١٢ - ٩١٣ م) شقيق ليو السادس(٢) . ونظرًا لإرتباط ديجينس أكريتاس بأسرة دوقاس فإن تلك الأسرة احتلت مكانة رفيعة فى قلوب البيزنطين(٣) .

---

(١) للمزيد عن ثورة اندرونيقوس دوقاس . انظر :
Farag, W.A., " Some Remarks on Leo of Tripolis Attack on Thessaloniki in 904 A.D. " , Byzantinische Zeitschrift (1989), pp. 137; Grumel, V., " Notes Chronologiques; La revolte d' Andronic Doux sous L'eon VI.La victoire navale d'Himerius", Echos d'Orient, 36 (1937), pp. 202-207; Canard, M., "Deux episodes des relations diplomtiques arabo - byzantines de l'Institute franc,aise de Damas, 13 (1949 - 1950), pp. 51- 69.

(٢) للمزيد عن ثورة قسطنطين دوقاس التى جرت عام ٩١٣ م انظر :
وسام عبد العزيز فرج : الزواج الرابع للامبراطور ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢ م) الأبعاد الدينية والدلالة السياسية ، دار المعرفة الجامعية (الأسكندرية ١٩٩١) ، ص١٠٨ .

(٣) يروى المؤرخ البيزنطى ميخائيل بسللوس Michael psellus (عاش فى القرن ١١ م) أن اسم اسرة دوقاس كان يتردد بالمديح فى الأغانى الشعبية كما كان اسم أندرونيق دوقاس وأبنه قسطنطين على كل لسان فى أيامه انظر :
psellus, M., Chronographia of Michael psellus, en.tr.E.R.A., Sewter (London, 1952), p. 248.

أما الجزء الثانى من الملحمة الذى يتناول سيرة بطل الملحمة ديجينس الفعلية ، فيطلق عليه (أنشودة ديجينس) وتتناول هذه الأنشودة مرحلة طفولة البطل البيزنطى ، وتتضمن تعليمًا أدبيًا لفترة قصيرة تعقبها فترة تدريب أطول على فنون القتال والحرب ، ثم إثبات لقدرته على الصيد ، وهنا تصور الأنشودة ديجينس يطارد الدببة والغزلان والأسود . فضلاً عن لقائه بقطاع الطرق الذين يعرفونه بالأبيلاتاى APELUTES وزعيمهم المسمى فيلبوبابس PHILOPAPPOS ، ومبارزته معهم وانتصاره عليهم(١) .

والأبيلاتاى (ومفردها أبيلاتس APELATES) هم عصابات خارجين على القانون . وكانت هذه العصابات تعيش فى جبال طوروس ، وكهوف منطقة الحدود بين البيزطيين والمسلمين . ولا تعترف بسيادة الإمبراطور أو الخليفة ، بل تنهب البلاد لحسابها الخاص . وفى زمن السلم كان الجميع يتحالفون ضدهم . فكان القادة البيزنطيون يتنافسون فى المبادرة للقضاء عليهم . وفى زمن الحرب كانت أطراف القتال تسعى إلى جذبهم للعمل فى خدمتها ، وتجتهد فى تعويدهم النظام(٢) .

وتشير مصادر القرنين العاشر والحادى عشر الملاديين (الرابع والخامس الهجرى) وعلى طول الحدود الشرقية لبيزنطة إلى وجود سكان من جنسيات مختلفة مثل : الأرمن والسريان والأكراد ، والعرب الذين اعتنقوا المسيحية ، وكان معظمهم مسيحيين هراطقة فى نظر البيزنطيين ، ولكنهم كانوا فى خدمة بيزنطة يعملون كمشاة يدافعون عن المضايق والقلاع ،

(1) Rambaud, op : Cit., pp. 76-77 ; Jeffreys, Commagene, p. 10.

(2) Rambaud, Op : Cit., p. 77 .

ويغيرون على الأراضى الإسلامية سعيًا وراء الغنائم . إن افتقار هؤلاء السكان للنظام أمر معروف فى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) . ومع تفسخ النظام الدفاعى للامبراطورية انقلب هؤلاء السكان على الجيش البيزنطى نفسه وراحوا يعملون لحسابهم الخاص كلصوص وقطاع طرق حقيقيين . وفى أنشودة ديجينس نجد الأبيلاتاى فى كل مكان موضع ثناء لشجاعتهم وقوتهم الخارقة ، وشهرتهم كمقاتلين لا يقهرون ، ولكن صورتهم تختلف من فترة إلى أخرى . ويذكر فى كل موضع أنهم يحتلون مضايق الحدود ، ولكنهم يصورون أحيانًا وهم يعيشون فى مغارات وكهوف ويتفرقون لأعمال قطع الطرق . بينما يظهرون فى مواقع أخرى كجنود حقيقيين يسيطرون على المضايق لحساب الدولة البيزنطية ويقومون بغزو أراضى المسلمين ، وإن كان ذلك لا يمنعهم من الانغماس فى أعمال قطع الطرق مما يجلب عليهم غضب ديجينس(١) .

وتمضى أنشودة ديجينس فتروى لقاء الفتى بايدوكيا EUDOCIA الجميلة التى كان والدها قائدًا بيزنطيًا (استراتيجوس) من أسرة دوقاس أيضًا ومن أتباع الإمبراطور . وتوافق ايدوكيا على الهرب مع ديجينس . ويخرج الاستراتيجوس دوقاس مع أبنائه الثلاثة فى أعقاب الهاربين وعندما يشدد الفرسان الخناق على ديجينس يهاجم خصومه الذين يلوذون بالفرار ويبقى الاستراتيجوس دوقاس بمفرده فى مواجهة الشاب الذى يطلب منه يد إبنته . وهنا يشكر دوقاس السماء ويوافق على زواج إبنته منه. ويعرض والد الفتاة على ديجينس دوطة كبيرة . ولكن ديجينس يكتفى بأخذ الفتاة لجمالها

(1) Oikonomides, Op : Cit., p. 388 .

وسحرها ويقوم بتوزيع ما ناله من مال على أشقاء الفتاة . وتقام احتفالات الزفاف التى استمرت ثلاثة أشهر كاملة وكانت تنطق بالبذخ والترف .بعد الزفاف يتوجه ديجينس مع زوجته الشابة إلى منطقة الحدود حيث يحارب بمفرده الوحوش وقطاع الطرق . ويعيد النظام إلى تلك المنطقة التى استقر فيها . وعندما يسمع الإمبراطور البيزنطى بأعماله يدعوه لمقابلته فى قبدوقية . فيرد عليه ديجينس بدعوته لزيارة هذه المنطقة الحصينة التى استقر فيها على حدود الفرات . وتروى الأنشودة كيف جاء الإمبراطور للقائد محملاً بالهدايا التى يرفض ديجينس قبولها . ثم يلقى خطبة أمام الإمبراطور يعد فيها واجبات وفضائل الحاكم مؤكدًا أنه تابعه المخلص . فينبهر الإمبراطور بأقواله وأفعاله . ويقوم بمنحة لقب بطريق (وهو من الألقاب الشرفية فى بيزنطه) ويعينه قائدًا لمناطق التخوم ويعهد إليه بحراسة الحدود أكراى AKRA ، ومن هنا جاء لقب أكريتاس AKRITAS الذى ارتبط . باسمه ويعنى حارس الحدود(١) .

وتجدر الإشارة إلى أن النسخة الروسية من ملحمة ديجينس تتضمن بعض الإختلاف فى مشهد لقاء البطل بالإمبراطور كما أنها تتوقف فى سرد الراوية عند هذا الحد(٢) بينما تستمر المخطوطات اليونانية فى رد سلسلة من

---

(١) وتروى الأنشودة أن الإمبراطور أمر برد كل الممتلكات التى سبق للحكومة البيزنطية مصادرتها من الاستراتيجوس أندرونيق دوقاس جد ديجينس لأمه . انظر :
Rambaud, op : Cit., p. 79; Jeffreys, Commagene, p. 11.

(٢) يظهر الاختلاف فى النسخة الروسية فى ذلك المشهد الخاص بلقاء ديجينس بالإمبراطور ، حيث تروى أن ديجينس ثار وقتل الإمبراطور ، واغتصب العرش . ولكن هذه النهاية لا تذكرها النسخ اليونانية ، وهى إضافة من جانب الناسخ السلافى لا يوجد تبرير لها . انظر :
Oikonomides, op : Cit., p. 378 not 15.

القصص عن مآثر ديجينس وهى قصص يرويها ديجينس بنفسه لصديق قبدوقى . ومن بين تلك القصص قصة وقوع قائد بيزنطى فى أسر أحد الأمراء المسلمين ، فتقع أبنة هذا الأمير فى حب الأسير وتفك قيوده وتهرب معه . وفى اليوم الثالث لهروبهما يتنكر لها القائد البيزنطى الخائن ويتركها فى العراء ويختفى ومعه الكنوز التى سرقتها الفتاة من أبيها . ولكنه يقع فى أيدى اللصوص ، ويخلصه ديجينس منهم ويتركه فى حراسة بعض أتباعه ، ثم يواصل طريقه بحثًا عن الفتاة حتى يجدها ، ويصحبها عائدًا إلى صاحبها . وهنا تروى الأنشودة مغامرة لا تليق بأمجاد البطل ، حيث تشتعل فى داخله رغبة آثمة ، فيقوم باغتصاب الفتاة رغم توسلاتها . ثم يصل بها إلى صاحبها وينصحه بألا يهجر فتاته ، وأن يتزوجها كما وعدها . ويعود ديجينس إلى زوجته أيدوكيا التى تسكب عليه ماء الورد وتغنى له ، وهو يعانى من تأنيب ضميره(١) .

ثم نطالع شيئًا من مغامرات ديجينس ضد الحيوانات المفترسة وضد قطاع الطرق ، وكيف استسلم لإغواء واحدة من زعماء الطرق تدعى مكسيمو Maximo وارتكب الخطيئة مرة أخرى معها . ثم تستأنف الأنشودة روايتها فى صيغة الغائب . فيبنى ديجينس قصرًا جميلاً على نهر الفرات بعد أن أخضع الأبيلاتاى ، وسيطر على منطقة الحدود ، وحافظ على استتباب الأمن فيها . وطبقت شهرته الآفاق . وكان اسمه كفيلاً بإثارة الرعب فى كل مكان ، فلم يجرؤ المسلمون على الاقتراب من الحدود التى كان يحرسها . وكان الامبراطور البيزنطى يرسل إليه فى كل عام الهدايا الثمينة ، فهو حارس الحدود الجرئ رمز الحكمة الذى يوزع الثروة على المحتاجين ، ويصنع السلام للإمبراطورية . وتمضى الأنشودة فتتذكر كيف توفى أبوه ثم

(1) Rambaud, op : Cit., p. 80.

أمه من بعده ، ثم يأتى دوره فيصاب بالمرض ، حين يـأخذ بـردًا شـديدًا بينمـا كان يسبح ، بعد أن قام باسـتعراض صيـد أمـام أصدقائـه وأقاربـه(١) . ويـأتى لزيارته أشهر الأطباء فـلا تجدى أدويتهم نفعًـا معـه . وتـروى الأنشـودة أنـه استدعى زوجته قبل وفاته وروى لها القصة الكاملة لمغامراتـه . ويمـوت بعد ذلك فى سن الثالثة وأصل المقال الثلاثين ، ويحزن العالم كلـه لموتـه ، ويـأتى كبار القوم من الجانب البيزنطى والأمراء من الجانب الإسلامى للمشاركة فـى جنازته . فالمعزون جـاءوا مـن كافـة أرجـاء جنوبـى شـرق آسـيا الصغـرى ، وشمالى الشام ، والجزيرة دون إعتبـار لاختـلاف منـاطق النفـوذ البـيزنطى أو الإسلامى ، وقد دفن فى قبر يقـع فـى ممـر جبلـى خلـف طرسـوس مباشـرةً ، ويرتفع فوق قبره قوس بحيث يمكن رؤيته عن بعد حتى تتاح الفرصة للجميـع أن ينظروا إلى أعلى فيرون هذا البطـل(٢) أمـا زوجتـه فتمـوت بعـده ، ولكـن الأنشودة لا تذكر شيئًا عن كيفية موتها(٣) .

يتضح من محتوى الملحمة أنها تقدم صورًا للأوضـاع التـى سـادت منطقـة الحدود البيزنطية الإسلامية ، والسكان الذين سكنوا تلك المنطقـة فـى فـترة سـابقة على الفترة التى سجل فيها المؤلف ملحمته . ولا شك فـى أن تلـك المعلومـات تصلح لأن تكون مصدرًا لدراسة تاريخ منطقة الحدود البيزنطية الإسلامية(٤).

---

(1) Jeffreys, Commagene, p. 13 .

(2) Ibid, p. 13 .

وانظر : نبيلة إبراهيم : المرجع السابق ، ص١٨٤ .

(3) Rambaud, op : cit., pp. 81 - 82; Oikonomides, op : cit., p. 379 .

(٤) للمزيد عن هذه المسألة انظر :

Graham, ., H., " Digenis Akritas as, a source for frontier History" , Actes du XIVECongres International des Etudes Byzantines II. . (Bucarest, 1975), pp. 321 - 329 .

ويمكن القول أن كاتب الملحمة لم يكن مؤرخًا ، فهو يكتب قصيدة طويلة ، وسمح لنفسه بطبيعة الحال بكافة أشكال المبالغات . بيد أنه كان مطالبًا بأن يضع قصته فى وسط معين ، وهو وسط يمكن أن يكون واقعيًا إلى إلى حد ما حتى يضفى على قصته شيئًا من المصداقية . وكانت واقعية هذا الوسط ضرورية إذا كان كاتبًا سيتحدث عن عصر وإقليم معروفين لمن سيقرأون قصته.

وهنا يمكن أن تثار أسئلة عديدة حول أصل الملحمة ومؤلفها ، والعصر والمكان اللذين كتبت فيهما هذه الملحمة(١) .

أصول ملحمة ديجينس أكريتاس :

يتضح من دراسة ملحمة ديجينس أكرتياس بأنها لا تتميز بوحدة الموضوع أو الشكل الأدبى . والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو : كيف تم تجميع أجزائها المختلفة ؟ وهل كانت هذه الأجزاء موجودة بشكل ما قبل كتابة هذه القصيدة البطولية فى صورة أغنيات شفهية أو صفحات من كتب التاريخ ؟

وإذا افترضنا أن مادة الملحمة قد جاءت من مصادر مختلفة فهل كان دور الإنسان الذى صاغها لنا فى شكلها الحالى هو القيام بدمج المادة الشفهية مع مادة أدبية مسجلة مكونًا خليطًا منهما ؟ أم أن الكاتب أضاف أجزاء من عنده إلى قصة وجدها غير مكتملة أمامة ؟ وتبدو الإجابة على مثل تلك الأسئلة مسألة معقدة . وكما سبق القول يمكن تقسيم ملحمة ديجينس أكريتاس إلى قسمين يتضمن كل قسم قصة منفصلة فعليًا عن الأخرى : **القسم الأول** : يتضمن قصة الأمير ويعرف بأنشودة المير . **والقسم الآخر** : يتعلق بديجينس نفسه ويعرف بأنشودة ديجينس .

---

(1) oikonomides, op : cit., pp. 381 - 382 .

بالنسبة للقسم الأول الخاص بالأمير فهو أكثر إكتمالاً ويتميز بقدر مقنع من المنطق الداخلى والسياق الموضوعى(١) .

ويرى الأستاذ بيك (Beck) أن هناك إختلافًا فى النمط الأدبى بين القسمين ، حيث يرى أن القصيدة الخاصة بالأمير أقرب إلى الملحمة ، والقصيدة الخاصة بديجينس أقرب إلى الرواية الرومانسية(٢) . وأنشودة الأمير هى الأسهل فى التناول لأنها تتضمن إشارات أكيدة إلى أثنين من زعماء البيالصة فى القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) ينتميان إلى الجيل السابق على جيل الأمير . وهكذا يمكننا أن نؤرخ لأنشودة الأمير بالترتيب الزمنى المطلق أو الترتيب الزمنى للقصيدة (سواء أكانت شفهية أو كتابية فى أول الأمر) بالربع الأول تقريبًا من القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) . وربما كانت أنشودة الأمير ذات أصل عربى وتم تعديلها لصالح المسيحية ، وهذا هو ما نرجحه ، لأن سيرة الأميرة ذات الهمة تتضمن عشرات القصص الفرعية من هذا النوع الذى كان يُغّير فيه القادة العسكريون عقائدهم من أجل فتاة مسيحية أو فتاة مسلمة جميلة ، تسلب أفئدتهم حبًا وعشقًا . ومن ثم فنحن أمام رمز للبطولة الإسلامية يتم تحييده على يد شخص مسيحى بل ويتحول إلى رمز مسيحى بعد تعميده . وربما وصلت هذه القصة إلى الشاعر الذى صاغ ملحمة ديجينس أكريتاس فى شكل شفوى ولم تصل كصفحة من أعمال أحد المؤرخين(٣) .

---

(١) يعد الأستاذ بيك Beck أول من أثار هذه الملاحظة الهامة الخاصة بوجود قصتين كاملتين منفصلتين كل منهما عن الأخرى داخل ملحمة (ديجينس) ، انظر :
Beck, H.G., "Formprobleme des Akritas - Epos " , Beitrage zur sudostevropa - Forschung (Munchen, 1966), pp. 137 - 146 .

(2) Beck, Ibid., p. 140 .

(3) Jeffreys, Commagene, p. 17 .

ويرى بعض المؤرخين أن أنشودة الأمير فى مجملها تعبر عن تطلعات العناصر العربية التى اعتنقت المسيحية والتى كانت تسكن منطقة الحدود الشرقية كأسرى الحرب الذين استقروا وتزوجوا فى الأراضى البيزنطية أو الجنود الفارين أو لعشائر قبلية بأكملها انضمت إلى جانب الإمبراطورية البيزنطية أو سكان الأراضى التى استردتها بيزنطة من المسلمين فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) والذين تحولوا إلى المسيحية برضاهم أو رغمًا عنهم . لقد كانت هذه العناصر تبحث عن مكان فى المجتمع الجديد وعن هوية داخل الإمبراطورية البيزنطية المسيحية التى أصبحت وطنًا جديدًا لهم . فبالنسبة لكل هذه العناصر كانت أنشودة الأمير تمثل تلبية لاحتياجاتهم لأنها تقدم النموذج العربى الذى اعتنق المسيحية ونجح فى الزواج من أبنة استراتيجوس بيزنطى ، ففى وسط هؤلاء السكان يمكن البحث عن مولد أنشودة الأمير(١) .

يلاحظ أن معظم الحملات العسكرية فى أنشودة الأمير تتبعه من الشرق إلى الغرب ، فهى حملات من الجانب الإسلامى على البيزنطيين فهؤلاء السكان الذين انتقلوا إلى المعسكر البيزنطى وتنصروا لم ينسوا ماضيهم . معنى ذلك أن أنشودة الأمير هى فى واقع الأمر ملحمة عربية بيزنطية ولدت فى الذاكرة الفلكلورية وسط تلك الأقوام المختلفة التى تنتقل عبر الحدود البيزنطية الإسلامية تبعًا للاحتياجات والضرورات(٢) .

---

(1) Oikonomides, op : cit., p.394 .

(2) Ibid., p.394 .

أما القسم الخاص بأنشودة ديجينس فيطلق عليه البعض اسم الديجانى (Diganied) فهو أقل اقناعًا ويفتقر إلى السياق المترابط لقصصه المتعددة(١) .

ومن الجدير بالذكر ، أن الرابطة الوحيدة بين أنشودة الأمير وأنشودة ديجينس هو الطفل الذى يذكر مولده فى الأنشودة الأولى ويصبح البطل الرئيسى فى الأنشودة الثانية ، أى أن ديجينس كان موجودًا كطفل فى قصة الأمير ، ووالده الأمير كأب فى الديجانيد ، ولكننا لا نجد أن بطل كل قسم من الملحمة يحمل الكثير من السمات الشخصية معه إلى القسم الآخر(٢). معنى ذلك أن أنشودة الأمير كان لها وجود مستقل قبل أن تظهر أنشودة ديجينس إلى الوجود . وقد قام الشاعر الذى صاغ ملحمة ديجينس بتلخيص أنشودة الأمير التى تمثل ربع الملحمة . فى مقدمته جريًا على عادة الكتّاب البيزنطيين ولكنه أدخل عليها التعديلات اللازمة لتحقيق نوع من التماسك والاستمرار لقصته(٣) .

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو : هل كانت هناك شخصية تاريخية محددة تسمى ديجينس أكريتاس ؟ فى الواقع لا يوجد أى دليل على ذلك فديجينس أكريتاس بهذا الاسم لم يكن معروفًا على الإطلاق فى الحوليات البيزنطية ، ولم يرد هذا الاسم إلا فى قصيدة ترجع إلى شاعر فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) يدعى ثيودور برودروموس

(1) Huxley, Antecedent, p.325 .

(2) Jeffreys, Commagene, p.18 .

(3) Oikonomides, op : cit., p.381 .

(Theodore Prodromus) عندما أشار إلى الامبراطور مانويل كومنين Manuel I Comnen (١١٤٣ – ١١٨٠ م) ، وشبهه ببطل الحدود ديجينس أكريتاس(١).

على أية حال ، إذا أردنا الإجابة على السوال الذى طرحناه فعلينا أن نبحث عن شخص يمكن أن ينطبق عليه الاسمان ديجينس وأكرتياس ، وكان موقع نشاطه نهر الفرات حيث يقوم بحراسة هذا الجانب من حدود الإمبراطورية بشكل شبه مستقل عن الإدارة الامبراطورية فى القسطنطينية ويشيد المبانى الضخمة ، ويعيش فى عصر ساد الهدوء والسلام منطقة الحدود . ويشتهر كبطل فى هذه الأنحاء ويصل صيته الآفاق لدرجة أن وفودًا من الجانب الإسلامى من منطقة الحدود عبرت لتنعيه حين مات وتشارك فى جنازته . وقد يكون هذا الشخص قائدًا بيزنطيًا مشهورًا فى منطقة الحدود البيزنطية أهمله المؤرخون وأسقطوا ذكره فى كتبهم لغير سبب معروف .

ولقد أختلف المؤرخون أيضًا حول التحديد التاريخى للأحداث الواردة فى أنشودة ديجينس ، فبينما يرى الأستاذ هنرى جريجوار (Henri Gregoire) أن المخطوط G " تفوح منه رائحة العراقة والقدم ، وأنه يحوى عددًا من المصطلحات العسكرية والإدارية الشائعة فى القرن العاشر الميلادى (الربع الهجرى) مما يجعله ينسبه إلى ذلك القرن ، يرى البعض الآخر أن الأحداث المسجلة فى أنشودة ديجينس تقع فى العقد الواقع بين عامى (١٠٤٢ و١٠٥٤) الميلاديين (٤٣٤ و ٤٤٦ الهجريين)(٢) .

---

(1) RAMBOUD, op : cit., p. 96; Oikonomides, op : cit., p.393 .

(2) Gregoire, H., " Le tombeau et la date de Digenis Akritas (Samosate, vers 940 apr'es J.- C .) " , Byzantion, 4 (1931), p. 484; Gregoire H., " Nouvells notes epiques", Byzantion, 25-27 (1955 - 1959), pp. 779 - 781; Mavrogordato, J., Digenis Akritas (Oxford, 1956), p. Ixxxiv .

ويرى البعض أنه من الأفضل أن نتخلى عن البحث عن ذلك الشخص ، وعن الفترة التاريخية التى عاش فيها ، لأن أنشودة ديجينس تعبر عن مثل أعلى وحلمًا بالسلام جرى استشعاره وتحليله وتسجيله فى زمن الحرب وفى ظروف بدا فيها السلام مستحيلاً ، وهذا هو الرأى الذى نأخذ به لأن الأدب الملحمى لا يعكس واقعا تاريخيًا بقدر ما يعكس طموحًا ومثلاً أعلى بطوليًا(١) .

ويرى الأستاذ أيكونوميدس (Oikonomidės) أنه فى حكم المؤكد أن أنشودة ديجينس أكريتاس كانت موجودة بالفعل فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) وربما صاغها شاعر فى وقت عادت فيه قراءة الرواية الهلينية إلى الانتشار بين الصفوة البيزنطية(٢) .

وربما كان لهذا الرأى وجاهته ؛ لأن الوسط الذى تجرى فيه أحداث أنشودة ديجينس وسط لم يعرفه المؤلف إلا من خلال الروايات الشائعة التى استخدمها . و بالإضافة إلى ذلك تغيب عن الأنشودة صورة العرب المسلمين كأعداء بينما يفترض أن أحداثها جرت زمن الصراع البيزنطى الإسلامى فى منطقة الحدود . أى أن هذه الأنشودة قد تم تأليفها بعد فترة من الصراع بين بيزنطة ودار الإسلام فى منطقة الحدود والذى استمر حتى بدايات القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) . ولهذا لم يكن المسلمون هم الخصوم الرئيسيين لديجينس ، بل كان قطاع الطرق الأبيلاتاى الشجعان هم

(1) Jeffreys, Commagene, p. 20 .

وانظر أيضًا : النجار : المرجع السابق ، جـ١ ، ص١٧٦ .

(2) Oikonomides, op : cit., pp. 393 - 395 .

ويرى الأستاذ هكسلى Huxley أن القصيدة من تأليف شاعر مثقف . انظر :
Huxley, Antecedent, p . 324 .

الخصوم الذين نازلهم ديجينس ، وسيطر عليهم فى تلك المنطقة وأعاد النظام إليها ، ونشر السلام فيها . ولا يخبرنا الشاعر عما إذا كان هذا السلام فى منطقة الحدود (السلام الاكريتيكى) قد استمر بعد وفاة ديجينس . ومن المحتمل أن يكون الشاعر قد عرف بقصص الأبيلاتاى ، ومآثر أسرة دوقاس من الأغانى الشعبية التى كانت سائدة بين سكان منطقة الحدود الشرقية للدولة البيزنطية ، خاصة وأن تلك الأغانى الشعبية عاشت فى القسطنطينية نفسها فى القرن الثانى عشر (السادس الهجرى) عندما رحلت أعداد من سكان شرق آسيا الصغرى إلى العاصمة البيزنطية فرارًا من غزو الأتراك السلاجقة(١) .

وإذا كان هناك اختلاف حول شخص الإمبراطور المذكور فى أنشودة ديجينس ، فهو مرة إمبراطور يدعى باسيل (Basil)وأخرى يدعى رومانوس (Romanus))(٢) ، فإن هذا لا يمثل مشكلة لأن الأضواء القليلة التى ألقيت على هذا الإمبراطور تشير ببساطة إلى أن الأنشودة كتبت فى عصر كان فيه الأباطرة الذين يحملون أسماء باسيل ورومانوس ينتمون إلى الماضى البعيد . كما يلاحظ أيضًا أن السلطات التى خلعها الإمبراطور على ديجينس فى الأنشودة إنما جرى تعديلها بشكل غامض ، فهى سلطات بقيادة الحدود دونما تحديد جغرافى لهذه الحدود ، وبلا مصطلح فنى أو لقب يحدد المنصب الذى عينه فيه الإمبراطور .

ومن الجدير بالذكر أن قصيدة طويلة يبلغ عدد أبياتها عدة الآف حسب النسخ التى سبقت الإشارة إليها استلهم الشاعر مضمونها من الروايات وكتبها

---

(1) Oikonomides, op : cit., p. 396 .

(2) Gregoire, Le tombeau, p. 484 .

فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) من المستبعد أن تكون قد كتبت فى قبدوقية أو الفرات وهما منطقتان أصبحتا تحت سيطرة الأتراك السلاجقة عقب انتصارهم فى معركة ملاذكرد سنة ١٠٧١م/٤٦٤هـ. والمرجح أنها كتبت بعيدًا عن منطقة الحدود البيزنطية الإسلامية ، وربما فى القسطنطينية نفسها التى كانت مركز الحياة الفكرية فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) . وإذا كان الشاعر ثيودور برودروموس هو الذى ذكر لأول مرة وجود قصيدة ديجينس أكريتاس فإن المخطوط " G " يكون أقرب المخطوطات للنموذج الأصلى(١) .

يرى البعض أن الشاعر الذى كتب الأنشودة استلهمها من نصوص أدبية وأغانى شعبية وصنع بطله الخاص ، وأعطاه أسمًا له دلالة هو ديجينس أكريتاس لقد وصف مآثره دون أى روح حربية أو أسياسية أو دينية فى عصر كان قد مضى عليه نحو قرنين من الزمان . لهذا فقد تجنب المفارقات الزمنية ، فهو لا يتحدث عن وصول السلاجقة إلى آسيا الصغرى . وربما كان هدف الشاعر من كتابة الأنشودة امتاع القراء فقط . وبناء على ذلك فإن أنشودة ديجينس ليست ملحمة بل رواية خيالية(٢) .

ومهما كانت وجاهة هذا الرأى ، فإن الباحث يميل إلى الاعتقاد بوجود أساس للملحمة على الرغم من صعوبة التحديد التاريخى لشخص البطل ، والفترة المحددة التى عاش فيها . فالبطل الذى حمل اسم ديجينس أكريتاس

---

(1) Oikonomides, op : cit., p. 397 .

(2) Beck Formprobleme. pp. 137 - 146 .

كانت له مكانته فى التراث الشعبى مثل المدافعين الحقيقين عن الحدود البيزنطية من أمثال اندرونيق دوقاس وقسطنطين دوقاس اللذين كانا موضوعا لعدد من الأغانى الشعبية التى تغنى بها البيزنطيون واستلهموها فى فترات ضعف دولتهم ، لأنهم وجدوا فيها العزاء والسلوى .

وتجدر الإشارة ، إلى أن الدراسة المقارنة للعناصر الواردة فى الأغانى ، والحكايات الشعبية البيزنطية ، والعناصر الواردة فى أنشودة ديجينس تثبت وجود صلة بينهما ، فالأغانى الشعبية تتناول أيضًا قصص البطولة ، ولكنها تنتقل شفاهة على مر العصور ، وتغلب عليها العاطفة والخيال الشعبى ، ولا تظهر فيها الدلالات التاريخية بوضوح ، ولها نهايات مختلفة بالنسبة للبطل تمشيا مع الخيال الشعبى . كما أن الأنشودة ديجينس تتضمن بطولات خارقة تذكرنا بالياذة هوميروس فالأعمال الخارقة لديجينس أكريتاس شبية بأعمال البطل أخيل فى حربة ضد الطرواديين .

بيد أن أنشودة ديجينس تتميز بخاصية أخرى وهى وجود عناصر دينية مستعارة من التوارة والتراث المسيحى ، وهو مالا نجده فى الأغانى الشعبية(١) .

على أية حال ، من بين الأغانى الشعبية التى تحمل صفات مشتركة مع ملحمة ديجينس أكريتاس أنشودة شعبية بعنوان " ابن اندرونيق Andronic " . وهى تدور حول الصراع بين البيزنطيين والمسلمين ، وتروى كيف اختطف

---

(١) يؤكد الأستاذ خرستيدس Ghristides على وجود صلات بين ملحمة ديجينس أكريتاس والأغانى الشعبية الأكريتية ، ورغم أن تلك الصلات لم تتضح بعد فإن أوجه الشبه بينهما ليست وليدة الصدفة . انظر :

Christides, V., " An Arabo - Byzantine Novel Umar B.AI- Nu man Compaed with " Digenis AKRITAS ", Byzantion, 22 (1962), p. 553 .

المسلمون فى إحدى الغزوات زوجة اندرونيق التى تضع مولودًا فى فترة الأسر ، وهذا المولود يصبح محور القصة التى تتناولها الأنشودة . وتمضى الأنشودة فى بيان مآثر بطلها الذى يدخل حروبًا عديدة ضد المسلمين والبيزنطيين على حد سواء . وكيف تحدى هذا البطل قادة يحملون أسماء كبيرة مثل فوقاس Phocas وبتروتراكيلوس Petrotrachilos وغيرهما من القادة البيزنطيين الذين كانوا فى تلك المنطقة فى هذه الفترة والذين كان لهم صيت كبير فى تاريخ العسكرية البيزنطية التقطها الخيال الشعبى لمجرد شهرة هذه الأسماء ووضعها خارج إطار التسلسل الزمنى التاريخى المنطقى . وتصور الأنشودة البطل الذى تصفه بالشجاعة وتنسب إليه أعمالاً خارقة(١) .

ومن بين الأغانى الشعبية الأخرى التى تحمل صفات مشتركة مع ملحمة ديجينس قصة بعنوان " اختطاف ديجينس للفتاة أيدوكيا " وهى تتفق فى الكثير من الملامح مع الملحمة موضوع الدراسة . كما أن هناك عددًا من الأغانى الشعبية التى تحمل ملامح مشتركة مع ملحمة ديجينس أكريتاس مثل الأغانى الشعبية التى ظهرت فى طرابيزون وجزيرة قبرص(٢) .

---

(١) عن انشودة ابن أندرونيق انظر :

Gregoire, H., "Etudes sur l'epopee byzantine", Revue des Etudes Grecques, 46 (paris, 1933), pp. 49 - 59 .

وانظر ايضًا : نبيلة إبراهيم : المرجع السابق ، ص١٦٦ - ١٦٧ .

وللمزيد عن الأسماء الواردة فى هذه الأنشودة مثل فوقاس phocas وبتروتر اكليوس Petrotrachilos التى تصفهم الأنشودة بأنهم أبطال يخشاهم العالم كله . انظر : OP : CIT., P. 56 .

(2) Gregoire, Autoure, p. 291.

وللمزيد عن أغنية اختطاف ديجينس للفتاة أيدوكيا انظر :

نبيلة إبراهيم : المرجع السابق ، ص١٦٥ - ١٦٦ .

ومما يجدر ذكره أن عددًا من المؤرخين اهتموا بدراسة العلاقة بين المآثر البيزنطية والإسلامية . ويؤكد الأستاذ كانار Canard على وجود مادة مشتركة بين المآثر البيزنطية ومثيلتها ، بل وعلى وجود تأثير متبادل بينهما(١) . فديجينس أكريتاس لا يظهر فى الأنشودة وهو يقاتل المسلمين أبدا . كما أن الملحمة تتحدث فى بعض أجزائها عن مآثر أمير مسلم تثنى عليه . فهل كانت الفكرة من رواء ذلك هى التأكيد على أن التعايش السلمى بين المسلمين والمسيحيين أمر ممكن ومألوف ؟ لقد كان الأستاذ هنرى جريجوار Henri Gregoire أول من أشار إلى تلك الملاحظة ، وخرج من ذلك إلى افتراض أن الوجود المسبق لمآثر إسلامية كمصدر محتمل لمحلمة ديجينس أكريتاس(٢) .

وكان الأستاذ جريجوار قد أثبت الأصل العربى للملحمة التركية المعروة بملحمة " سيد غازى البطال " ، كما سجل أوجه التشابه الواضحة بين قصتى سيد غازى البطال وديجينس أكريتاس . وخرج جريجوار من دراسته إلى استنتاج أن أحد المصادر التى استخدمها مؤلف ملحمة ديجينس أكريتاس كانت عبارة عن ملحمة عربية هى نسخة كتبت عن سيد غازى البطال(٣) .

---

(1) Canard, M., "Un personnage de roman arabo - byzantin" , II Congres national des sciences historique (Alger, 1932), pp. I- 14 .

(٢) انظر :

Gregoire, H.," L'epopee byzantine et ses rapports avec L' epopee turque et l'epopee romane " , Bulletin de la classe des lettres et des sciences Morales et politiques de l'academie royale de Belgique, XVII (1931), pp. 463 - 493 .

(3) Ibid, pp. 490 - 493 .

وانظر ايضًا : النجار : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢٠٢ .

كما أشار الأستاذ كاناربان الملحمة العربية النثرية المعروفة بسيرة الأميرة ذات الهمة تتضمن أوجه شبه واضحة مع ملحمتى سيد غازى البطال وديجينس أكريتاس(١) .

ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الملحمة العربية النثرية الخاصة بمآثر " عمر النعمان " التى وردت ضمن قصص ألف ليلة وليلة إذ توجد أوجه شبه بين ما ورد فيها وما تضمنته ملحمة ديجينس أكريتاس(٢) .

ورغم كل الدراسات سابقة الذكر فإنها لم تخرج بتحديد للعلاقات اللدقيقة بين مآثر سيد غازى البطال ، والأميرة ذات الهمة ، وعمر النعمان من ناحية والأغانى الشعبية البيزنطية من ناحية أخرى . ومن المحتمل حدوث تبادل بين المواد الفلكلورية العربية الخاصة بالقرنين السابع والثامن الميلادى (الأول والثانى الهجريين) والمواد الفلكلورية البيزنطية الخاصة بالقرنين الثامن والتاسع الميلادى (الثانى والثالث الهجريين)(٣) .

---

(1) Canard, Un personnage, pp. 1 - 14 .
Canard, M., Delhemma epopee arabe des querres arabo - byzantines, BYZANTION, 10, (1935), pp. 283 - 300 .

(٢) وجدير بالذكر أن عمر النعمان هو عمر بن عبيد الله الأقطع أمير ملطية الذى قتل فى معركة ضد البيزنطيين فى عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ – ٨٦٦) للمزيد انظر: الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ط٤ ، دار المعارف (القاهرة ، ١٩٦٧) ، جـ٩ ، ص٢١٦؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، دار الكتاب العربى ، ط٦ (بيروت ، بدون تاريخ) جـ٥ ص٣١٢ ؛ اسد رستم : الروم فى سياستهم ، وحضارتهم ، ودينهم ، وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، دار المكشوف ، ط١ (بيوت ، ١٩٥٥) ، جـ١ ، ص٣٧٧ . وانظر :
Ghristides, AN. Arabo - Byzantine, p . 562 .

(٣) قارن : نبيلة إبراهيم : المرجع السابق ، ص١٩١ ، ١٩٤ .

الخاتمة :

تكمن قيمة ملحمة ديجينس أكريتاس فى حقيقتها أنها تضمنت أفكارًا وعادات وتقاليد سادت فى منطقة الحدود البيزنطية الإسلامية ، التى شهدت تعايش وصراع حضارتين مختلفتين متجاورتين هما الحضارة الإسلامية من ناحية ، والحضارة البيزنطية من ناحية أخرى . وهى بطبيعة الحال تصور تلك الأفكار والعادات والتقاليد من وجهة النظر البيزنطية . فديجينس أكريتاس يظهر فى الملحمة بمظهر المدافع عن حدود الدولة البيزنطية من ناحية ، والعقيدة المسيحية الأرثوذكسيه من ناحية أخرى .

ومن وجة نظر ديجينس أكريتاس لا ينبغى الفصل بينهما . ففى اتحادهما قوة الإمبراطورية البيزنطية(١) . وهكذا أخذ بطل الملحمة على عاتقه حماية الحدود وتأمينها من الأخطار المحدقة بها حتى نجح فى نشر السلام فى ربوعها .

ويلاحظ أن الملحمة تبرز فى آن واحد مغامرات الحرب والحب معاً . ففيها تحتل أعمال الإغارة والسلب والنهب والقتل فضلاً عن اختطاف النساء مكانة بارزة . وتعد هذه الأعمال صوراً صحيحة لطبيعة الحياة لمنطقة الحدود البيزنطية التى كانت لها خصوصيتها . فالمنطقة أفرزت الأبطال والمغامرين الذين نسب إليهم الخيال الشعبى العديد من الأعمال الخارقة . فعلى الجانب الإسلامى ظهر أبطال من أمثال سيد غازى البطال ، وعمر النعمان وذات الهمة ، بينما أفرز الجانب البيزنطى ديجينس أكريتاس وغيره من أبطال الحدود الذين تغنى البيزنطيون بمآثرهم .

---

(1) Diehl, Figures Byzantines, p. 309 .

وعن تقيم العناصر الواردة فى ملحمة ديجينس أكريتاس يجب أن نأخذ بالاعتبار الأحداث الكبرى التى شهدتها منطقة الحدود الشرقية لبيزنطة فى النصف الثانى للقرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) عندما حققت بيزنطة انتصاراتها الكبرى ونجحت فى الاستيلاء على ثغور المسلمين فى منطقة الحدود . بل وأقامت لها قاعدة فى شمال الشام بعد استيلائها على مدينة أنطاكية بفضل الانتصارات التى حققها الإمبراطوران نقفور فوقاس Nicephorus II Phocas (٩٦٣- ٩٦٩ م) ويوحنا تزيمسكس John I Tzimiscas (٩٦٩ - ٩٧٩ م) لقد ترتب على تلك الفتوح البيزنطية هجرات بشرية وتغيرات هامة فى التركيبة السكانية لمناطق الجزيرة وأرمينية وشرق آسيا الصغرى . إذ انتقلت أعداد من السكان المسلمين والأرمن داخل أقاليم الإمبراطوية البيزنطية . وعندما غزا الأتراك السلاجقة آسيا الصغرى فى أعقاب انتصارهم فى موقعة ملاذكرد سنة ١٠٧١/٤٦٤ هـ هاجرت أعدادًا من سكان المناطق الشرقية إلى غرب آسيا الصغرى وإلى القسطيطينية نفسها . وهكذا حملت العناصر المهاجرة إلى العاصمة البيزنطية ثقافات بيئاتها الأولى وعناصر فلكلورها المتنوع . وفى ضوء ما سبق يميل الباحث إلى الإعتقاد بأن الشاعر الذى صاغ ملحمة ديجينس أكريتاس تأثر بتلك المواد الفلكلورية البيزنطية - العربية المختلطة الخاصة بمنطقة الحدود واستخدامها فى صياغة ملحمته .

عرض الكتب

الإسلام بين الشرق والغرب

تأليف : على عزت بيجوفيتش

نقله إلى العربية محمد يوسف عدس

الناشر : مجلة النور الكويتية-مؤسسة بافاريا

عرض : أ. د. سيد أحمد على الناصرى

تقع الترجمة العربية لهذا الكتاب فى ٤١١ صفحة وقد اخترناه للعرض نظرًا لأهميته فى إظهار دور الإسلام فى الصراع الفكرى المعاصر ، كما أن مؤلفه يدخل به حلبة الفلسفة الإسلامية المعاصرة ونوصى بتدريسه فى أقسام التاريخ والحضارة إلى جانب أقسام الفلسفة بالطبع ، وقد ترجمه السيد محمد يوسف عدس عن الترجمة الإنجليزية الطبعة الثانية التى صدرت فى الولايات المتحدة عام ١٩٨٩ لأن اللغة الأصلية التى كُتب بها الكتاب هى اللغة الصربوكرواتية وهى اللغة التى يتحدث بها أهل البوسنة والهرسك على اختلاف دياناتهم . ويعتبر هذا الكتاب إلى جانب كتاب " الإعلام الإسلامى " لنفس المؤلف علامة بارزة تضع الفلسفة الإسلامية المعاصرة على قدم وساق مع الفلسفات الأخرى بل تبزها وتتفوق على ماعداها فى ملائمتها للإنسان المعاصر الذى يعتريه القلق ويبحث عن السعادة فى هذه المرحلة المضطربة من تاريخ الفكر الإنسانى الذى هو تراث الأجيال على مر آلاف السنين والذى يواجه تحديا يتمثل فى الإنجازات المادية المذهلة للحضارة العلمية .

ومؤلف الكتاب يقف فى مصاف سلسلة من المفكرين السياسيين المجاهدين ومؤسسى دولهم ، وفى نفس الوقت يلعبون دور فلاسفتها الذين رسموا لها شخصيتها الفكرية ، ومن أمثال هؤلاء محمد على جنة فيلسوف

ومؤسس دولة باكستان الإسلامية . وهـذه المجموعة من الزعماء السياسيين التى تجمع بين الكفاح الفكرى والجهاد البدنى وفى نفس الوقت الجهاد مع النفس تستلهم قدوتها من شخصية محمد ابن عبد اللـه الذى تلقّى رسالة ربه المتمثلة فى الإسلام ، ثم جاهد بالسيف ليؤسس الدولة العربية الإسلامية ، ومؤلف الكتاب غنى عن التعريف فهو يشغل الآن منصب أول رئيس لجمهورية البوسنة والهرسك ، ويقود كفاح قومه وشعبه ضد أبشع عملية استئصال شهدها العالم الحديث منذ محاولة النازية وضع " الحل الأخير " لمشكلة اليهود فى أوروبا باستئصالهم ، ولذلك فإن منطق الصرب والكروات (التطهير العرقى) فى القضاء على البوسنيين المسلمين لا يقل عن منطق النازية فى "الحل الأخير"، ولقد تعرض مؤلف الكتاب للاضطهاد بسبب دعوته لتأسيس دولـه إسلامية فى البلقان ، وزج به فى السجن مابين عام ١٩٤٩ وعام ١٩٥٤ ثم أُطلق سراحه بعد انعقاد مؤتمر باندونج تكريمًا للرئيس الراحل جمال عبد الناصر الذى كان صديقًا لرئيس جمهورية يوغوسلافيا جوزيف بروز تيتو ، ولكن ما أن مات عبد الناصر عام ١٩٧٠ وفترت العلاقات بين مصر ويوغوسلافيا السابقة حتى أعيد للسجن بدعوى الجهر فى معاداته للشيوعية ، وظل فيه حتى أُفرج عنه بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وسقوط الشيوعية ؛ وبعد سقوط الماركسية والإلحاد ، وعودة الدين إلى البلقان المتمثل فى الكنيسة الأرثوذكسية حتى عاد الاضطهاد من جديد لشعب البوسنة المسلم فى شكل تيار عنصرى يجمع بين بقايا الماركسية وكراهيتها للأديان ، وبين التطرف المسيحى المتمثل فى هيمنة الكنيسة الأرثوذكسية فى شرق أوروبا والتى تدعى وراثة الإمبراطورية البيزنطية - (العدو القديم للدولة الإسلامية) التى أسقطها العثمانيون بفتح القسطنطينية عام

١٤٥٢م • ومن ثم هناك رغبة فى الثأر من المسلمين باعتبار أن الإسلام هو المسئول عن سقوط هذه الإمبراطورية • ومن ناحية المنظور التاريخى فإن اضطهاد المسلمين البوسنيين الذين ينتمون عنصرًا وثقافةً إلى العنصر السلافى مثلهم فى ذلك مثل الصرب والكروات فإن هذا الاضطهاد يُعد استمرارًا للاضطهاد القديم لأتباع الكنيسة البوجوميلية التى ظهرت فى القرن الثامن الميلادى فى البلقان والتى أبدت تحفظات على اللاهوت المسيحى طبقا لنظرية الإيمان التى وضعتها المجامع المسكونية المسيحية ، وتعرض أتباعها للاضطهاد والاستئصال فى العصور الوسطى . لكنهم صمدوا وقاوموا الفناء حتى قيض الله لهم فتح العثمانيين لشرق أوروبا فى القرن الخامس عشر لينقذهم ، ونظرًا لقرابة تعاليم الكنيسة البوجوميلية من الدين الإسلامى ، فقداعتنق أغلب أتباعها هذا الدين وقامت الدولة العثمانية باحتضانهم والاعتماد عليهم فى حكم دول البلقان ، وبعد سقوط الدولة العثمانية ، وإلغاء الخلافة الإسلامية على يد كمال أتاتورك وظهور تركيا العلمانية ، وانكماشها إلى حدودها الأصلية ، بدأت عملية تصفية الحساب ضد المسلمين البوسنيين باعتبارهم أتباع وأنصار الحكم العثمانى •• ولما دخلت الشيوعية فى البلقان وتأسست دولة يوغوسلافيا بعد الحرب العالمية الثانية ألغت الشيوعية – الداعية للإلحاد – الكنيسة الأرثوذكسية وكذلك الإسلام ، ومن ثم توقف الاضطهاد ضد الإسلام مؤقتًا من جانب الصرب الأرثوذكسيين إلى أن سقطت الماركسية الإلحادية وانتصر الدين ، فعادت الكنيسة الصربية الأرثوذكسية إلى قيادة حملة صليبية لاستئصال شأفة المسلمين على غرار حركة " الريكونكويستا " الكاثوليكية فى أسبانيا التى قضت على المسلمين فى

شبه جزيرة أيبيريا أو الأندلس - كما كانت تُعرف - والتى شهدت أبشع استئصال فى تاريخ البشرية لكل من المسلمين وحلفائهم اليهود فى الأندلس .

هذا العرض التاريخى ضرورى لفهم خلفية الكتاب وفهم دور مؤلفه الذى يبدو كما لو كان " مسيح شعبه " الذى جاء لخلاصهم من الاضطهاد وتأسيس دولة لهم .

ولد على عزت بيجوفيتش عام ١٩٢٥ فى مدينة كروبا بالبوسنة لأسرة عريقة ترجع جذورها إلى إقطاعيى العصر العثمانى ، وأتم تعليمه فيها ثم نزح إلى العاصمة سيراييفو ليدرس فى جامعتها القانون والآداب ، وبعد تخرجه حاول تأسيس منظمة " الشبان المسلمين " ، ولهذا اضطهده الشيوعيون وزجوا به فى السجن كما أسلفنا . ويؤكد المؤلف فى كتابه أنه ليس فقيها ولاداعية إسلامى إنما هو مفكر حر يريد أن يحافظ على الهوية الإسلامية لشعبه محللاً الأوضاع المتدهورة للإنسانية فى هذا العالم المادى الملحد ، مبيناً ميزة الإسلام وتفوقه على كافة الأديان السمارية الأخرى من ناحية ، وعلى الفلسفات الوضعية والإلحادية والعلمانية من ناحية اخرى ، وأنه وصل إلى هذه التأملات برضاه وبقناعته وليس بدافع التطرف الدينى الذى يرى أنه خطر يهدد الإسلام الذى يقوم على السماحة والعفو والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والقدرة على التعايش مع الأديان الأخرى . والتكيف مع محدثات العصر الحضارية .

وينقسم الكتاب إلى جزئين : جزء تأملى فى أحوال النظريات والأديان الموجودة على الساحة بدءًا من طاليس فى القرن السادس قبل الميلاد ومرورًا بأفلاطون فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم الفلسفة المسيحية اللاهوتية فى

العصور الوسطى والفلسفة الإسلامية المتمثلة فى آراء الإمام الغزالى ، حتى الفلسفة الأوروبية المعاصرة المتمثلة فى مذهب الشك لديكارت ، ثم لفلسفة "كانت" و"هيجل" المثالية ثم للفلاسفة البرجماتين .. وهنا يظهره فى دور المحامى المدافع عن ضرورة وجود الدين فى الدولة . فإذا كان المجتمع الإنسانى جسدًا يعمل وينتج ويتوالد ، فإن الدين هو " الروح " وهى خاصية تُميز بنى الإنسان ، وبدون ذلك تتحول الإنسانية إلى بُهيمية ، إذ يصبح الإنسان مخلوقًا شرجيًا يأكل ويتصرف كالبهائم . وبعد أن يُجرى مقارنة علمية وعقلية بين النظريتين : المادية الصرفة ، والروحية الخالصة ، يرى أن الإسلام يقف وسطاً بينهما ويضرب المثل على ذلك بالحكمة من وراء الصلاة التى تجمع ما بين الرياضة الجسمانية والرياضة الروحية ، والزكاة التى تُمثل التكافل الاجتماعى ودفع الضرائب المستحقة برضاء وقناعة تنفيذا لأوامر الدين .

هاجم على عزت بيجوفيتش النظرية الداروينية التى ترى أن الإنسان حيوان بهيمى تطور على مر العصور . ويرى أن الإنسان مخلوق "نورانى" ويتساءل لماذا لم تتطور الحيوانات الأخرى لتكون لها ثقافة وفن وأدب خاصة أن بعض الحيوانات تتمتع بقدر عال من الذكاء والتنظيم ؟ ، ويستمر فى الفصول الستة لهذا الجزء متأملاً الفرق بين الثقافة والحضارة المادية التى هيمنت على وجدان إنسان العصر الحديث المنبهر والمتفاخر بإنجازاته العلمية. ويرى أنه رغم أهمية الحضارة المادية فى تلبية حاجات الإنسان إلا أنه لابد من الاهتمام " بإنسانية الإنسان " المتمثلة فى الثقافة الروحية والإلهام الفكرى الذى يقوده الدين . ويرى أن المغالاة فى الإنجازات المادية الحضارية

سوف تقضى فى النهاية على إنسانية الإنسان وتحوله إلى آلة تنتج لتأكل وتتمتع وتمارس الشهوات ثم تفنى وتموت عملاً بالمبدأ الرأسمالى اعمل لتكسب واكسب لتنفق وتستهلك ويرى المؤلف أن الإيمان بالله هو الإيمان بالحرية لأنه لا عبودية للإنسان لأحد من المخلوقات إلاّ لربه خالقه ومن يُنكر حرية الإنسان يُنكر وجود الله . و يؤكد على ارتباط الدين بالضمير ، وأن الحضارة ذاتها بدأت بالدين (أطلق برستيد على مولد الحضارة المصرية القديمة اسم مولد الضمير) . ويرى أيضًا أنه لا أخلاق بدون الدين مستشهدًا بعبارة قالها لينين : " أن الاشتراكية العلمية ليس بها ذرة واحدة من الأخلاق". وأن إنكار الدين هو إنكار للمثل العليا مثل التضحية والفداء والاستشهاد والشجاعة ، وإن إنكار الدين يحطم القيم والعلاقات الأسرية والعطف والتراحم وفعل الخير بين بنى البشر .

ويستطرد على عزت بيجوفيتش ليؤكد أنه لا يدعو إلى هجر الدنيا وطلاقها والانسحاب إلى عالم الروح من أجل الدين ، لأنه يرى أن الإسلام يجمع فى تناسق بين الجانبين : جانب التأمل فى عالم الروح وجانب الجهاد المادى والعقلى من أجل إخضاع الإنسان للطبيعة لأن الإنسان جاء إلى الأرض محملاً بأمانة ورسالة : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولا ﴾ .

وبعد هذا الباب الأول من الكتاب الذى عالج فيه الدين والإنسانية يُطبّق فى الشطر الثانى ما توصل إليه على الإسلام الذى يجمع بين عالم المادة والروح ، بين الدين والدنيا ، وبين العبادة والعمل ، وبين التعامل وبناء المجتمع مشيرًا إلى أن اليهودية تميل إلى الجانب المادى لأن " الجنة " فى

نظر اليهودية هى الأرض وأن تعاليمها تدعو اليهودى لخلق الجنة على الأرض ، ومن لا يفعل ذلك يكون مصيره جحيم الدنيا حيث لا توجد حياة أخرى أو خلود أبدى إنما ينتهى وجود الإنسان بفنائه . ولذلك يرى أن مساهمات اليهود فى الحضارة المادية والمخترعات العلمية كثيرة ورائعة لكن مساهماتهم فى المجال الفنى والثقافى والروحى أقل من ذلك بكثير .

ثم يتطرق إلى المسيحية ويقول أنها جاءت ردًا على اهتمام اليهود بالمادة وأمور الدنيا وملذاتها ، فجاء السيد المسيح ليدعو إلى التجرد منها ومن ملذاتها وترك الملذات والشهوات ، والدعوة إلى الانسحاب من عالم الدنيا إلى عالم الروح وأن علاج المجتمع يتمثل فى المحبة والزهد والتقشف ، وأن الإنسان عليه أن يختار إما الدنيا ومتاعها وملذاتها ، وإما السعى إلى مملكة الروح .. مملكة الله .. فما لقيصر لقيصر وما لله لله ، ولا يمكن للإنسان أن يكون خادمًا للدنيا ولله فى آن واحد ، إذ أن عليه أن يختار بينهما .. أما الإسلام فقد جمع بين جانب الدنيا وجانب الروح ، ويضرب مثلًا على ذلك بمحمد نبّى الإسلام فهو يتأمل فى معزل عن الدنيا فى غار حراء ، ثم يهبط من الجبل إلى مكة ليسير فى الأسواق ويأكل الطعام ويتزوج النساء ويقاتل بالسيف من أجل تطبيق شريعة الله ويرى أن الإسلام يحض على العمل بقدر ما يحض على الإيمان . والمسلم الحق هو راهب وتاجر وجندى فى آن واحد ويجمع بين التجارة والكسب والرهبنة بعكس المسيحية التى فرّقت بينهما . وبينما يمتلئ العهد القديم بالقوانين الصارمة التى تُقر الأذى بالأذى ، والسن بالسن والعين بالعين يمتلئ العهد الجديد بالتسامح والعفو : " من منا بدون خطيئة " أما الإسلام فيّقر العقاب لكن يسمح بالعفو والغفران ، فالله – سبحانه

وتعالى - يغفر ذنوب من يتوب إليه ولا يرد أحداً جاء إليه تائبًا مهما ارتكب من أخطاء إلاّ الشرك به : ويستشهد بالآية الكريمة : ﴿ إنما جزاء السيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إن الله لايحبِ الظالمين ﴾ ثم يتعرض لخاصية القانون فى الشريعة الإسلامية بأنه ملزم روحياً ومادياً . أى أن الذى يخرج عن الشرع يتعرض لعقاب وخزى فى الدنيا ولعقاب الله فى الآخرة ، ولهذا يلتزم به عن اقتناع وخوف . أما القوانين الوضعية فيلتزم بها الإنسان خوفاً من العقاب الدنيّوى فقط ، ومن ثم يتهرب منها ويتحايل عليها . وهذا يذكرنا بآراء الاشتراكيين المسيحيين خاصة لوكاس هوبز الذين يرون أن الدين مانع للصواعق الاجتماعية ، وهو قوة أخرى من قوات الأمن التى تستخدمها الدولة لحفظ الاستقرار الاجتماعى ، إذ يقيم على كل إنسان شرطياً ملازماً له من داخله " .

وفى الفصل الأخير وهو الفصل الخامس من الشطر الثانى الذى يحمل عنوان الطريق الثالث : أو الطريق بين المادية العلمية المتمثلة فى الحضارة وبين عالم الروح المعرض عن الدنيا وادياتها : فيقول فيه أن الإنسان لا يستطيع العيش بدون الجانبين . فالماديون المتمثلون فى أتباع المذهب الشيوعى أدركوا فى نهاية التجربة أنه لابد للبعد الإنسانى المتمثل فى الدين ، ومن ثم بدأت المصالحة بين الماركسية وبين الدين ولكن إلى حد ما ، بحيث يكون الدين عاملًا ثانويًا وتابعًا للمادية ومبررًا لوجودها . كما أدركت المسيحية أنه لا غنى عن عالم المادة والعودة من الانسحاب إلى المجتمع والعمل على بنائه وتطويره والعناية بالإنسان وتحقيق العدالة على الأرض والتكافل الاجتماعى بين البشر فظهرت فى أوروبا ما يسمى بالأحزاب

الاشتراكية الديموقراطية المسيحية أى أن الماركسية والمسيحية اقتربتا أخيراً من أفكار الإسلام . وهو لا يرى خطراً على الإسلام من الشيوعية لأن هناك من يجمعهما وهو الواقعية والتعامل المادى والاهتمام بأمور الدنيا ، إنما يرى الخطر على الإسلام يتمثل فى ظهور التطرف والتهوس الإسلامى الذى يدعو إلى الانسحاب والهجرة ومعاداة المجتمع وتكفيره والعمل على هدمه ، وعزل الإسلام عن الدنيا وانغلاقه على نفسه ، و إعطاء الظهر للحضارة الحديثة تشبهاً بما حدث فى الدعوة المسيحية فى مطلعها ولذلك أُطلق على هذا الاتجاه مصطلح " نصرنة الإسلام " .

وبعد هذا العرض الموجز الذى حاولنا فيه تعريف القارئ والباحث بفكر فيلسوف ورجل دولة وزعيم مقاتل ، فإننا نعبر عن إعجابنا للأستاذ الأديب محمد يوسف عدس خبير المكتبات بجامعة قطر والذى أتحف المكتبة العربية بعدد من الترجمات الدقيقة لأمهات الكتب متمنين له عمرًا مديدًا وانجازات علمية راقية .

أ. د. سيد أحمد على الناصرى

رئيس قسم التاريخ ورئيس التحرير

All Correspondence to be directed to:

Editor - in Chief: PROF. S. A. EL - NASSERY,

Cairo University, Faculty of Arts,

Orman, Giza, A. R. E.

رقم الإيداع : ٨٨/٧٣١٧

الترقيم الدولى ٩ - ٠٢٦ - ٢٣٨ - ٩٧٧

Cairo University
Faculty of Arts

THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Volume 17 (JULY 1996)

Cairo University
Faculty of Arts



THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF THE DEPARTMENT OF HISTORY

Editor - in - Chief: Porf. S. A. EL - NASSERY

Volume 17 (JULY 1996)

محتوى العـــدد